الإسلام و العقلانية

جمال البنا



جمال البنا

الإسلام والعقلانية

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد   والصلاة والسلام على رسول ا

فهرس

لأي شيء آخر، بما في ذلك الدين، إلا وقتًا ضئيلاً، واهتماما هامشيا.

إن أسوأ ما اصطحب هذه الظـاهرة الـزعم أن الـدين لا مكان له فيها، لأن الدين هو، على سبيل التعيين، الوحيـد الذي يمكن أن يجابه مشكلة الانطلاق غير المحـدود للحيـاة الحديثة فيفل غربها ويكبح جماحها. إنه وحده الترياق الـذي يمكن أن يشفي المجتمع الحديث، بورجوازيا واشتراكيا، من دائه العضال. وأي محاولة للإصلاح عـن غيـر طريقـه. ستكون من نوع "وداوني بالتي كانت هي الداء" لا يمكـن أن تفي بالمطلوب، فبالإضافة إلى أنها ليست وقائية – فإن مدى كفايتها في العلاج مشكوك فيه. وهي تعجز عـن أن توقـف فسوق الحضارة الحديثة وغلوائها وانطلاقها حتى تبلغ شـفا الهاوية.

فالنظر نظرة عقلانية – يتطلـب تـدخل الـدين لأنـه لا يمكن العلاج علاجا حاسما دونه.. وهو كلام يصدق على المجتمع الغربي، كما يصدق على المجتمـع الشـرقي، مـع أهمية خاصة يكتسبها في المجتمع العربي نتيجة لتأصل الدين وتغلغله في أعماق هذا المجتمع، من الديانة المصرية القديمة

حتى الإسلام، بحيث نجد رجلاً مثل طه حسين لا يمكن القول بأنه من أنصار الدين بوجه خاص، بل إنـه "بطـل أبطـال التنوير" كما يقولون يرفض الرأسمالية والاشتراكية، ويتحدث عن المذهبين "الرأسمالي الذي يقول أصحابه إنه يقوم علـى أساس الاحترام الكامل للحريـة، والشـيوعي الـذي يقـول أصحابه إنه يستهدف قيام العـدل وصـيانته" فـلا يرضـى بالمذهب الأول والثاني، وإنما يقول: "إذا أمكن أن ينشأ مذهب ثالث بين هذين المذهبين يوائم بين الحرية والعدل من جهـة، وبين الدين من جهة أخرى، ويتخذ من الدين أساسـا لحيـاة إنسانية جديدة ترتفع فوق المادة، وترقى إلى المثـل العليـا، وتؤمن بأن الإنسان قوة لا تستطيع أن تحيـا ولا أن تثمـر، ولا تنتج للإنسان حظه من الرقي إلا إذا اتصلت بمصـدرها القدسي الأول عن طريق الإيمان والثقة والأمـل، أقـول إذا أمكن أن ينشأ هذا المذهب كان في نشوئه الخير كل الخيـر لأنه يعصم الإنسان من المادية الجامحة.. ويكفـل لـه فـي

الوقت نفسه نصيبا معتدلاً من الحرية، ويتيح له في الوقت نفسه سعيا متصلاً لتحقيق العدل في الأرض" [1].

هذه كلمة كان لا بد أن نشير إليها أولاً، لكي نضع الدين موضعه، ونأخذ أمره مأخذاً جادا ونؤمن بمنزلته في المجتمع. فإذا سلمنا بذلك، فلا بد أن نتطرق إلى موضوع هذا الكتاب، إلا وهو موقف الإسلام من "العقلانية" وتأييده للنظر العقلي الذي لا تقوم الحياة الرشيدة إلا عليه، والذي لعله هو الذي عناه عندما أطلق على ما قبله "عصر الجاهلية" وعندما استهدف أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور. وقد عني الكتاب بتفنيد تلك القالة الظالمة: دعوى مخالفة الإسلام للعقلانية، وإن من الخير إبعاده عن كل شئون الدنيا، وقصره على العبادة، وصلة الفرد با ، وحصره في "المسجد". وقد بين الكتاب أن هذه الفكرة إنما جاءت من موقف الكنيسة الأوربية من النزعة العلمية التي ظهرت فيها، وأنه قد يكون

---

[1] انظر مقالًا بقلم الدكتور محمد حسن الزيات بعنوان "طه حسين والمذهب الثالث. التوفيق بين الحرية والعدل، وبين الدين" الجمهورية ٨٩/١١/١٦.

لها ما يبررها من هذا الإرث القديم، أو حتـى مـن طبيعـة المسيحية نفسها. التي ترى أن مهمتها هي تخليص الـروح، ولكن ليس لها ما يبررها بالنسبة للإسلام، إلا تأثر لفيف من المفكرين الإسلاميين بالحضارة الأوربية تأثرا ملك ألبـابهم، وغلب على ملكة النقد والتمييز فيهم.

ولكي يعرض الكتاب كل أبعاد القضية فإنه عالج جوانب مثل الموقف ما بين النقل والعقل.. وأثر القلوب التي جعلهـا القرآن أوعية الإيمان على العقلانية. ثم جابه القضايا الأربع التي تطرحها العقلانية على الأديـان، ألا وهـي وجـود ا تعالى وتنزيهه، وخلود الروح بعد الموت والحساب: ثوابا أو عقابا في الدار الآخرة في جنة أو نار، وأخيرا النبوات ودور الوحي فيها. فناقشـها مناقشـة مستفيضـة دون أن يسـمح للجزئيات بأن تحجب الكليات واستشـهد بـآراء المفكـرين والعلماء الأوربيين قاصدا بـذلك أن يقنـع بعـض الـذين لا يقتنعون إلا بما يصدره الغرب. وأخيـرا فإنـه يعـرض خصائص ومقومات العقلانية الإسلامية، ألا وهي:

إعمال الفكر سبيل الإيمان.

الموضوعية والسنن.

الخيرية والصلاح..

***

ولا يعنينا في هذه المقدمة أن نعرض لأبواب وفصـول الكتاب، فهذا أمر يطول، وهو بعد بين دفتي الكتـاب يمكـن للقارئ أن يلم بها بتصفحه، ولكن ما يعنينا هنا هو أن نشـير إلى تساؤل نعلم أنه سيخطر لمعظم القراء. إن الكتاب بأسلوبه وطريقة معالجته يختلف عن الطريقة التقليدية الاتباعية، وعن الأسلوب الذي مرن الإسلاميون عليه، وألفوه، وهـو شـيء يضيق به هؤلاء القراء الأعزاء من ناحية الفهم، ومن ناحية المزاج، ولعلهم كانوا يؤثرون أن يكون ككل الكتب التقليديـة التي تزخر بها المكتبة الإسلامية. لهؤلاء نقول: كفى اجترارا وكفى عكوفًا على ما كتبه الأقدمون. فإن الأقدمين لم يحيطوا بما يكتنف الحياة والعصر، وما قيمة كتاب لا يـأتي بجديـد يضاف إلى بقية الكتب، لقد آن للإسلاميين أن يتخلصوا مـن هذه العادة، وأن يشكروا من يساعدهم على ذلك بدلاً مـن أن يضيقوا به. "وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه" ولكنهـا الحقيقة التي لا يجوز التفريط فيها وتجاهلها.

ولعلي لم أكن سعيدا بوجه خاص بتعبير "العقلانية" ولكن اللفظ اكتسب شهرة وأصبح له دلالة اصطلاحية هـي التـي نعنيها، فتعين الأخذ به. والألفاظ بعد، خدم للمعاني وبقدر ما تؤدي المعنى، بقدر ما يفترض الأخذ بها، لأن الأخذ بغيرها سيكون على حساب المعنى المنشود.

وأخيرا فلعل أفضل ما نختم به هذه المقدمة الموجزة عن الإسلام والعقلانية، هي تلك الآية التي رفعت العلـم عاليـا عندما جعلته المنة الإلهية العظمى:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ا ُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُـولاً مِـنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

١٦٤ آل عمران

جمال البنا

رجب ١٤١١

يناير ١٩٩١

الباب الأول

علاقة الإسلام بالعقلانية

الفصل الأول: الإسلام يؤذن بالعقل

الفصل الثاني: بين العقل والنقل

الفصل الثالث: أثر القلب على العقل

يعالج هذا الباب علاقة الإسلام بالعقلانية فيثبت أن الإسلام آذن بالعقل لعوامل خاصة تميز بها عن بقية الأديان التي لم تكن لتتسق ضرورة مع العقلانية – على طول الخط... وأبرز هذه العوامل:

الصورة غير اللاهوتية تعالى التي تثبت وجوده وصفاته، وإن لم تدرك ذاته وكنهه.

أن المعجزة التي تقدم بها الإسلام كانت "كتابا" ينقذ الناس من الظلمات إلى النور، من الجهل إلى العلم، وليست معجزات مادية كالتي وجدت في الأديان السابقة.

وأخيرا عدم وجود "المؤسسة الدينية" التي تحتكر التأويل والتفسير، وتجمد عليه تبعا لمصالحها المكتسبة كما وقع من أحبار اليهود، وأكليروس المسيحية.

ويناقش الباب في فصله الثاني قضية العقل والنقل، ويوضح أنها في جذورها قضية كنسية – أوربية. وأن الإسلام لا ينكر أبدا العقل، بل يعترف به، ويجعله أصلاً للإيمان وشرطًا للتكليف. ثم يعرض لتجربة الفكر الإسلامي مع الفلسفة اليونانية، وأن عدم توفيقها دفع الفكر الإسلامي

إلى الحديث والتصوف، ومن ثم بدأت تظهر فجوة بين النقل والعقل ويحدد الفصل مناطق الاختصاص السليمة، وأن هناك منطقة يعجز العقل البشري عن التغلغل فيها، هي ما يتعلـق بذات ا تعالى وبعالم ما وراء الموت.

ويختم الباب بفصل عن أثر القلب على العقل، يكشـف فيه عن سر القلوب التي "تفقه" بتعبير القرآن الكريم، ومـدى أثرها على خلوص العقلانية وأن العقـل وحـده والمنطـق المجرد لا يتوصل إلى منجزات العلوم ما لم يكن وراءهمـا إيمان له طبيعة تختلف عن طبيعة العقل، ويعرض أقوال عدد من أبرز علماء الطبيعة، وبوجه خـاص "بلانـك" صـاحب نظرية "الكوانتم" وأينشتين صاحب نظرية "النسبية".

الفصل الأول

الإسلام يُؤْذِن بالعقل

ليس من العسير على الباحث المحقق أن يتبين وجـود خط رئيسي يفصل بين ما قبل الإسلام.. وما بعد الإسـلام، وهذا الخط في عالم الأديان يشبه تلك الخطوط الفاصلة فـي تاريخ الحضارة الإنسـانية، كـالخط الـذي آذن بحضـارة المصريين القدماء، فالخط الذي بدأ الحضارة اليونانية، فخط ظهور روما والحضارة الرومانية، وأخيرا الخط الذي اقترن بدعوة "الرينسانس" في القرن الخامس عشر، ووضع بـذرة الحضارة الأوربية التي آتت أكلها في القرون الخمسة التالية لها. ففي كل هذه الحالات نجد خطأ يؤذن "بنقلة" حضـارية تقدم إضافتها للبشرية. فالعالم قبل أن يقدم المصريون أوليات الحضارة من حروف وورق وعمارة ودين شيء، وبعـد أن قدمها المصريون شيئًا آخـر، وعنـدما تحللـت الحضـارة المصرية القديمة ظهر اليونانيون وقدموا إضافاتهم المبدعـة في الفلسفة والعلوم، ولمـا دالـت دولـتهم بـرز الرومـان

وأصبحت "كل الطرق تؤدي إلى روما" وهيمن الرومان حينًا حتى شاخت حضارتهم وأطبقـت عليهـا ظلمـات القـرون الوسطى لينبثق أول شعاع في دعوة "الأحياء" في الـدويلات الإيطالية ووضع بذرة الحضارة الأوربية المعاصرة.

***

الأمر كذلك في عالم الأديان.

فهناك خط فاصل يميز الدين قبل الإسـلام عنـه بعـد الإسلام.

قبل الإسلام كانت الآلهة محلية ومجسمة. وكانت صورة ا ترتبط بخصائص المحلية وتتقمص أبرز الكائنات في كل دولة. فنجد في مصر الثور. والقطط. وقرص الشمس، وفي اليونان نجد الآلهة ناسا كالبشر لهم نزوات البشر، ولكن لديهم قدرات الآلهة، وكان تزاوج الآلهة بالناس وتناسـلهم أمـرا مقررا ومألوفًا. وعنه صدرت أبرز صور "الثالوث" القديمـة وكان بعض آلهة اليونان يتقمص شكلاً بشريا ليتصل بـامرأة جميلة، وكان يمكن لابن هذه المرأة أن يكون "نصف إله" إلخ

مـــا تفـــيض بـــه الميثولوجيـــا اليونانيـــة أو التاريخ المصري القديم.

وحتى اليهودية فإنها تأثرت بطابع المحلية، فجعلت إلهها إله بني إسرائيل خاصا دون الأمم. وإذا كانت المسيحية فـي فترة ازدهارها قد جاوزت نطاق المحلية، فذلك لأنها خلصت من التأثر بنظم دولة معينة، ولأنهـا هـاجرت مـن مهـبط رسالتها، ولأن محورها "المحبة" والرحمة وتخليص الـروح بالبشارة والإيمان. وهي مشاعر إنسانية. على أنه عندما رفع الإمبراطور قسطنطين الصليب على أسنة الرمـاح أخـذت المسيحية طابعا أوربيا، وتركزت في روما، وفي الوقت نفسه فإن صورة "ا " التي بشر بهـا المسـيح نفسـه واتسـمت بالبساطة نسخت بالصورة التي وضعها القديس بول اليوناني الروماني والتي كانت نوعا مـن الإسـقاط الهلينـي علـى المسيحية بحيث أصبح المسيح مزيجا من بروميثيوس الـذي سرق سر النار وقدمه للبشرية، فأوقع به كبير الآلهة زيـوس عقابا مروعا، ومن التطوير الهليني للديانة المصرية طـوال عهد البطالمة وأخذت فيها شكل "ثالوث إلهي".

***

وأهم من ذلـك أن الأديـان اصـطحبت بـالمعجزات واعتمدت عليها في اكتساب إيمان المؤمنين فكـان لموسـى معجزاته التي نقرأ عنها في التوراة، وكان للمسيح معجزاتـه التي نقرأ عنها في الأناجيل، بل إن هذه المعجزات لم تقتصر على الرسول المؤسس للديانة، ولكنها امتـدت إلـى أتباعـه كالحواريين المسيحيين، وبقية أنبياء بنـي إسـرائيل بحيـث اعتبر أن المعجزة الحسية سواء كانت إحياء للموتى أو شفاء للمرضى أو غير ذلك من الخوارق جزءا لا يتجزأ من الدين، وسبيلاً إلى التصديق به.

***

ونلحظ كذلك اقتران الأديان بالمؤسسة الدينية: كالمعبـد الفرعوني وكهنته والهيكـل اليهـودي وأحبـاره والكنيسـة المسيحية وأكليروسها. ولم يكن يتصـور أن تسـتغني هـذه الأديان عن "المعبد" أو عن السدنة لأن شئون الدين كانت من الطقوسية والكهنوتية والتعقيد بحيث يفتـرض وجـود هـذه الواسطة بين عامة الناس وبين الدين بأسـراره وطقوسـه.. إلخ. فضلاً عن أن وجود هذا التركيب كان مريحـا للجميـع فالكهنة كان من مصلحتهم قيامه لأنه يعطيهم صفة الوسـاطة

بين الناس وا والقوامة على شئون المعابد، وما يوقف عليها أو يخصص لها من أموال.. إلخ. وعامة النـاس رأت فـي مواكب الكهنة وطقوسها ما يتجاوب مع فكرهم عـن منزلـة الدين وعجزهم عن تصور الإله المجرد والمطلق. أما الملوك والحكام فإنهم عقدوا صفقة مع الكهان والأكليروس للهيمنـة على الجماهير والناس، ولم يكن يضيرهم أن ينزلوا عن جزء من ثرواتهم أو اختصاصاتهم لهؤلاء الكهنة لأنهم يستطيعون التأثير على الناس بما لا يستطيعون هم.

واستقرت هذه الصورة في أذهان المفكـرين ودارسـي الأديان، وكانت من أكبر الأسباب التي دفعتهم إلى إصـدار أحكامهم القاسية على الدين. كما كان من شأنها أن تبعد الدين عن "العقل" لأن صورة ا لاهوتية معقدة، ولأن الإيمان يقوم على معجزة، ولأن المؤسسة الدينية تحتكر الدين وتحول دون أي محاولة للتطرق إليه أو إعمال العقل فيه.

وظلت هذه المقومات الثلاث، وأعنـي بهـا: الصـورة المعينة للألوهية، واعتماد الدين على المعجزات والخـوارق أول مرة لاكتساب الإيمان، ووجود المؤسسة الدينية بشـقيها: الهيكل والسدنة. تصطحب في أذهان المفكرين بمعنى الدين،

بحيث اعتبرت مكونات أصيلة للدين لا يتصور دين بـدونها. وكان هذا التصور في أصل الأحكام القاسية التـي صـدرت على الأديان من المفكرين والفلاسفة "والعقلانيين".

***

اختلفت الصورة تماما مع ظهور الإسلام:

كان الإسلام ثورة جذرية في عالم الأديان قضت علـى المقومات الثلاثة التي اعتبرت هي مكونات الدين:

الفكرة اللاهوتية الغامضة، أو المجسمة أو المحدودة تعالى.

قيام الإيمان على أساس معجزة.

وجود "المؤسسة" الدينية التي تحتكر التأويل والتفسـير، وتملك سلطة التحريم والتحليل والحكـم علـى المعارضـين وظهور "المصالح المكتسبة".

وكان الناس الذين ألفوا حتى ذلـك الوقـت أن يأتي كل دين بمعجزة تحمل النـاس علـى الإيمـان حملاً، يطالبون الرسول بهذه المعجزة ﴿ وقَالُوا لَولاَ

نُزلَ عليهِ آيةٌ من ربهِ قُلْ إِن ا َ قَادِر على َأن ينَزلَ آيةً ولِكن َأكْثَرهم لاَ يعلَمون ﴾ الأنعام ٣٧

﴿وقَالُوا لَن نؤْمِن لَك حتى تَفْجر لنَا مِـن الأَرضِ ينْبوعا* َأو تَكُون لَك جنةٌ من نخِيلٍ وعِنَبٍ فَتُفَجـر الأَنْهار خِلاَلَها تَفْجِيرا* َأو تُسقِطَ السماء كَما زعمتَ علَينَا كِسفًا َأو تَأْتِي بِا ِ والْملاَئِكَةِ قَبِيلاً* َأو يكُـون لَك بيتٌ من زخْرفٍ َأو تَرقَى فِي السماءِ ولَن نـؤْمِن لِرقِيك حتى تُنَزلَ علَينَا كِتَابا نقْرؤُه قُلْ سبحان ربـي هلْ كُنتُ إِلا بشَرا رسولاً﴾

(الإسراء ٩٠ – ٩٣)

﴿ويقُولُ الذِين كَفَروا لَولاَ ُأنْزِلَ علَيهِ آيةٌ من ربهِ قُلْ إِن ا َ يضِل من يشَاء ويهدِي إِلَيهِ من َأنَاب﴾

(الرعد ٢٧)

﴿وقَالُوا ما لِهذَا الرسول يأْكُلُ الطعام ويمشِي فِي الأَسواق لَولاَ ُأنْزِلَ إِلَيهِ ملَك فَيكُون معه نَـذِيرا* َأو

يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحورا﴾

(الفرقان ٧ -٨)

أمام هذه المطالبات بالآيات والمعجزات يرد رسول ا ﷺ بقوله تعالى ﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾

وهو موقف يختلف عن موقف عيسى عندما دعا ا أن ينزل عليهم مائدة من السماء ﴿تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ (المائدة ١١٤)

نعم إن مؤرخي السيرة يذكرون معجزات عديدة للرسول، ولكن لم يرد نص واحد عن إيمان بالإسلام بحكم معجزة. والصورة التي تتكرر هي الرسول يقرأ القرآن فيؤمن الناس.. والقرآن نفسه صريح في هذا كما هو واضح من الآية ٥١ سورة العنكبوت وقالوا ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات

عِنْدَ اللهِ وإنما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ* أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ولعائشة رضي الله عنها كلمة جميلة قدر ما هي عميقة "فتحت المدينة بالقرآن" وقد كان هذا الفتح الذي قاده قارئ هو الفتح الأعظم، وهـو الذي كسب المدينة للإسلام وأرسى فيها جـذوره.. فمعركة الكلمة سبقت معركة السيف. إذ لو لم يكسب القرآن المدينة لما كانت غزوة بدر.. وما تلاها..

إن اليد العظمى للإسلام على البشرية أنه استنقذ الإيمان من قبضة المعجزات عندما جعل الوسيلة إليه كتابا. وبعد أن كانت المعجزات هي التي تصنع الإيمان أصبح الإيمان هـو الذي يصنع المعجزات. وبعد أن كان الـنهج المقـرر فـي الأديان أن يخضع العقل للنقل، أصبح النقل يخضـع للعقـل. وفي تلك اللحظة الفريدة في التاريخ: لحظة نـزول جبريـل برسالة "اقرأ". حدث تلاق ما بين الإسلام والفكر. وانقـدحت الحياة في الإسلام كدعوة تقوم على الفكر، لأنه مـا دامـت

معجزته "كتاب يتلى" فلا بد من وجود صلة وثيقة، بينه وبين عالم الفكر.

وهكذا انتفت المعجزة كمبرر للإيمان، بل وجعلت كتابا وكان هذا في سلبه وإيجابه خطـوة كبـرى علـى طريـق العقل...

***

وخلصت الصورة التي قدمها الإسـلام للألوهيـة مـن التجسيم الوثني والتعقيد اللاهوتي والافتراض الفلسفي (كمـا لدى أفلاطون وأرسطو) وليس معنى هذا أنها أصبحت مسألة حسابية مثل ١ + ١ = ٢، لا يتطلب إدراكها عناء. إذ جعلها الإسلام كالمثل الأعلى الذي تصوره الفلاسفة. ولكـن بعـد إضفاء الحياة والإرادة والكمال عليه. وكان هذا أمرا تتقبلـه العقول حتى وإن لم تستطع إثباته بأدلة حسـابية أو بـراهين حسية لأن الصورة التي قدمها لا يمكن أن تنكرهـا العقـول فهل يتصور مثلاً إله يخلق دون أن يكون هو نفسـه حيـا. أو يهدي إلى الكمال دون أن يكون هـو نفسـه الكمـال. إن الاختلاف في التصوير الإسلامي تعالى عـن التصـوير المسيحي أن المسيحية تأثرت بفكرة الثالوث المصري الـذي

كان موجودا في الديانة المصرية القديمة وروج له البطالمـة الذين كانوا يونانيين يحملون رواسب الهلينية والأولمب، حيث يكون بعض الناس آلهة وبعض الآلهة ناسا. وفي هذه الفتـرة بالذات ظهرت المسيحية وتأثرت بها على يدي "بول" اليوناني الروماني خصم المسيحية أولاً ثم قديسـها وبانيهـا ثانيـا، فاصطنعت ثالوثًا يعود إلى أصول مصرية، هلينية، وإسـاغة هذا الثالوث وتفهمه أمر يصعب على العقل البشري للخلـط ما بين عناصر الطبيعة البشرية وعناصر الطبيعـة الإلهيـة خاصة عندما تتولى الكنيسة الشرح فلا تزيد الأمر إلا تعقيدا.

أما في حالة الإسلام فإن الأمر لا يكون عدم الاستساغة، ولكن قصور العقل البشري عـن سـبر غـور الألوهيـة، أو كنهها، أو ماهيتها. لأنها الأصل والمصدر والغاية التـي لا غاية وراءها والمثل الأعلى الأعظم المطلق الذي لا تلحقه أي صفة من صفاتنا المحدودة.

وهذا التصوير حتى وإن لـم يحـط العقـل بأعماقـه وأطرافه، فليس فيه ما يرفضه العقل. بل هو ما يوجبه العقل. وإن لم يصل إلى كنهه وسره، فالعقل يلمس جانب الحق فيه. وواجب وجوده، وضرورة كمالـه. ولكنـه لا يلـم بالكنـه

أو الماهية. وجاء النظم القرآني المعجـز فعـرض صـورة للألوهية دون تعسف أو تكلـف بحيـث تتشـربها النفـوس وتطمئن إليها وتستلهم منها معاني الحرية والرحمة والحـق والعدل والجمال. وهو ما يتضح عنـد مقارنتـه بالأسـلوب الفلسفي اليوناني المعقد في إثبات وجود ا .

وهكذا حل الإسلام تلك القضية الصعبة الحساسة حـلاً مثاليا فعرض الصورة التي تستسـيغها العقـول تعـالى كأفضل ما تصوره الفلاسفة في المثل الأعلى زائـدا عليـه الحياة والقدرة والإرادة والكمال. وفي الوقت نفسه فإنـه لـم يجعله "معلومة" تفهم فهما يقضي عليهـا.. لا، إن الإيمـان بالغيب فيما يتعلق بصفات ا وذاته.. وعالم السمعيات هـو مما لا يمكن للعلم الإنساني أن يدركه، وعدم إدراك الإنسـان له يطلق روح الاستشراف والاستطلاع والشوق والقربـى.. لنتلمس في تقوى وبكل تواضع شعاعا مـن أشـعة شـمس الألوهية بين سطور القرآن الملهمة.

وبهذا وجد القدر المطلوب من المعلوم، والقدر المطلوب من المجهول الذي لا يناقض العقل ولكن يبقـي علـى روح

الاستطلاع والاستشراف. ووجدت الوسـيلة للانتقـال مـن المعلوم إلى المجهول في القرآن الكريم ومطالعته.

***

ولم يعد الإسلام في حاجـة إلـى إقامـة "مؤسسـة" أو تنصيب "رجال دين" أو احتكار التفسير والتأويـل، وجعـل العلاقة بين الفرد وا مباشرة دون واسطة، بل لقد حـارب الإسلام سلطة الأحبار والرهبان ورأى أن قيـامهم بالتحليـل والتحريم شرك. ورفض فكرة التوسل والشفاعة وأن يكـون لأحد ما سلطة أن يقرب الآخرين إلى ا زلفى، وتتبع هـدما وتدميرا كل ما يمكن أن يذكر بالوثنية من تماثيل أو نصب أو قبور مشيدة. فالإسلام كان في حقيقته هـدما شـاملاً لفكـرة "المؤسسة الدينية".

وكان مما يتفق مع هذا ألا يكون بيت العبادة "كنيسة" لها تقاليد، لا يمكن أن يقربها إلا أحد أفراد الأكليروس المؤهلين، لأن ممارسة العبادة لها طقوس وأساليب وأسرار لا يسـتطيع أي واحد الإلمام بها. ولكن لا بد أن يتعلمها في مدارس تتبع الكنيسة، ولا بد أن تعتمدها سلطات الكنيسة الأدنى، فالأعلى. ولا يقف الأمر عند هذا، بل يقـوم هـرم ممـرد قاعدتـه

الشمامسة والقسس في القرى وقمته "البابا" في روما، الذي يسيطر على العالم المسيحي، والذي يتوج الملوك، والذي يصدر المراسيم الملزمة لأنه رأس الكنيسة وحامل مفاتيح السماء، والذي يملك الحرمان" وهو نوع من الموت الروحي، وكانت العادة عند إعلانه أن توقد الشموع وتدق النواقيس حتى يتلى أمر الحرمان. وما إن يتلى حتى تطفأ الأنوار وتتف الأجراس إشارة إلى الموت الروحي لمن وقع عليه الحرمان، ووصل هذا الحرمان إلى الدرجة التي نالت أقوى الأباطرة عندما اضطر الإمبراطور هنري الرابع إلى اللواذ بمقر البابا في كانوسا ١٠٧٧ والوقوف على بابه ثلاثة أيام حافيا حتى تنازل البابا وعفا عنه. وأصبح "الذهاب إلى كانوسا" مثالاً لأسوأ صور الخضوع والإذعان.

المسجد الإسلامي يختلف تماما عن الكنيسة، فالأرض كلها مسجد طهور ولا يشترط لبنائه شروط معينة، والشيء الوحيد الذي قد يميزه وهو المنبر ليس إلا ثلاث درجات خشبية يقوم عليها الإمام حتى يراه المصلون فلا تحجبه الصفوف الأولى عن الأخيرة. وكل واحد يمكن أن يكون إماما مادام يحفظ بعض سور القرآن، ولا تكون له قبل

الإمامة أو بعدها سلطة، ولما كانت الصلوات خمس فيغلب أن يؤديها الناس في بيوتهم أو أعمالهم. ومنظر القروي المصري الذي يصلي على ساحل النيل، والأعرابي الذي يركع ويسجد وسط الصحراء من المناظر التي لا يمكن أن تتكرر في الأديان الأخرى.

***

وهكذا قضى الإسلام على المقومات التي اصطحبت بالأديان السابقة عليه. وكانت في أصل مقاومتها للفكر والعقل أو على الأقل عزوفها عنه. وأصبح الإسلام دينًا مفتوحا، لا يرفض فكرا، ولا يرفضه فكر، كان نقلة من الظلمات – أي الجهل – إلى النور – أي العلم. وهو التفسير لكلمتي الظلمات والنور الذي ارتآه الغزالي في كتابه "ميزان العمل".

كان إيذانًا بأن البشرية بلغت سن الرشد.

***

قد يقول قائل لماذا تجعل الإسلام إيذانًا بالعقل، ولا تجعل الفلسفة اليونانية في عهد سقراط وأفلاطون وأرسطو هذا الإيذان؟. لا جدال أن ظهور الفلسفة في اليونان في هذا

الوقت يمكن أن يعد إيذانًا بعهد العقل.. لكن لأثينا وحدها وليس للبشرية كلها. إن الإسلام قد حمل دعوة "الكتاب والميزان" إلى الجماهير وتوجه بهما نحو شعوب كسرى وقيصر المستعبدة فأنقذها من الظلمات إلى النور. ولكن فلسفة أثينا كانت مقصورة عليها. بل كانت مقصورة على الأحرار الذكور دون الإناث والرقيق.. وعندما أسس البطالمة مكتبة الإسكندرية امتدادا لفلسفة أثينا فإنها كانت يونانية خالصة، وحرم على أهل الإسكندرية الوطنيين المصريين وهم أصحاب البلاد الاقتراب منها، وأخيرا فإن الفلسفة اليونانية لم تتنكر تماما لعالم الأولمبي الخرافي، بل وقف سقراط عند عرافة دلفي يستنبئها فأين هذا من عالمية العقل التي حملها الإسلام إلى كل الشعوب بحيث لم تمض مائة سنة حتى كانت علوم الإسلام. من تفسير وحديث وفقه في أيدي "الموالي". وحتى ما يظن أنه بعيدا عنهم كاللغة العربية. فقد كان سيدها من الموالي. ويحمل اسما غريبا على الجرس العربي "سيبويه" وظهر من أئمة اللغة من لا يحسن – بحكم جنسه – النطق ببعض حروف اللغة العربية كالراء أو الحاء. وما من مثل كهذا يوضح انفتاح الإسلام، وكيف أنه أذن

بالعقل وحمل "الكتاب" دون حدود، أو قيود إلـى الشـعوب قاطبة، فاستفادت.. وأفادت..

وهذا هو أحد الفروق بين عقلانية الإسـلام وعقلانيـة أثينا، وهو السبب في أن الإسلام وليس أثينا كان إيذانًا بالعقل للبشرية، فالعقلانية الإسلامية التي تعود جذورها – كما تعود كل جذور الإسلام – إلـى ا تعـالى – اكتسـبت صـفة موضوعية ومطلقة وتقبلت البشرية كلها. ولكن عقلانية أثينا – وبعدها العقلانية الأوربية – انبثقت من الإنسان الأوربـي وظلت دائرة في دائرته، محكومة بمحدداته.

الفصل الثاني

بين العقل والنقل

ميراث أوربي - كنسي

التعارض بين العقل والنقل ميراث كنسي – أوربي، ولا يمكن فهمه إلا في هذا الضوء، لأن إفراد النقل بطبيعة خاصة، والعقل بطبيعة أخرى لا يعني بالضرورة التعارض أو التناقض، فنحن لا نقول إن العين تناقض الأذن، أو أن السمع يعارض النظر، وإنما نرى أن لكل واحدة وظيفة خاصة تتميز عن الأخرى، ويمكن أن يكونا مكملين. ولكن صفحات متوالية ودامية توالت عبر التاريخ الأوربي وتغلغلت عميقا في الفكر الأوربي أبرزت النقل والعقل كما لو كانا متناقضين وقد حدث هذا قبل أن يظهر الإسلام بثلاثة قرون، واستمر حتى مشارف العصر، أي قرابة خمسة عشر قرنًا. وهي سحابة التاريخ الأوربي، ولهذا أصبحت هذه الفكرة من مسلمات الفكر الأوربي ولم يعد من السهل تغييرها أو تقبل ما يخالفها.

وقد يكون مما ييسر فهم تلك الظاهرة أن الصـراع لـم يكن بين المسيحية والعقل، ولكن بين الكنيسة وحرية الفكـر. وكانت الواقعة التي سمحت بها، بل وأدت إليها هي ظهـور الكنيسة باعتبارها الممثلة الوحيدة للمسيحية. فإن المسـيحية تتطلب رجل دين متخصص أو محترف يقوم بمهـام دينيـة اجتماعية عديدة بدءا من تعميد الأطفال بعد الولادة، حتى دفن الرجال والنساء، مرورا بعقد الزواج وتنظيم الصلاة وتقـديم القربان وتلقي الاعتراف.. إلخ. بحيث لم يكن متصورا عـدم وجود كنيسة، وأصبح من الطبيعي أن يقول عنها المسيحيون. "أمنا الكنيسة" وأدى ذلك إلى احتكار المهنة الدينيـة وتبلـور المصالح في الكنيسة: وعندما اعتنق قسطنطين المسيحية عام ٣٢٣ رزقت الكنيسة تأييد السلطة وبدأ اضطهاد المخـالفين، وفي عام ٣٨٥ أعدم الملحـد الإسـباني بريسـليان بـأمر الإمبراطور مكسيموس، وبرر القـديس أوغسـطين (٤٣٠) ممارسة الاضطهاد على أساس مبدئي متذرعا بكلمة تنسـب إلى يسوع المسيح "**أجبروهم على اعتناق دينكم**" وتمشيا مـع هذا المنطق سلم "أوغسطين" بمعاقبة الملحد بـالنفي والجلـد وفرض الغرامات، ووضع للكنيسة دستورا تلتزمه إزاء كـل

حركة عقلية، فصرح في كتابه "تعليقات على سفر التكـوين" بأن "ليس في الوسع التسليم برأي لا تؤيده الكتب المقدسـة، لأن سلطانها أقوى من كل سلطان أمر به العقل البشري" [١] .

وفي عام ٣٩٠ حطم تيوفيلوس وهـو أحـد المطارنـة إحدى مكتبات الإسكندرية، وبعد ذلك بقرن ضـاق القـديس سيريل "Cyril" وهو ابن أخت تيوفيلوس بالنشـاط الـذي كانت تقوم به هيباثيا ودروسها في الرياضة والفلسـفة فـي الإسكندرية، وكانت قاعة دروسها تكتظ بالمستمعين، فأثـار عليها الدهماء فانقضوا عليها وهي في طريقها إلـى قاعـة دروسها وجردوها من ثيابها ومزقوا جسمها إربا. وفي عـام ٥٢٩ أمر جستنيان بإغلاق مدارس الفلسفة جميعا.. واستمر هذا المنهج بل وازداد مع انتعاش الدراسات اليونانية وتعرف المجتمع الأوربي على فلسفة ابن رشـد، وظهـور حركـة

---

[١] انظر كتاب قصة النزاع بين الدين والفلسفة للدكتور توفيق الطويل ص ٨١ (لجنة الجامعيين لنشر العلم) وسيكون عمـدتنا فـي الفقـرات التالية.

الإحياء، وحرمت الكنيسة على "جون بابتيست بورتا" John Baptist Porta أبحاثه الكيميائية والطبيعية التي كان يقـوم بها في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وتعرضـت جمعيات البحث العلمي والأكاديميات التي ظهرت وقتئذ فـي باريس ولندن ونابولي وفلورنسا وبوجه خاص أكاديميـة "دل شيمنتو" التي عقدت أولى جلساتها في فلورنسا عـام ١٦٥٧ تحت رئاسة الأمير ليوبولـد دي مدتشـي، وكانـت تضـم الممتازين من أهل البحث العلمي الـذين اتخـذوا شـعارهم "دحض كل مذهب فلسفي وإن كـان حبيبـا إلـى الـنفس، وضرورة البحث في ظواهر الطبيعة فـي ضـوء التجربـة وحدها" واستغرقتهم الحماسة في التزام هذا الشـعار، وكـان لأبحاثهم أطيب الثمرات، وحسبنا أن نشير إلـى "بـوريلي" Borelli في الرياضيات، و "ريـدي" Redi فـي التـاريخ الطبيعي، وكثيرين ممن ساهموا في البحث العلمي الصحيح، ووسعوا من نطاق المعرفة الصادقة فعرضوا لدراسة الحرارة والضوء والمغناطيسية والكهرباء وعلاقة المقذوفات بالجاذبية وعمليات الهضم، وعدم إمكانية انضغاط الماء... والتزمـوا في بحثهم المنهج العلمي الصحيح، فكانت الأكاديميـة علـى

يدهم حصنًا منيعا للعلم الجديد. ولكن رجـال اللاهـوت قـد ضاقوا بها فضربوا عليها حصارهم، وأعلنوا اتهام الأعضاء بالهرطقة واللادينية، وقدموا لرئيسها قبعة الكردينالية ثمنًـا لخذلانها وخيانة مبادئها، واستدعي هذا الرئيس إلى رومـا، ولكن القلعة قاومت خصومها عشر سنوات طوال، سـقطت بعدها، وخر أعضاؤها صرعى من عناء الجهاد، فاضـطهد "بوريلي" وحورب في رزقه حتى اضطر إلى التسول وأكره "أوليفا" Oliva على أن ينتحر فرارا مـن عـذاب محكمـة التفتيش [1]".

وقبل هذا أعدم برونو عـام ١٦٠٠ لإيمانـه بمـذهب كوبرونيكوس الذي قاومه الكاثوليك والبروتستانت، وكان أول من مهد للرأي السديمي الحديث. ولما كان حكـم المحكمـة يقضي بقتله دون أن تراق قطرة من دمه، فقد أحرق، وفـي فلورنسا أعدم سافونارولا. وبدأ مع ظهور الطباعـة نشـاط الكنيسة في مراقبة المطبوعات فأصدر البابا إسكندر الخامس أمرا بابويا عام ١٥٠١ ينذر فيه بعقاب من يقدم على طبـع

---

[1] المرجع السابق ص ١٤٧ - ١٤٨.

شيء لم يصرح بطبعه، وقرر الملك هنري الثامن في فرنسا عقوبة الإعدام جزاء الطبع من غير إذن رسـمي، وأدخلـت ألمانيا الرقابة على المطبوعات منذ عـام ١٥٢٩، وكانـت الكتب لا تطبع في إنجلترا – في عهد اليصابات. من غيـر ترخيص، ولا يرخص بوجود مطابع إلا في لندن وإكسفورد وكمبريدج، وتتولى الإشراف على شئون المطبوعات محكمة النجمة Star Camper ولم تتخلص الطباعة من هذه القيـود إلا في القرن الماضي [١] .

وبدأت مع ظهور الأبحاث الحديثة في علم الفلك جولـة جديدة من الاضطهاد باضـطهاد كوبرنيكـوس، ومحاكمـة جاليليو، وتمسكت الكنيسـة لأسـباب لا يمكـن أن تبـرر إلا بالتعصب، والغباء، وضيق الأفق بما جاء في العهد القديم عن تكوين ا للأرض بصورة معينة تفهم أنهـا مبسـوطة ثابتة، وإنها مركز الكون وخلق آدم وأبنائه ابنا ابنـا حتـى موسى وبقية الأسباط، وهي أمور ليست من صميم العقيـدة، أو على الأقل ليست مما جاء بـه المسـيح أو الحواريـون.

---

[١] المرجع السابق ص ١٥٢.

وكانت هذه القضايا هي محور أكبر حركة اضـطهاد للعلـم والعقل، ولا شيء يمثل عناد الكنيسة مثل ما نقل عـن أحـد آباء الكنيسة "إن ثبات الأرض أمر مقـدس ثلاثًـا thrice sacred وإن التدليل على فناء الـنفس وإنكـار ا وعـدم تجسيده، يمكن أن يلقى تسامحا قبل أن يظفر بهـذا التسـامح التدليل على أن الأرض تدور[1]" وحدد آخرون تاريخ خلـق العالم، بأنه بدء في التاسعة من صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر أكتوبر عام ٤٠٠٤ ق. م[2].

وكان إصرار بعض آباء الكنيسة على هذه القضايا فـي الوقت الذي تفتحت آفاق المعرفة في الجيولوجيا، وفي الفلك، وفي الطبيعة وظهور نظرية التطور والانتخـاب الطبيعـي، التي يصعب تفنيدها، وأدت نتائجها إلى ما يخـالف دعـوى الكنيسة، هو مما انتهى بهزيمـة الكنيسـة وإقصـائها عـن المجتمع بحيث لا يكون لها وجود إلا ساعة واحدة يوم الأحد، أو في المناسبات الاجتماعية، وفقـدت دورهـا باعتبارهـا

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٧.

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٣.

الموجهة السياسية والاجتماعية والعلمية للمجتمع. واعتبر ذلك وضعا طبيعيا، بل اعتبر الشرط الأول للتقدم الحديث وظهور الدولة العلمانية التي تميز العصر الحديث.

وانسحبت هذه الفكرة ذات الأصل الكنسي – الأوربـي الضارب في القرون الوسطى على كـل الأديـان كقاعـدة مقررة، مع أن المفروض أن المسيحية شيء، والكنيسة شيء آخر، وأن المسيحية نفسها شيء، وبقية الأديان شيء آخـر، وأن أصول القياس تتطلب شروطًا لم يلحظها الذين أطلقـوا الأحكام وعمموها على الأديان الأخرى بما فيهـا الإسـلام، ونقلها دون وعي المفكرون الإسلاميون الذين استلهموا الفكر الأوربي على علاته، في حين أن هذه القضية بالنسبة للإسلام ليست ذات موضوع.

العقل في الفكر الإسلامي:

مع أن الإسلام كبقية الأديان يعتـرف بـالوحي، فـإن الإسلام يتميز بالتحرر من الخصائص الثلاث التي أوجـدت هوة ما بين الدين والعقل، وأشرنا إليها في الفصل السـابق،

فلم ينشأ تصوره للألوهية عن "لاهوت" ولا اعتـرف بنظـام كنيسة، ولا أقام الإيمان على أساس معجزة، ومن هنا فلم تكن لدى الفقهاء المسلمين الأوائل حساسية بالنسبة لمضمون العقل ووجد من قال "كل ما حكم به العقل حكم به الشرع. والعقـل رسول في الباطن، والشرع عقل في الظـاهر". وقـد اتفـق المسلمون تقريبا على أن الاعتقاد با متقدم على الاعتقـاد بالنبوات. فلا يمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمـان بـا . فلا يصح أن يؤخذ الإيمان با من كلام الرسـل، ولا مـن الكتب المنزلة. فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله ا إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود ا ، وبأنه يجـوز أن ينـزل كتابـا ويرسل رسلاً ومن أجل هذا قال علماء الكلام إن أول واجب يلزم المكلف أن يأتي به هو النظر والذكر لتحصيل الاعتقـاد با لينتقل منه إلى تحصيل الإيمان بالرسل وما أنزل علـيهم من الكتب – فمن قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا عن طريق العقل كالعلم بوجوب ا وقدرته على إرسال الرسل، فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي[٣] .

---

(٣) انظر مقالًا عن "مصادر التشريع الإسلامي" بقلم الشـيخ عبـد ا

وقال الشيخ محمد عبده: "لا يصح أن يؤخذ الإيمان با من كلام الرسول، أو من الكتب المنزلة، وإنما لا بد أن يصل الإنسان إلى معرفة ا أولاً بعقله ثم يصل إليه في الإيمـان بالرسل". وقال الشيخ مصطفى المراغي: "لا يجوز الاسـتناد إلـى التقليـد فـي أصـول العقائـد. وإن إيمـان المقلـد لا يعبأ ا به، وهو إيمان لا عمـل لصـاحبه فيـه". ومـن المعروف والمقرر أن العقل هو الشرط المسبق للإيمان، وأن التكاليف الشرعية تسقط عن المجنون، ولا تلزم الطفل الـذي لم يبلغ الحلم وقيل إن سلطان العقل هو ميزان ا في أرضه.

ولقد ألف ابن تيمية في موضوع العقل والنقل كتابين من أفضل الكتب. هما "درأ تعارض العقل والنقل" و "بيان موافقة صريح المعقـول لصـحيح المنقـول". أثبـت فيهـا أنـه لا يوجد مطلقًا تعارض ما بين صحيح المعقـول وصـحيح المنقول، وأن الخلاف إنما يكون بين الظنيين منهمـا، وهـذا أمر مفهوم وتسمح به الاجتهادات.

مصطفى المراغي المفتش بالأزهر – نشر في مجلة منبر الشرق في ٤ شعبان ١٣٧٥ هـ، ١٦ مارس ١٩٥٦، ص ٣..

وكل المذاهب الإسلامية تضع العقل هذا الموضع، بيـد أن أشدها إقرارا وأكثرها اعترافًا بمنزلة العقل هو المـذهب الزيدي الذي وضع أصوله الإمام زيد بن علي "زين العابدين" بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وهو المذهب الذي جنت عليه شبهات الشيعة، فعزف عنه أهل السنة، وكـان جـديرا بالتقدير.

ففي المذهب الزيدي تقدم قضية العقل المبتوتـة علـى القرآن الكريم.

وجاء في "الفصول اللؤلؤية للأصول الزيديـة لصـارم الدين الوزير"، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية:

وكيفية الاجتهاد في الحادثـة أن يقـدم المجتهـد عنـد استدلاله قضية العقل المبتوتة، ثم الإجمـاع المعلـوم، ثـم نصوص الكتاب والسنة المعلومة، ثم ظواهرها كعمومها، ثم نصوص أخبار الآحاد، ثم ظواهرها كعمومها، ثم مفهومـات الكتاب والسنة على مراتبها، ثم مفهومات أخبار الآحاد، ثـم الأفعال والتقديرات كذلك، ثم ضروب الاجتهاد الأخرى، ثـم البراءة الأصلية ونحوها.

ويبدد الشيخ أبو زهرة في كتابه "الإمام زيد" ما قد يعلق بالذهن من شكوك، لعدم وضوح هذا الإجمال فيقوم:

"وإن هذا الكلام يستفاد منه أن قضايا العقل القطعية، هي في المرتبة الأولى، كما أن الإجماع المتواتر المعلوم به مقدم على نصوص القرآن الكريم والسنة المتواترة والمعلومة وقد يبدو الأمران غريبان، ولا بد أن نزيل الغرابة فيهما.

فالعقل الذي يقدم على النصوص هو القضايا العقلية المقطوع بها، من حيث معرفة ا تعالى وإثبات نبوة محمد ﷺ وكون القرآن من عند ا تعالى، وأن محمدا جاء بهذا الدين، وأن ما يقوله عليه السلام، هو من تبليغ رسالة ربه، فإن ذلك مقدم من حيث الترتيب المنطقي على الاحتجاج بالقرآن والسنة، لأنه يقوم عليه إثبات صحة الاحتجاج بهما.

فالعقل يرجع إليه في الشرع إذا لم يكن ثمة أي طريق شرعي يرجع إليها. وليس هذا داخلاً في قضية العقل المقدمة على النصوص والفرق بين حكم العقل في الموضعين من ثلاث نواح. أولاها أن قضية العقل المقدمة على النصوص هي: قضية العقل المبتوتة، أي المقطوع بها التي لا تقبل

نقضا، وحكم العقل بحل أو تحريم، إنما هو أمر ظني ولـيس بأمر قطعي.

الثانية: أن قضية العقل المقدمة، هي ما يقوم عليه أساس الخطاب الإسلامي، وهو الإيمان با   ورسوله النبي الأمـي، الذي جاء بهذا الكتاب والإيمان بالمعجزة، وأما حكم العقل في التكليف، فهو متأخر عن الخطاب بشرع الإسلام، إذ هو بناء على ما جاء به الشرع، فحكم العقل عندئذ غير خارج علـى ما جاءت النصوص، بحيث لا يكون غريبا عنها – فمثلاً إذا رأى بعقله أن في أمر فسادا، ولم يجئ نـص بـالتحريم أو بالتحليل، كان العقل حاكما بالتحريم لأن ا تعالى لا يجيـز الفساد ولا يرضاه لعباده، وإذا رأى العقل في أمر مصـلحة ولا نص عليها، فإنه يحكم بأن ا تعالى، يطالب بها لأن ا تعالى رحيم بعباده، وكل مصلحة فيها رحمة ما دامت خالية مـــن الفســاد، ولا يترتــب عليهــا فســاد، ولا موضع فيها لنهي.

الثالثة: أن موضوع قضية العقل المقدمة هي ما يقـوم عليه شرع الشرائع عامة، أما حكم المتأخر فهو حكم العقـل في الوقائع الجزئية".

كما يفند المؤلف ما قد يظنه البعض من شكوك حـول تقديم الإجماع على ما يقضي به القرآن الكريم والسنة النبوية فيقول:

لقد ذكر صاحب (الفصول اللؤلؤية) أن الإجماع الـذي يبتدأ به هو الإجماع المعلوم، وهو الإجماع الذي ثبـت فـي حقائق الإسلام الأولى، التي ثبتت بالتواتر من النبي ﷺ تواتر عليها إجماع المؤمنين في عهد الصحابة، لأنهم تلقوا ذلك عن النبي ﷺ، وإجماع التابعين من بعدهم لم يشذ أحد في العصر الأول الصحابي، ولا أحد في العصر التابعي، كإجماعهم على أن الصلوات خمس، وكإجماعهم علـى أن صـلاة الفجـر ركعتان والظهر أربع والعصر والعشـاء كـذلك والمغـرب ثلاث، وإجماعهم على أن الصلاة المفروضة هي على هـذه الهيئة التي وردت عن النبي ﷺ، وكإجماعهم علـى الصـوم وأشكاله وإجماعهم على الزكوات وعلى مناسك الحج، وغير ذلك من الأمور التي تلقاها الصحابة بالإجمـاع، فـإن هـذه موضع تسليم لا موضع اجتهاد، وهي الحقائق التي لا يصـح لمجتهد أن يخالفها، معتمدا على ظاهر نص أو متعلقًا بظاهر أثر.

وليس تقديم الأخذ بهذه المسلمات على الاجتهاد في القرآن والسنة تقديما للإجماع في حد ذاته على القرآن والسنة، بل هو تقديم لأمر ثابت عن النبي ﷺ، بطريق ليس لأحد أن يشك في نسبتها، فهو أخذ بأقوى سنة، وأخذ بأحكام ما يدل عليه القرآن من أحكام [٤].

ولاحظ مؤلف "الزيدية" عندما كان بصدد الحديث عن القاسم الرسمي "ما من مفكر – فيما أعلم – قدم العقل على الكتاب، بحجة أن الكتاب والرسول يعرفان بالعقل، بينما لا يعرف العقل بهما – وقد أصبح تقديم العقل نهج الزيدية في أصول الفقه، ومع أن النزعة العقلية نهج المعتزلة، إلا أني لا أعرف معتزليا قدم العقل على هذا النحو من الصراحة، حقيقة لقد قالوا: إن صدق الرسول إنما يعرف بالعقل إذ به يتميز النبي الصادق عن المتنبئ الكاذب، ومن ثم فالعقل مقدم على الرسول وعلى ما جاء به النبي من كتاب منزل، وحقيقة لقد ذهب المعتزلة بل وبعض الأشاعرة كالرازي، إلى ترجيح العقل على النقل، ولكن لا أظن أن مذهبا فقهيا سواء الحنفي،

---

(٤) الإمام زيد للشيخ محمد أبو زهرة ص ٣٣١ – ٣٣٥ بتصرف.

مذهب معظم المعتزلة، أو الشـافعي، مـذهب كثيـر مـن الأشاعرة، قد قدم العقل على الكتاب، كمصدر للتشريع، وإنما ذلك عند الزيدية ابتداء من القاسم الرسي [5] ".

وقال القاسم الرسي في وصف العقل "العقل آمن أمـين وأفضل قرين فاستأمنه على أحوالك وجميع خلالك".

ومع أن المذهب الزيدي هو أكثر المـذاهب الإسـلامية صراحة في تقديم العقل على النقل حتى لو كان هذا النقل هو القرآن الكريم نفسه، فإن مضمون المذاهب الإسلامية الأخرى لا يختلف عنه كثيرا. وقد ظهر ذلك فـي معالجـة قضـية احتمال وجود تعارض بين العقل والنقل. واستشـهد كاتـب معاصر هو الشيخ محمد سعاد جلال بكلام الرازي فقال:

وإنما يكون الإشكال إذا تعارض حكم قطعي من العلـم بنص قطعي من القرآن.

---

[5] الزيدية بقلم الدكتور أحمد محمود صبحي – الزهراء للإعـلام – ص ١٣٧.

فذهب الرازي إلى الجزم بتأويل نص القرآن حينئذ – كما في قوله تعالى: "حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة" وتأويله إن ذلك يكون بحسب رأي العين – **لأن العقل أصل والشرع فرع عنه. فلو غلبنا العمل بالشرع على العمل بالعقل لعاد الفرع على أصله بالنقض، وذلك باطل،** وإنما يفهم ذلك مما قرره علماؤنا أن العقل يستقل بإثبات وجود ا ووحدانيته واتصافه بالحياة والعلم والإرادة والقدرة وجواز إرسال الرسل عليه، ثم يعزل العقل نفسه – فلا يتوقف العقل على الشرع في مثل هذه الأمور لأن الشرع متوقف عليه فيها، فلو توقف عليه العقل لزم "الدور" والدور باطل.

ويشرح الشيخ محمد سعاد جلال حكاية "الدور" وتوضيحه ببساطة " لا يصح أن تقول علم ثبوت القرآن متوقف على وجود ا وعلم وجود ا متوقف على علم ثبوت القرآن، لأن هذا دور باطل لا يؤدي إلى صحة ثبوت القرآن ولا إلى صحة وجود ا وإنما نكسر هذا الدور بأن نقول علم ثبوت القرآن متوقف على علم وجود ا ، لكن علم

وجود ا ثابت بالعقل وحده لا بالشرع. فمن هذا يصح الشرع من حيث صحة إنبائه على دليل العقل وحده" [٦].

الفكر الإسلامي والفلسفة :

ولكن من المؤسف أن معظم المفكرين الإسلاميين استثمروا تشجيع الإسلام للفكر العلمي، وإعمال العقل أكثر ما استثمروه في المجال الوحيد الذي نهى الإسلام عن إعمال العقل فيه، لأن العقل يعجز عن استيعابه وهو صفات ا تعالى وما يتعلق بذاته – ففي هذا المجال بالذات انصبت معظم أبحاث العلماء المسلمين، بحيث أنهم أوجدوا علما جديدا، هو الذي يطلق عليه "علم الكلام" الذي يقوم على أصول الفلسفة اليونانية.

كما استعاروا لعلم الأصول، أو أصول الفقه من المنطق الأرسطي مقدمات كمباحث الدلالات اللفظية وأقسامها وانقسام اللفظ إلى نسق وتصديق، والحاجة إلى الكلام بناء

---

(٦) مجلة الهلال – عدد يناير سنة ١٩٨٠ ص ٤٣ – ٤٤.

على ذلك على مبادئ التصورات مـن الأقـوال الشـارحة، والتعريفات وانقسامها إلى حدود ورسوم ومبادئ التصديقات، والكلام على البرهان وكيفية استخدامه فـي إثبـات دعـوى المستدل ونقض الكلام المعارض ونحو ذلك[٧].

وقد نلحظ في كتاب مبسط لعلم الأصول آثار المناطقـة "وشرط ما يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده وجـود وعدم لذاته. كالطهارة بالنسبة للصلاة، لأن مجرد الوضـوء ليس كافيا في تحقق الصلاة ولا في عدمها إلخ..".

ولما كان الخط السلفي قد تبنى علم الكـلام وتقريراتـه فقد تسلل الأسلوب الفلسفي، المنطقي إلى عقر العقيدة، وسلم بذلك معظم علماء السلف، وليس ابن رشـد أو ابـن سـينا، أو المعتزلة وحدهم.

وقد بدأ ذلك من أبي الحسن الأشعري نفسه، الذي حاول أن يجمع ما بين النص ومذهب أهل العقل وعلمـاء الكـلام

---

(٧) انظر بحث أصول الفقه منهج بحث ومعرفة الفقـه الإسـلامي – الدكتور جابر العلواني جاء في : Islam: Source and Purpose of Knowledge P. ٢١٦.

وتقصى أحد المؤلفين تطور تسلل علم الكـلام إلـى الفكـر الإسلامي فقال: "ومن بعد الأشعري في بناء مدرسته واتجاهه كان القاضي أبو بكر الباقلاني. وينسب إليه وضع المقـدمات العقلية (الفلسفية)، كالجوهر الفرد، في تـأليف علـم الكـلام الأشعري.

ومن بعده كان إمام الحرمين؛ أبو المعالي عبـد الملـك الجويني النيسابوري الملقب ضياء الدين (ولد سنة ٤٢٠هـ ـ - وتوفي سنة ٤٧٨هـ ـ). درس فـي المدرسـة النظاميـة بنيسابور علوم التوحيد والفقه والمنطق ثلاثين سنة، وله كتاب (نهاية المطلوب)، مخطوط بدار الكتـب المصـرية. وهـو صاحب كتاب (الشامل) وتلخيصه (كتاب الإرشاد). وينسـب إليه زيادة عن سلفيه. استخدام المنطق الإغريقي في تـأليف علم الكلام الأشعري.

ومن بعد إمام الحرمين كـان تلميـذه الغزالـي حجـة الإسلامي المتوفى سنة ٥٠٥هـ. وينسب إليـه فـي بنـاء المدرسة الأشعرية أنه في التـأليف علـى طريقتهـا أدخـل الفلاسفة للرد عليهم، بعد أن كان الرد قبله مـن أئمـة هـذه المدرسة قاصرا على المعتزلة وحدهم.

والإمام ابن الخطيب تابع الغزالي في نهجه في الرد على الفلاسفة والمعتزلة في التأليف على النمط الأشعري. والبيضاوي صاحب (الطوالع) زاد من خلط مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة. وعلماء الأعاجم: كسعد الدين التفتازاني والإيجي، تابعوا البيضاوي في نمطه في التأليف[٨] ".

ويمكن القول إن تجربة الفكر الإسلامي في هذا المجال لم تكن موفقة، وإن النقل في هذه النقطة كان أجدى من العقل، لأن العلماء المسلمين الذين درسوا الفلسفة اليونانية على أساس استخدامها في إثبات وجود ا وتنزيهه، أخذوا بها ودفعهم ذلك إلى عالم من التفريعات والافتراضات، لم يكن لهم بها عهد. وبعد فترة تحولت أهدافهم إلى محاولة التوفيق بين العقيدة والفلسفة ورأوا أن **الحكمة مولدة الديانة... والديانة متممة للحكمة. وقال إخوان الصفا إن الشريعة قد دنست بالجهال، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها إلا بالفلسفة،** كما قال السجستاني. وماذا يجدي الفكر الإسلامي كتاب (الجمع بين رأيي الحكيمين) للفارابي

---

[٨] د. محمد البهي – الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ج ٢ ص ٤.

والذي قال فيه "ولولا ما أنقذ ا أهل العقول والأذهان، بهذين الحكيمين – أفلاطون وأرسطو، ومن سلك سبيلهما ممن وضحوا أمر الإبداع بحجج واضحة مقنعة، وأنه إيجاد الشيء لا عن شيء، وإن كل ما يتكون من شيء ما، فإنه يفسد لاستحالته إلى ذلك الشيء، والعالم مبدع من غير شيء فمآله إلى غير شيء.. فيما شاكل ذلك من الدلائل، والحجج والبراهين، التي توجد كتبهما مملوءة منها، وخصوصا ما لهما في الربوبية، وفي مبادئ الطبيعة – لكان الناس في حيرة ولبس.." فأين الإسلام هنا، وأين رسالة محمد، وأين نور القرآن وبراهينه التي غرس بها الإيمان غرسا يفوق غرس الفلسفة بمراحل.

إن كلام الفارابي، ومن ذهب مذهبه، يصدق تماما على المجتمع اليوناني أيام أفلاطون وأرسطو، هذا المجتمع الذي لم يعرف قرآنًا، ولم يحظ برسالة، وقام الفلاسفة فيه بدور الأنبياء. ولكنه لم يعد ذا موضوع بعد رسالة الرسول ونزول القرآن بأسلوب جديد وببراهين تتمشى مع الرسالة الدائمة والعامة للبشرية ولكن أصولهم الأعجمية، وغربتهم عن المنطق القرآني. وغلبة الرواسب القديمة، أعلت المنطق

الأرسطي. ولو تعمق الفارابي وابن سـينا وأمثالهمـا فـي القرآن، كما تعمقوا في فلسفة "الحكيمين" لما اشتروا الذي هو أدنى بالذي هو خير. ولكن قد يلتمس لهم عذر بهيمنة الفقهاء التقليديين على الفكر الإسلامي وقتئذ – وحيلـولتهم دون أي تأصيل.

وعرض الدكتور محمد البهي لتفسير ابن سينا للآيـة ﴿ ا ُ نُور السماواتِ والأرضِ مثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيها مِصـباح الْمِصباح فِي زجاجةٍ الزجاجةُ كَأَنها كَوكَب دري يوقَـد مِـن شَجرةٍ مباركَةٍ زيتُونَةٍ لاَ شَرقِيةٍ ولاَ غَربِيةٍ يكَاد زيتُها يضِيء ولَو لَم تَمسسه نَار نُور علَى نُورٍ يهدِي ا ُ لِنُورِهِ من يشَـاء ويضرِب ا ُ الأمثَالَ لِلناسِ وا ُ بِكُل شَيءٍ علِيم ﴾. فقال.

"... فالنور إما ذاتي أو حقيقي، أو مستعار، والمسـتعار إما الخير وإما السبب الموصل إلى الخير. وفسر السـماوات والأرض بأنها الكل. والمشكاة هي العقل الهيولاني ومفتـاح العقل المستعار والزجاجة بالواسطة، وشجرة مباركة بـالقوة

الفكرية، والنار بالعقل الكلي المدبر للعالم المشـاهد. وهـو النفس الكلية عند أفلاطون[٩] ".

ولا جدال في أن هذا التفسير أبعد ما يكون عمـا أراده القرآن، وتصوير القرآن تعالى تتشربه النفـوس ويعطـي الأثر المطلوب دون تكلف أو إغراب. في حين لا يقدم تفسير ابن سينا الذي تعلم على أرسطو وأفلاطون إلا خبطًا في عالم غريب. ومثل هذه المحاولات هي "تلغيـز" ولـيس تفسـير القرآن. فالقرآن واضح مؤثر مقنع بذاته، بلفظـه وجرسـه ونظمه.

أو خذ مثلاً هذه الصفحة من كتاب الطبيعـة لأرسـطو الذي ترجموه:

".. فإن كان الذي هو الموجود ليس هو ممـا يعـرض لشيء أصلاً، بل إنما له بـالحري يعـرض مـا يعـرض، فالموجود إنما يدل على الذي هو الموجود، أو يكـون يـدل على غير الموجود. وذلك أنه إن كان الذي هـو الموجـود أبيض، فلأن معنى أبيض ليس هو الذي هو موجـود. لأنـه

---

(٩) مرجع سابق ص ٢٠.

ليس يمكن أن يكون الموجود يعرض له، من قبل أنه ليس موجودا إلا الذي هو الموجود، فليس الأبيض إذا بموجود لا على أنه ليس هو الذي هو الموجود، بل على أنه غير موجود أصلاً. فيجب إذن أن يكون الذي هو الموجود غير موجود، وذلك أن القول فيه بأنه أبيض حق، فقد وجب من ذلك أن الأبيض أيضا يدل على الموجود، فالموجود إذن يدل على معان شتى"!؟

ويقول مؤلف (رأي في الفكر الإسلامي): ولنا أن نتصور أي جهد تبدد في هذا الهراء، وأي ضرر لحق بالأمة عندما أعرض علماؤها عن كتاب ربهم الواضح، وسنة نبيهم السهلة ليتفرغوا لشرح النص السابق لأرسطو على النحو التالي:

"... إن الموجود إن لم يدل على معان شتى حتى يدل على الشيء العارض على الموضوع وعلى الشيء الذي هو الموجود، يعني الذي هو أولى بالوجود، وهو الموجود على الحقيقة لا يعرض وجوده على غيره وهو الجوهر وهو الواحد على الحقيقة لأنه الواحد بالعدد. بل إن كان الموجود هو الشيء العارض على الجوهر فإنه يلزم منه أن يكون

الجوهر موجودا، لأن الموجود قد عرض له. ولا يجـوز أن يعرض الموجود لما ليس بموجود [١٠] !!

وأسوأ من هذا أنهم زجوا في مجال الفقـه الإسـلامي بمشكلات للأديان والعقائد الأخرى. لم توجد فـي الإسـلام، أو آثر الإسلام أن يتجاهلها. وجعلوا هذه القضايا مدار بحثهم ومحور دراستهم وألفوا فيها المجادلات التي لوثت صفاء الفكر الإسلامي وطريقته السهلة السائغة التي تعتمد على الفطـرة والبديهة والملكة.

وفي نهاية كتابه (الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي) عرض الدكتور البهي مأساة المفكرين المسلمين الذين أرادوا أن يتخذوا من الفلسفة وبالذات الفلسفة اليونانية دلـيلاً علـى وجود ا .

---

[١٠] سعيد محمد حسن – رأي في الفكر الإسلامي – القاهرة ١٩٧٦ ص ٤٣ ، ٤٤ (دار ممفيس للطباعة ١٩٧٦) ومن المؤسف أن الكاتب فيما نظن لم يتابع كتاباته – التي أشار إليها في المقدمة فقد كان يرجى منها خير كثير.

"إن ما أفاده فلاسفة المسلمين المشائيون في الشرق من الاستدلال على وجود ا من "الوجود" نفسه، جانب ما في الدين من دليل عليه مشتق من العالم الواقعي – نتيجة قبولهم فكرة واجب الوجود الإغريقي، لا يتكافأ مع مجهودهم العقلي في التوفيق بين الإسلام والفلسفة فيما أثاره واجب الوجود في هذه الفلسفة من إشكالات، وعلى الأخص في وصف ا بصفاته التي وردت له في القرآن الكريم، وفي علمه لما يجري في ملكوته.

ثم بعد هذا كله لا يصلح تفلسفهم أن يكون أساس توجيه ديني، لأنه لا يلتئم مع طبيعة الدين كدين، كما لا يصلح أن يكون أساسا لتوجيه عقلي لما فيه من كثرة التعاريج والالتواءات، نتيجة الخلاط من عدة مذاهب وآراء.

ولو درى فلاسفة المسلمين المشائيون قيمة الفكر الإغريقي، وأنه لم يخلص تماما من الشعر والخيال، لآثروا أن يكون لهم منطق خاص بهم.

ولو علموا نتائج قبولهم آراء أفلاطون وأرسطو في شرح العقيدة، على العقيدة من حيث هي عقيدة، لتركوا

للقرآن الكريم وحده كما هو الطريق إلى قلوب المصدقين وعقول الخاصة من الناس [11]".

ولو أن هذه العقول العبقرية ركزت بحثها في العلوم الطبيعية كما فعل ابن الهيثم، والبيروني، والخوارزمي.. إلخ، لتحقق في بغداد ما تحقق في أوربا عهد الأحياء. ولكسبت المعرفة عشرة قرون ولجاءت من مصدر قد يلحظ في استخدامها، أو يضع لها أدبيات الإسلام، أو لو أن المعتزلة الذين عالجوا قضية العدل بالنسبة تعالى، عالجوها بالنسبة للخليفة أو طبقوها على أنفسهم عندما سنحت لهم فرصة الحكم، لحال ذلك دون تدهور النظام السياسي ولظفر أدب الحوار بنماذج أفضل من نماذج إجبار الناس على القول برأي واحد دون تقدير لآرائهم الخاصة.

وما معنى قضية الصفات التي أصبحت محورا من محاور الصراع في الفكر الإسلامي ودارت حولها معارك وأدت إلى انقسامات.. سوى جدل لا يخطر لرجل سليم القلب سوي الطوية آمن بآيات القرآن الكريم، كما آمن الصحابة،

---

(11) د. محمد البهي – مرجع سابق ص ٢٦٠.

فلم يخطر له أن يسأل أو يستقصي.. لأن المعنى المطلـوب وصل قلبه فأدفأه بالإيمان وأسعده باليقين، وأصبح كل ما عدا هذا فضولاً، بل افتياتًا وتلاويثًا، إننا في هذا الاتجاه نتفق مـع الذين رفضوا أصلاً الحديث في هذه القضية ورأوا أنها مـن محدثات الأمور، ونتفق مع ما يقوله ابن الجوزي في كتابـه "فضل علم السلف على الخلف" وإن كنا نختلـف معـه فـي قضايا أخرى. وقد قال ابن الجوزي في كتابه هـذا (ص ١٧ دار الطباعة المنيرية – القاهرة).

"ومن ذلك أعني محدثات الأمور – ما أحدثه المعتزلـة، ومن حذا حذوهم من الكلام في ذات ا تعالى وصفاته بأدلة العقول وهو أشد خطرا من الكلام في القدر. لأن الكلام فـي القدر كلام في أفعاله، وهذا كلام في ذاته وصفاته".

***

وكان رد فعل تجربة الفكـر الإسـلامي مـع الفلسـفة اليونانية وما تورط فيه المعتزلة وعلماء الكلام مـن سـخف وجدل، أن اندفع الفكر الإسلامي إلى التصوف. كما انتهـى إلى ذلك الغزالي، أو إلى السنة وبالذات الحديث. ولم يكن في هذين ما يشجع العقل بوجه خاص. ومن هنا تهيـأ المنـاخ

لحدوث المأساة التي انتصر فيها النقل على العقـل، والتـي توضحها الفقرة التالية.

بين المتن والسند:

كان الملاذ الأول للفكر الإسلامي بعد أن ظهـر عقـم تجربته مع الفلسفة هو الحديث. وقد يصور ذلـك تصـويرا رمزيا انتصار أحمد بن حنبل على المعتزلة. والحديث هـو أكثر المواضيع نقلية لأن محور البحث يكون عـادة السـند لا المتن. فمع أن المحدثين أقروا أن سلامة السند لا يمكن أن تكون مبررا لقبول متن معلول. وأن من سمات الوضع فـي الحديث أن يكون المتن مخالفًا لصريح العقل. إلا أنهم عمليـا ركزوا الاهتمام على السند دون المتن وعلم الحـديث شـاهد على ذلك. فإن كل فروعه تقريبا تدور على السند، وأبرزهـا علوم الرجال من جرح أو تعديل وثقات وضعفاء. والأسـماء والكنى. ثم علم أصول الرواية الذي يطلق عليـه مصـطلح الحديث. وهو يبحث عن حقيقة الرواية وشروحها. وأنواعها وأحكامها وحال الـرواة وشـروطهم وأصـناف الروايـات وما يتعلق بها.

ولا بد أن نشهد لهم وهم أجيال تلو أجيال أنهـم أوفـوا على الغاية وحاولوا أن يسدوا كـل المنافـذ ويلمـوا بكـل الطوارئ، ولهم في هذا أفانين واصطلاحات وضوابط وحدود يضيق عنها المجال. ولكنها كلها في مجال السند والرجـال، وليس المتن والمعنى. وأبسط ما يمكن أن يقدم هنا كمثال هو ما اشترطوه في الحديث الصحيح الذي تبنى عليه الأحكام:

اتصال الإسناد، وبهـذا يخـرج المنقطـع والمفصـل والمدلس.

أن يكون رواته عدولاً، والعدل من استقام دينه وحسـن خلقه وسلم من الفسق وخوارم المروءة.

أن يكون رواته ضابطين.

أن لا يكون المروي شاذًا، والشذوذ هو مخالفة الثقة مع من هو أرجح منه.

أن يسلم المروي من علة قادحة كإرسـال موصـول أو وصل منقطع أو رفع موقوف.

والخلاصة:

أن الحديث الصحيح يجب أن تتحقق فيه هذه الشـروط الخمسة:

عدالة رواته من أول السند إلى منتهاه.

تمام ضبطهم من أول السند إلى منتهاه.

اتصال السند.

سلامته عن الشذوذ.

سلامته من العلة[١٢].

وكأن علماء الحديث وقد استغرقوا الجهد في التثبت من صحة السند والرواية بمختلف الضمانات، لم يجـدوا حاجـة حتى لإلقاء نظرة على المتن وفاتتهم عشرات الأسباب يمكن أن تطرأ على الحديث، مع وجود ضماناتهم تلـك، وتكـون مبررا لعدم الأخذ به.

وكانت نتيجة هذا التركيز على السند إهمال المتن، فلـم يروا أن مجافاة المتن للعقـل أو الطبـع السـليم، أو حتـى

---

(١٢) المختصر في علوم الحديث. عبد المنعم المبارك حسـن ص ٢٢ دار الفكر – الخرطوم.

ما ينبغي للقرآن الكريم ولرسوله من قداسة، مبـررا لنبـذه، وهكذا أقروا أن النبي ﷺ قد سـحر سـحره يهـودي، وأن الرسول قال بعد تلاوته "أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثـة الأخرى". "تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى".

ومعالجتهم للروايات التي نقلت هذا الزعم الأثيم توضح هيمنة الإسناد. فمع أن الروايات التي رويت كلها ضعيفة أو منقطعة، سوى رواية لسعيد بن جبير، فقد قال الحـافظ بـن حجر".. ولكن كثرة الروايات تدل على أن للقصـة أصـلا، على أنها لها طريقين صحيحين أخرجهما ابن جرير. أحدهما عن طريق الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. والآخر عن طريق هند عن أبي العالية، ولا عبرة بمـا يقـول ابـن العربـي وعيـاض إن هـذه الروايـات لا أصل لها".

ولا شيء كهذا يمثل استعباد السند للمحدثين، فلا ذكـر قطعا للمتن، ومدى اتفاقه، أو اختلافه للمبادئ أو للمعقوليـة التي يفترض أن تكون هي المعيار في الحكم.

وبالإضافة إلى استخذاء المحدثين أمام السـند، وعـدم محاولاتهم إعمال العقل في متن الحديث، فإنهم قدموا ألوف

الأحاديث التي تغطي ليس فحسب كل المجالات، بـل كـل التصرفات الشخصية والحركات والسكنات التي يمكـن لأي فرد أن يقوم بها.

وتلقف الفقهاء هذه الأحاديث وصـنفوها فـي خانـات تصنيفاتهم، التي لم تدع عملاً دون أن تودعه إحداها، ما بين حلال أو حرام، مباح أو مندوب أو مكروه، وأصبح هذا كله جزءا من الشريعة التي تتبع. وبذلك فرضوا علـى المسـلم التقليد والاتباع في أي عمل حتى وإن كان خارجا تماما عن إطار العبادة أو الشريعة، وأصبحت عقلية المسلم المعاصـر عقلية "نقلية" وحيل بينه وبين أن يفكـر أو يختـار أو يقـوم بمبادأة وأصبح "التقليد" "والاتباع" سياسة عامة وموقفًا مقررا، وتعطلت بقدر ذلك ملكة التفكير.. وعلاها الصـدأ. بحيـث أصبح المسلم نوعا من الروبـوت يسـير تبعـا لرومـوت كونترول هو "السند"، وهذه في الحقيقة هـي مأسـاة العقـل الإسلامي الذي غلبه النقل والتقليد، رغم أن توجيهات القرآن الكريم صريحة تماما في مناقضتها لهذا المسلك، ومقاومتهـا لجعل الأحبار والرهبان آلهة يحللون ويحرمـون، وتنديـده بالذين يسيرون تبعا لما سار عليه الآباء والأجداد. وبالمخالفة

الصريحة أيضا لتوجيه الرسول الذي كان يؤثر للناس العافية. وأن يكونوا في حل وأن لا يسألوا، بل وأمره الصريح "ذروني ما تركتكم" فإن المحدثين لم يتركوا شاردة أو واردة حركة أو سكنة للرسول إلا سجلوها وأوردوها على سبيل الاسترشاد أو الإلزام، وفاتتهم حكمة الرسول ﷺ في توجيهه.. إن من الخير أن يعمل الناس عقولهم وأفكارهم. فإن صادفوا الصواب فهو المطلوب ونالوا حسنتين وإن أخطأوا نالوا حسنة إعمال الفكر، دون حسنة التوفيق إلى الصواب.. أما التقليد في كل شيء حتى لو كان للرسول فإنه يخالف ما أراده الرسول للناس عندما قال "ذروني ما تركتكم" وما أراده ا عندما استحث المسلمين على الفكر وإعمال العقل وحذرهم من الرهبان والكهان.. والآباء والأجداد.

***

وغني عن الذكر أن الملاذ الثاني الذي لاذ به الفكر الإسلامي بعد فشل تجربته مع الفلسفة اليونانية. وهو التصوف. لم يكن ليضيف شيئًا إلى العقل. وعلى نقيض هذا. فإن التصرف الذي تنعدم فيه الضوابط يشطح ويبعد ويتوغل في متاهات عاطفية وقد صدر عنه معظم خرافات الأولياء

وأحاديث قدراتهم الخارقة من السير على الماء أو الطير في الهواء أو طي المسافات.. إلخ. ومـواعظ القصـاص فـي المساجد والزوايا، وإقامة الأضـرحة للمشـايخ والأوليـاء وشيوخ الطرق. وتكوين هيئات منظمة لكنهـا تقـوم علـى الطاعة العمياء للشيخ. وتقديسه وأن يكون المريد منه كالميت بين يدي المغسل.. فكانت جنابة التصـوف مضـاعفة لأنـه استعان بالطرق التربوية والتنظيمية. ولكن لتحقيـق غايـات تقوم كلها على غرس الطاعة العمياء، وتعميق التقليد وسـلب الإرادة وطمس الشخصية واستبعاد التفكير.

بين التقليد والاجتهاد:

أخذت الموازنة ما بين المتن والسند صورة أعـم فـي الموازنة ما بين التقليد والاجتهاد، وغلبـة التقليـد وسـيادته طوال عشرة قرون مستمرة، وقد أغلق باب الاجتهاد أساسا، لأن فتح بابه دون وجود وسائل تنظيمية أدى إلى الفوضـى والتضارب. وعندما يتعلق الأمر بأحكام تطبق على المصالح وشئون الحياة، فإن هذا مما لا يمكـن أن يحتمـل. وكـان المفروض أن توجد أداة أو وسيلة تنظيمية كمجلـس أعلـى، أو محكمة.. إلخ. ولكن مثل هذه الأجهزة لم تكن مألوفة فـي

المجتمع العربي الإسلامي، فلما لم يوجد التنظـيم لـم يعـد مناص من إغلاق باب الاجتهاد والاقتصار علـى المـذاهب التي أثبتت سلامتها على مر السنين، كما كان هناك أسـباب أخرى تقوم على مصالح مكتسبة أدت إلى غلبة مذهب مالك على الأندلس والشمال الأفريقي، ومذهب أبي حنيفـة علـى العراق بفضل نفوذ "أبي يوسف" وفيما بعد الدولة العثمانية.. إلخ.

ما يهمنا هو أن الأمر استقر على التقليد، والتقليـد هـو كما قالوا "قبول قول الغير من دون مطالبة بحجة" فحاصـل التقليد أن المقلد لا يسأل عن كتاب ا ، ولا عن سنة رسوله. بل يسأل عن مذهب إمامه فقط. ووصل الإيمان بالتقليـد أن المذهب الذي حرم التقليد، وتميز بفتح باب الإجتهاد، وهـو المذهب الزيدي استسلم المعتنقون له(أو بعض دعاته) لدعوى التقليد. قال الشوكاني في رسالته "القول المفيـد فـي أدلـة الاجتهاد والتقليد" "وما ذكرنا فيما سبق من أنـه كـان فـي الزيدية والهادوية في الديار اليمنية إنصاف في هذه المسـألة بفتح باب الاجتهاد، فذلك إنما هو في الأزمنة السابقة. كمـا قررناه فيما سبق، وأما في هذه الأزمنة فقد أدركنا منهم مـن

هو أشد تعصبا من غيرهم، فإنهم إذا سمعوا برجـل يـدعي الاجتهاد ويأخذ دينه من كتاب ا وسنة رسوله ﷺ قاموا عليه قياما تبكي عليه عيون الإسلام، واستحلوا منه ما لا يستحلونه من أهل الذمة من الطعن واللعن والتفسيق والتنكير والهجـم عليه إلى دياره ورجمه بالأحجار إلخ". فإذا كان هذا يحـدث بالنسبة لأتباع المذهب الذي يقرر الاجتهاد، فما بالـك ببقيـة المذاهب التي أنس شيوخها إلى التقليد وسلموا به تسليما..

وكانت نتيجة إغلاق باب الاجتهاد هي إغلاق باب العقل والأخذ بأقوال الشيوخ، ونبذ كتاب ا وسنة رسول، وإيثـار الآباء والأجداد عليها، فكيف يمكن أن ينهض المسلمون، وقد نبذوا سر قوتهم ورمز هدايتهم. القرآن.. وآثروا عليه أقوال الكهنة والمتكسبين بالدين أو تقليد آبائهم وأجدادهم.

***

ومن الإنصاف الإشارة إلى أحد الأسباب التي أدت إلى هذه الظاهرة ولا يقتصر على الإسلام وحده، ولكنه يوجد في كل الأديان أن الأديان لما كانت موغلة في القدم. ولما كانت قد ظهرت قبل أن يبلغ العقل البشري نضـجه، وتعرضـت لصور عديدة وعميقة من سوء الفهم والاستغلال فقد علقـت

بها رواسب قوية وكادت أن تصبح جزءا لا يتجزأ منها. ومع أن الأديان السماوية ما نزلت إلا لتخلص الناس من هذه الانحرافات والتشويهات، إلا أن هذه الرواسب في كثير من الحالات كانت أغلب، أو على أقل تقدير، احتفظت بقدر كبير من الوجود داخل الدين السماوي. وهذا ظاهر في اليهودية والمسيحية والإسلام، وقد نراه في "الكاثوليكية" أكثر منه في "البروتستانتية" ولكنه على كل حال موجود، والذي قال من أثره السيئ بالنسبة للمسيحية أن المجتمع الأوربي لم يأخذ المسيحية مأخذًا جادا، ولم يعض عليها بالنواجذ، ولهذا ضعف أثر المسيحية: الأثر الأصيل أو الأثر المشوه. أما بالنسبة للإسلام، فإن المسلمين يرون في إسلامهم المقوم الأول لهم ولا يفرطون فيه. ومن أجل هذا ظهرت آثار الإسلام الحق، وآثار ما علق به من غشاوات على المسلمين في شكل قوي. وعندما قال القرآن "إن الدين عند ا الإسلام" فكأنه أراد أن يجعل من الإسلام نموذجا فريدا يتحرر مما يعلق عادة بالدين وأن يوجد نمطًا جديدا من الدين هو الإسلام. ولكن المسلمين عكسوا الآية فجعلوا الإسلام هو الدين، ودخل إلى الإسلام من هذا المدخل الرواسب العديدة

للخرافة التي اصطحبت بالدين طوال العصور القديمة، وقبل أن يحرره الإسلام.

وقد رأينا كيف أن الإسلام، أكثر من أي دين آخر حارب الوثنية وحارب التقليد، وحارب الخرافة والخوارق. وجاء برسالة العلم والعدل، ومع هذا تغلبت شرعة الآباء والأجداد، وحذا المسلمون حذو غيرهم وتطلب الأمر أن يوجد على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة دينها بنسب متفاوتة من النجاح تبعا للملابسات والظروف.

مناطق الاختصاص:

ليس معنى كل ما قدمنا أن العقل وحده هو الأداة الحاكمة في مجال الدين، فالدين يتميز بأن واسطة العقد فيه، وهي الألوهية، تأتي عن طريق الوحي عن ا ، وهو – أي الوحي – قضية.. لا يستطيع العقل أن يثبتها بوسائله الخاصة كما لا يستطيع أن ينفيها، أولاً: لأن وجود ا هو بدهية عقلية، إذ هو القصد والغاية والحكمة. وهي مكونات العقل. فليس مستغربا إذن أن يوحى ا تعالى إلى بعض البشر

فليس في هذا الوحي ما يمس اتفاق صفات ا تعـالى مـع العقل، بل إن ذلك هو ما يجعل الصلة بين ا والناس تؤدى عن طريق الوحي، لأن الاتصال المباشر قد يوحي برؤيتـه تعالى، وقد استبعد القرآن هذا وقـال "لا تدركـه الأبصـار" وثانيا: لأن بعض صفات ا تعالى وما يتعلق بذاته لا يمكن للعقل أن يصل إليها، ولا بد أن يكشف ا تعالى بعض مـا يشاء منها.

وهذا أيضا أمر لا يخالف العقل، بل إنه يتفق معه. فكل محاولات الفلاسفة للوصول إلى ذات ا تعالى كانت خطوطًا عريضة لم تستطع أن تتعداها، كما لم تستطع أن تصل إلـى هـذا العـالم الغـامض، المجهـول، المسـتتر، عـالم ما بعد الموت، فجاء الوحي ليكمل هذا للعقل.

وعجز العقل عن الوصول إلى ذلك لا يعني أن يستسلم لمعطيات تنـاقض أصـوله، لأن الاتفـاق علـى العقـل، أو على الأقل عدم مخالفته، هو أصل لا يمكن التنازل عنـه. ومن ثم فيفترض ألا يكون فيما يأتي به الوحي مـا يصـادم العقل وقد عرضنا فيما سبق لموقف الإسلام في هذه القضية وأن افتراض مخالفة الوحي للعقل هو بالنسبة للإسلام فرض

جدلي، لأن ما جاء به الوحي الإسلامي يتفـق مـع أصـول العقل، وليس أدل على ذلك من أن تكييفه للألوهيـة يوافـق تكييف ديكارت وبقية العلماء والمفكرين والأوربيـين الـذين حاولوا أن يتوصلوا إلى بعض صفات ا تعالى.

ولا يجوز للعقل أن ينكر قضية لأنـه لا يوجـد دليـل "عقلاني" جازم يثبتها به. إذ حسبه أنهـا لا تتنـاقض معـه. وقضايا وجود ا ، والبعث والحساب والعقـاب إلـخ [١٣].. لا تتناقض مع أصول العقل. بل إنها تتفق مع أفضلية مبـدأ الوجود على العدم.. والعدل على الظلـم.. ولكنهـا وبوجـه خاص "البعث بعد الموت" والثواب والعقاب في جنة أو نار – تبدو شديدة الغرابة، ومخالفة "للحسية" التـي تسـيطر علـى بعض العقلانيين. ولكن الغرابة والابتعاد عـن المحسـوس لا يمكن أن يكون دليل بطلان. فلو تنبأ أحد منذ مائتي سـنة أنه سيمكن صنع مركبات تحمل مئات الناس وتطير بهم فوق السحاب بسرعة ٨٠٠ كم في الساعة، أو أنه سيمكن صـنع صندوق من معادن وأسلاك وزجاج ينقل الأخبار من أقصى

---

(١٣) سيكون هذا موضوع فصول الباب الثالث من الكتاب.

الأرض إلى أقصاها لحظة وقوعها.. أو أنه سـيمكن للنـاس التحدث بعضهم لبعض من أقصى الشمال لأقصى الجنوب.. لقيل إنه مجنون فإن شيئًا من هذا كان يبدو مستحيلاً، ومخالفًا كل المخالفة لما ألف الناس وما تصوروا أنه "عقلاني" وقتئذ. وأقصى ما يمكن للعقلانية أن تدعيه بالنسبة لهذه القضايا هو "اللاأدرية" وأفضل منها أن ترى أن الدين يكشف لها جوانب تعجز عن الإلمام بها بوسائلها الخاصة. وبهذا يشترك معهـا في كشف أبعاد الحقيقة.

وكما لا يجوز للعقلانية الافتيات على الدين أو رفـض الوحي لمجرد أنها تعجز عن التدليل عليه بوسائلها الخاصة، فكذلك لا يجوز للدين أن يفتات على العقل بأن يفرض وقائع تتناقض مع أصول العقل والعلم، وقد كان تضمن العهد القديم لوقائع محددة عن خلق الأرض، وعـن خلـق آدم وأبنائـه تتناقض مع المعطيات المؤكدة للعلم الحديث، هو أكبر أسباب الصراع بين العقلانية والمسـيحية. فـإذا تضـمنت الكتـب السماوية شيئًا أقل صراحة من هذا في مخالفتـه لمقتضـيات العقل فيجب تأويله.

وهذا لا يستتبع امتناع الدين عن أن يتنـاول بطريقتـه الخاصة مشاهد الطبيعة وظواهرهـا مـن ريـاح وأمطـار وشموس وأقمار.. إلخ.. أو المجتمـع البشـري أو الـنفس الإنسانية ما دام لا يخالف ذلك الأساسيات العقلية، لأن مـن الممكن أنه يكشف عن أبعاد لا يصل إليها العلم. ويمكـن أن يعد هذا تعزيزا من الدين لمنزلة العلم وليس افتياتًـا عليـه، ويكون مستحقًا للشكر من العقلانية. وخير ما يمثل هذا هـو إشارات القرآن إلى كثير مـن ظـواهر الطبيعـة والـنفس الإنسانية، وما يعرض للمجتمع الإنساني من عوامـل القـوة والضعف.. فإنها فتحت لكثير من العلماء آفاقًا جديدة بالمرة.

حقًا أن القرآن تضمن إشارات إلى خلق الأرض في ستة أيام، ولكن القرآن يذكر أن أيام ا تختلف عن أيام النـاس، وأن منها ما يقدر بألف عام ومنها ما يقدر بخمسين ألف عام. وذكر أعدادا أخرى، ثم ذكر أن هذه الأعداد ليست إلا فتنـة للذين كفروا، وتحدث عن "العرش"، و "الكرسي"، وهذه كلها ليست إلا رموزا لتقريب معنى معين أراد القرآن أن يقربـه للناس بما يألفون. والنظم القرآني نظم فنـي يختلـف عـن "السرد" الذي يتسم به أسلوب "التوراة"، ولا يـدع للإنسـان

سبيلاً للتأويل، على حين أن النظم الفني للقرآن يسمح بالتأويل، بل يوجبه إيجابا فيما يتعلق بصفات ا تعالى. لأن ا تعالى – كما قرر القرآن – ليس كمثله شيء، وهذا يستتبع أن تكون إشارات القرآن إلى اليد والوجه، والاستواء بالنسبة غيرها بالنسبة للناس، وهذا لا يعني سوى التأويل ونحن لا نقبل أن يحملنا الورع أو الخوف على تجاهل الحقيقة والإحجام عنها.

وعلى كل حال فيمكن القول إن لكل من الدين والعلم مجال اختصاصه الذي يفترض ألا يتعداه، إلا على سبيل الاستثناء، أو الاستئناس.

فكل ما يتعلق با تعالى، وعالم ما وراء الموت، فهو مجال اختصاص الدين ولا يجوز للعلم أن ينكره، لأن العلم مهما بلغ من تقدم فإنه يعجز عن أن يحيط بأطراف الكون وما وراء عالم المشاهدة.

وكل ما يتعلق بالعلوم الرياضية والحسابية والهندسة والطبيعة فهو مجال العقل يصول ويجول فيه ويقدم لنا هذه الصور الرائعة عن التقدم المادي.

وهذا التخصص الأصولي في الموضوعات يرتكز على تخصص أصولي آخر في الملكات ذلك أن منبع الفكر الديني يمكن أن ينبع من العقل والقلب معا في حين أن منبع الفكـر العلمي المجرد هو العقل أصلاً ولكل واحد منهمـا طبيعتـه الخاصة التي تجعله أقرب إلى مجاله بحيـث يمكـن لـه أن يعالجه بوسائله وينتهي فيه إلى النتائج. وهذه النقطة سنشـير إليها في الفصل القادم بنوع من التفصيل..

يبقى بعد هذا أمران:

الأول: أن الإسلام يلحـق العلـوم الإنسـانية بنطـاق اختصاصه، فالاقتصاد والاجتماع والسياسة هـي مجـالات يمكن أن تعالج على أسس علمية، ولكـن بأهـداف "دينيـة" فالمعالجة العلمية محايدة، وهذه الصـفة تسـمح باسـتغلال المعالجة والنتائج لغير مصلحة الناس، أو بغير مـا تتطلبـه المثل والقيم، ومن ثم يتعين أن تستهدف المعالجـة العلميـة العقلية للموضوعات الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعيـة الأهداف الإسلامية. أي العدالة، والخير، والصلاحية.. إلـخ. مما تتميز به العقلانية الإسلامية، على العقلانيـة المجـردة، وما سنشير إليه في الباب الثاني من أبواب هذا الكتاب.

الثاني: أن هناك مجالاً عريضا بجانب العلم والدين هو الفنون والآداب. وهذا المجال أقرب إلى الدين منه إلى العلم، لأن قاعدته هي القلب الذي يمثل نبعا مشتركًا للأديان وللفنون والآداب... ولكـن لـه طبيعتـه الخاصـة، فهـو ديـن بلا وحي، ومن ثم يهيم في أودية الخيال ويفترض أن يسمح له بهذا وأن لا توضع الكوابح – بقدر ما يمكن – عليه، لأن ضبطه بالكوابح يفقده طبيعته الخاصة دون أن يعطيه طبيعة الدين. وكما لا ينبغي للدين أن يكون فنًا، فكذلك لا يفتـرض في الفن أن يكون دينًا.

الفصل الثالث

أثر القلب على العقل

مما يلفت انتباه كل واحد يقرأ القرآن، أنه يستخدم كلمة "القلب" كأداة للفكر والفقه فهو لا يحصر ملكة الفكر في العقل، ولكنه يشرك به القلب، ولا يورد هذه الظاهرة مرة واحدة، ولكن مرات عديدة:

﴿ لَهُم قُلُوب لا يفْقَهون بِها ولَهم أَعين لا يبصِرون بِها ﴾ (١٧٩ الأعراف)

﴿ أَفَلَم يسِيروا فِي الأَرضِ فَتَكُون لَهم قُلُوب يعقِلُون بِها﴾ (٤٦ الحج)

﴿ أَفَلاَ يتَدبرون الْقُرآن أَم علَى قُلُوبٍ أَقْفَالُها﴾ (٢٤ محمد)

﴿ وطُبِع علَى قُلُوبِهم فَهم لاَ يفْقَهون﴾ (٨٧ التوبة)

﴿ رضوا بِأَن يكُونُوا مع الْخَوالِفِ وطَبع ا ُ علَى قُلُوبِهم فَهم لاَ يعلَمون﴾ (٩٣ التوبة)

﴿ وجعلْنَا علَى قُلُوبِهِم أَكِنةً أَن يفْقَهوه وفِي آذَانِهِم وقْرا﴾ (٤٦ الإسراء)

ففي هذه الآيات كلها جعل "الفقه" و "العلم" من خصائص القلب.. وجعلت القلوب التي لا تفقه كالعيون التي لا تبصر.

كما يصف القرآن القلوب بأنها أوعية الإيمان والتقـوى والسكينة.. والزيغ والشك والمرض.

﴿ هو الَذِي أَنْزلَ السكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمؤْمِنِين لِيـزدادوا إِيمانًا ﴾ (٤ الفتح)

﴿ وجعلْنَا فِي قُلُوبِ الَذِين اتبعوه رأْفَـةً ورحمـةً﴾ (٢٧ الحديد)

﴿ ولَكِن ا َ حبب إِلَيكُم الإِيمان وزينَه فِي قُلُـوبِكُم﴾ (٧ الحجرات)

﴿ ولَكِن قُولُوا أَسلَمنَا ولَما يدخُلِ الإِيمان فِـي قُلُـوبِكُم﴾ (١٤ الحجرات)

﴿ وقَالُوا قُلُوبنَا فِي أَكِنةٍ مِما تَدعونَا إِلَيـهِ وفِـي آذانِنَـا وقْر﴾ (٥ فصلت)

﴿ وقَالُوا قُلُوبنَا ِفي َأكِنةٍ ِمما تَدعونَا ِإلَيـهِ وفِـي آذاِننَـا وقْر﴾ (٩٣ البقرة)

﴿ فَأما الِذين ِفي قُلُوِبهِم زيغٌ فَيتِبعون ما تَشَابه ِمنْه﴾ (٧ آل عمران)

﴿ِإذْ يقُولُ الْمنَاِفقُون والِذين ِفي قُلُـوِبهِم مـرض غَـر هؤُلاَءِ ِدينُهم﴾ (٤٩ الأنفال)

﴿ وارتَابتْ قُلُوبهم فَهم ِفي ريِبهِم يتَرددون﴾ (٤٥ التوبة)

﴿ وَأما الِذين ِفي قُلُوِبهِم مرض فَـزادتْهم رِجسـا ِإلَـى رِجسِهِم﴾ (١٢٥ التوبة)

﴿ِليجعلَ ما يلْقِي الشيطَان ِفتْنَةً ِللِذين ِفي قُلُوِبهِم مرض والْقَاسِيةِ قُلُوبهم ﴾ (٥٣ الحج)

﴿ُأولَِئك كَتَب ِفي قُلُوِبهِم الِإيمان وَأيدهم ِبـروحٍ ِمنْـه﴾ (٢٢ المجادلة)

﴿ كَلا بلْ ران علَى قُلُوِبهِم ما كَـانُوا يكْسِـبون﴾ (١٤ المطففين)

وهذه الإشارات العديدة لوظائف القلوب في الفقه والعلم والإيمان والكفر تثير التساؤل عن مـدى خلـوص عقلانيـة الإسلام من المؤثرات التي تنال من نقائها وموضـوعيتها، إذ هي تثبت أن للقلوب نصيبا في عملية الفهم، والفقـه.. التـي عادة ما تنسب إلى العقل وحده.

لقد خاص بعض المفسرين من هذا التساؤل بـالقول إن مقصود القرآن من كلمة "القلب" هو العقل، وبهـذا لا يكـون هناك إشكال، ولكننا لا نسيغ هذا، فلو أن القرآن يريد العقـل لما كان هناك مبرر للتعبير عنه بالقلب [١٤]. والقرآن الكريم لا يستخدم الكلمات اعتباطًا. بل إن المترادفات فيه يكون لكل منها معنى خاص، فما بالك إذا كان مفهوم كلمة ما يختلـف صراحة عن مفهوم كلمة أخرى؟ إن الخلط بينهما لا يجوز.

في نظرنا أن القرآن أراد أن يفصل في قضية تفاوتـت فيها الآراء، تلك هي الاختلاف ما بين العاطفة التـي جـرى

---

(١٤) على أنه قد يكون لهذا التفسير – الذي ذهب إليه ابن عبـاس – بعض الوجاهة إذا أريد به الفص الأمامي من المخ الذي يضم التفكيـر والإدراك والإحساس والعاطفة معا.

العرف أنها تستقر في القلب، وبين العقل الذي يتصل بالمخ، والصراع بين "العاطفيين" و "العقليين" وما يذهب إليـه كـل منهما من سبق معتقده. "وقد ذهب بعـض الكتـاب إلـى أن العاطفة هي أساس الحضارة". فأراد القـرآن أن يوضـح أن لكل من العاطفة والعقل مجاله وأنهما في الإسلام يتكـاملان لا يتناقضان، فالعقل يتجاوب مع الصواب والخطأ الذي تبنى عليه العلوم، والعاطفة تتجاوب مع منطـق الخيـر والشـر، الجمال والقبح الرحمة والقسوة.. إلخ وأن العاطفة (القلـوب) عندما يتولاها الدين بالتوجيه والضوابط فلا يكون هناك بأس أو خطر من تفاعلها مع طبيعتها، لأن الدين الذي تتفاعل معه العاطفة، بحكم تنزيله من ا يتعالى على أهواء العاطفة، وما يمكن أن تنتهي إليه ما لم يوجد ما يكبح جماحهـا ويسـتخدم زخمها وتفاعلاتها في سبيل الخير والجمال، ولـيس الشـر والقبح وبهذا تتلاقى مع العقل، حتى وإن جاءت من منطلقها الخاص. وقدمت إضافتها المتميزة. ويمكن بالتالي القـول إن القلوب "تفقه" "وتعقل" حتى وإن كان فقههـا لا يسـتخدم أداة العقل، ولكن حس القلب – ويمكن القول إن الإنسان يستشعر ويتجاوب بحكم وجدانه أولاً ثم يأتي دور العقل لكي يمحص

هذه المشاعر، فيقر بعضها، ويرفض البعض الآخر ويقـف عاجزا أمام قسم ثالث. وفي كثير من الحالات يكون الوجدان أهدى سبيلاً وأرهف حسا من العقل، خاصة إذا خضع هـذا العقل لمران وتعسف اتجاهات فكرية معينة. ومع أن القلب – عضويا – ليس إلا مضخة للدم. فإنه أكثر من أي عضو آخر يرتبط بالدم. وقد يكون في الدم من أسـرار التـأثير علـى الإنسان. وتصرفاته وسلوكه – ما لم يكتشفه العلم بعد.

والإنسان أشبه بقارب – القلب منه هو الشراع مـا إن يمتلأ بالعواطف والأحاسيس حتى ينتفخ ويندفع القارب علـى صفحة الماء بقوة وسرعة أو بهدوء واتزان طبقًـا لدرجـة انفعال القلب بالعواطف، والعقل هو "الدفة" في هذا القـارب التي تحول دون أن يتجه نحو الصخور ويتحطم عليها أو يتيه وسط خضم الماء دون أن يهتدي إلى شاطئ النجاة.

وقد يستغرب بعض العقلانيين أن يكون للقلب دخلاً في عملية الفهم والعلم. وإن كان آخرون قد استشعروها دون أن يفهموا سرها أو يحلوا مغاليقها. ولعل خير من يحدثنا عـن هذا هو أحد أعلام الطبيعـة الحديثـة، وصـاحب نظريـة "الكوانتم" العالم الألماني "ماكس بلانك" في كتابه "إلـى أيـن

يذهب العلم" الذي عالج فيه مبدأ "السببية" العريق بعد نظرية "الكوانتم" وكان البعض قد ذهب إلى أن هذه النظرية عطلـت مضي "السببية" ودارت فكرة ماكس بلانك حول ضرورة فهم مضمون "السببية" كما فرق بين نشاط نفسي.. ونشاط علمي. وأن الحقائق التي تسود عالم العلم ليست إلا جانبا من جوانب المجال الكبير الذي يغطيه الفكر الإنساني. ولاحظ أن الخيال الإنساني، وإن كان يبدأ من حقيقة، إلا أنه كثيرا ما يجاوزها. وأن هذه الحقيقة هي الأصل في الفنون والموسيقى، وقال إن العلوم نفسها تحتاج إلى دفعة من الخيال وإن هذا شرط لازم لإقامة الفروض والتنسيق بينها. وإن المخيلة تضع فرضا ثم يأتي دور التجريب لاختبارها. وقد يثير هذا الاختبار رؤيـة أخرى، أو ينتهي إلى فرض معين.

ومرة أخرى قال إن الخطوة الأولى التي يأخـذها كـل فرع متخصص من العلوم تتكـون مـن قفـزة إلـى عـالم الميتافيزيك(١٥). "ما وراء الطبيعة".

---

(١٥) I have said that the first step which every specialized branch of science takes consists of a jump

وفي القيام بهذه القفزة، فإن الباحث يكـون واثقًـا فـي الأساس الذي يقوم عليه الفرض الذي انتهـى إليـه. إن أي تفكير عقلاني مجرد ما كان يمكن أن يهديه لـذلك. خاصـة وأن الاكتشافات الكبرى اتصفت بالتجرد التام من أي غرض نفعي، أو هدف تطبيقي. وبعبارة أخرى فإن المبادئ الأساسية والفروض التي لا غناء عنها في كل فرع من الفروع المثمرة للعلم لم توضع على أساس منطق خالص ولكن على افتراض ميتافيزيقي لا يمكن لأي منطق أن يفنده. هو أنه يوجد عـالم خارجي مستقل عنه تماما(١٦). وعبر وعينا فحسب نعرف أن هذا العالم موجود. وهذا الوعي يمكن أن يسمى إلى حد مـا "حاسة خاصة". ويمكن للمرء أن يذهب حتى إلى درجة القول إن وجود العالم الخارجي يطرق وعي كل واحـد بطريقـة

---

into the region of metaphysics. where is science going .by max Planck p ١٣٨.

(١٦) In other words, the fundamental principles and indispensable postulates of every genuinely productive science are not based on pure logic but rather on the metaphysical hypothesis- which no rules of logic can refute-that there exists an outer world which is entirely .independent of ourselves. Ibid p. ١٣٨

خاصة. وإن علينا أن نضع هذا في الحسبان عندما نتعامـل علميا مع أي ظاهرة طبيعية. إن الصفة الأولى والأكثر أهمية لكل طرق التفكير العلمية هي التمييز بين الهدف الخـارجي للملاحظة، والطبيعة الداخلية للملاحظ.

ومن النقط التي يعرضها بلانك – ويعود إليها في أكثر من موضع من كتابه هو أن الروح التي تدفع رجـل العلـم الحقيقي للبحـث روح التجـرد.. والتفـاني والاستشـفاف والشوق.. وهو بالطبع يفرق هنا ما بين كبار المكتشفين وبين رجال الأبحاث في المصانع والشركات الذين يقومون بأبحاث نفعية تطبيقية بحتة تخضع لمصالح الشـركات – فـالأولون يبحثون بروح البحث.. وفي أعماقهم إحساس بالمطلق الـذي يكافحون لا للوصول إليه – ولكن للاقتراب منه.

وكان من النتائج التي أشار إليها في ثلاثـة أو أربعـة سطور قاطعة، أن نظرية النسبية لا تهدم فكرة المطلق، بـل على العكس إنها تثبتها، لأنه لا يمكن أن تكون هناك نسـبية إلا قياسا على المطلق[١٧]، كما أنه من ناحية أخـرى أثبـت

---

(١٧) Ibid – p ١٩٥.

استحالة الوصول إلى المطلق، لأنه مثال نضعه أمامنا دائما، وبالتالي لا يمكن الوصول إليه، ولكن هذا ليس مخيبا – لأنه كما قال ليسنج: "ليس الحصول على الحـق" ولكـن الكفـاح للوصل إليه هو ما يضرم الفرح في قلب الباحث".

ونقد بلانك النظرية الوضعية التـي لا تـرى مصـدر المعرفة سوى الإدراك الحسي فقال إن هناك حقيقتين تـدور عليهما كل علوم الرياضة. الأولى أن هناك عالمـا حقيقيـا خارجيا. مستقلاً عن مداركنا. والثانية أن هذا العـالم غيـر معلوم مباشرة، أو تماما. وهاتان الحقيقتان تسمحان بـدخول عنصر غير عقلاني، أو صوفي يلتصق بعلم الطبيعة، كمـا يلتصق بأي فرع آخر مـن فـروع المعرفـة البشـرية، إن الحقائق المعروفة للطبيعة لا يمكن أن تستكشف عن طريـق أي فرع من فروع العلوم. وهذا يعني أن العلم لن يكون فـي وضع يستطيع معه أن يحل تماما المشكلات أمامه، وأن حل أي مشكلة إنما يعرض مشكلة أخرى.

وعند حديثه عن الحرية الفردية وعلاقتها بقانون السببية (الذي يعد رمزا للعقل والعلم) رأى أن هنـاك نقطـة تقـف عندها السببية ولا تسـتطيع تجاوزهـا تلـك هـي الـذات

أو الأنا ego، وهي مصدر آلامنا وآمالنا، وهو يقول إنه من ناحية المبدأ فقد لا يكون هناك ما يمنـع مـن أن نستكشـف العلاقات السببية لتصرفاتنا وسلوكنا، ولكنه لا يحدث عمليـا، لأن الملاحظ، وموضوع الملاحظة واحد، وهـذا مسـتحيل فالعين لا ترى نفسها.

وقد يظن البعض أن هذا العجز يعود إلى نقص مداركنا، ولكنه خطأ، وهو يشبه أن ننسب عجز رجل يجري للحـاق بظله إلى نقص قدرته في العدو. وحقيقة إن التصرفات الحية والآنية لا يمكن أن تخضع لقانون السببية تعود إلـى أسـاس منطقي سليم تماما، مثل مبدأ أن الجزء لا يمكـن أن يكـون أكبر من الكل. وحرية الذات بين حين وآخر واستقلالها عن قانون السببية هي حقيقة يمليها علينا الوعي الإنساني.

ويستبعد بلانك في أكثر من موضع من كتابـه تمامـا التعارض ما بين العلم والدين، لأن أحدهما يكمـل الآخـر، فالعلم يضعنا على أبواب النفس – ليتلقفنا الدين، وكل شخص جاد ومفكر يتبين أن العنصر الـديني فـي طبيعتـه يجـب الاعتراف به – وتهذيبه – إذا أريد لكل قوى النفس الإنسانية أن تعمل بتوازن وتناسق.. ولـيس مـن الصـدفة أن كـل

المفكرين في كل العصور كانوا مـؤمنين.. حتـى وإن لـم يظهروا عاطفتهم الدينية.. وقد ظهرت أروع ثمـار الفلسـفة نتيجة تعاون الفهم مع الإرادة. أعني بها القيم المعنوية.

وختم المؤلف كتابه بحوار أجراه مع بلانـك وإينشـتين وضعه تحت عنوان "حوار سقراطي" أشار فيه إلـى الشـك الذي يسود الناس في العلم والدين، فرد بلانك "لقد عجـزت الكنيسة عن أن تقدم الملاذ الروحـي ولهـذا اتجـه النـاس اتجاهات أخرى". فسأله – هل تعتقد أن العلم يمكن أن يكون بديلاً عن الدين؟ فقال: كلا ليس بالنسبة لعقل ثائر. إن العلـم يتطلب روحا مؤمنة. إن كل واحد يعمل بجدية فـي مجـال العلم. من أي فرع. يتبين أن على مدخل معبد العلـم يعلـو شعار "يجب أن يكون عندك إيمان".. إنها صـفة لا يمكـن للعالم أن يستغني عنها.

إن الفرد الذي يتعامل مع مجموعة من النتائج حصـل عليها من إحدى التجـارب، لا بـد أن يتـوفر لـه رؤيـة imaginative picture عن القانون الذي يتابعه، وعليه أن يجسم ذلك في افتراض خيالي. إن الملكات العقلية وحدها لن تدفعه خطوة لأنه لا يمكن أن يظهر أي نظام وسط فوضـى

التناحر، ما لم يكن هناك خاصية بناءة تقيم النظـام. بإبعـاد عناصر الفوضى. وقد تتحطم الرؤية المتخيلة التي يراد إقامة المشروع عليها ويكون عليه أن يحاول مرة أخـرى وهـذه الرؤية المتخيلة، والإيمان في الملاذ الأخير هي مما لا يمكن الاستغناء عنه. إن العقلاني الخالص ليس له مكان هنا[١٨].

ويضرب بلانك المثل على ما ذهب إليه بحيـاة "كبلـر" الذي عانى غصص الفاقة والظروف القاسية. وتوضح دراسة حياته أن العامل الذي أعطاه الصلابة والقـوة، وحـال دون تسلل الوهن أو الضعف هو إيمانه، في وجود نظام مرسـوم وراء الخلق وهذا الإيمان أضاء حياته البائسة، وجعله يضـع أبحاثه في إطار فسيح، لانهائي، فإذا قارنت "كبلر" بتكـوبرا هي Tycho de Brahe الذي توفر له ما لم يتوفر "لكبلـر"، وجدت أنه لم يرتفع عن مستوى الباحث، لأنه لم يكن عنـده إيمان في وجود القوانين الخالدة وراء خلق الكون على حـين أصبح "كبلر" خالق علم الفلك الحديث.

---

(١٨) This imaginative vision and faith in the ultimate success are indispensable. The pure rationalist has no place here. Ibid p. ٢١٥.

وسأله المؤلف: لقد كنت دائما تقول إن تقدم العلم يتكون من اكتشاف سر جديد في اللحظة التي يظن المرء فيها أنه قد حل سرا آخر.. وقد فتحت نظرية الكوانتم مشكلة أمام مبـدأ "السببية" وتطلبت إعادة النظر فيه.

قال بلانك إن هذا صحيح. إن العلم لا يستطيع أن يحـل السر الكامل للطبيعة. وهذا يعود إلى أننا في الملاذ الأخيـر جزء من الطبيعة. إن الفنون والآداب محاولتـان للتفسـير، ونحن نجد أنفسنا دائما في مواجهة "اللاعقلاني". وإلا لم يكن لدينا إيمان – وإذا لم يكن لدينا إيمان، أو إذا استطعنا أن نحل كل مشكلة باستخدام العقل البشري. فما أثقل أعبـاء الحيـاة عندئـذ إذ لـن يكـون لـدينا فـن ولا موسـيقى. ولا دهشة، ولن يكون لدينا أيضا علم. ليس فحسب لأن العلم سيفقد جاذبيته العظمى أمام أتباعه – وأعنـي بهـا ملاحقـة المجهول – ولكن أيضا لأن العلم سيفقد حجر الأسـاس فـي بنائه. ألا وهو الإدراك المباشـر للـوعي بوجـود الحقيقـة الخارجية. وكما قال أينشتين فإنك لن تكون عالما ما لم تعلـم أن العالم الخارجي موجود حقيقة. وأن المعرفـة لا تكتسـب بأي عملية من العمليات العقلية، ولكنه استبصـار مباشـر –

ولهذا فإن طبيعتها قريبة مما نسميه "إيمـان. إنهـا عقيـدة ميتافيزيقية[١٩]".

وكلام بلانك قريب جدا مما ذهب إليه القرآن الكريم فهو يرى أن العقلانية الجافة لم تكن نقطة البدايـة للمستكشـفين والعلماء، ولا هي تملك الصفة النظامية التي تجعل البحـث يدور حول محور ولا القوة التي تجعل البـاحثين يتـابعون بحثهم رغم أن ما يصلون إليه من حلول، يعرض لهـم فـي الوقت نفسه مشاكل جديدة. وأن الروح الرسـالية، والـروح الإيمانية لا بد أن تتملك الباحث أولاً، وأن هذه الروح لكـي تكتسب قوة الدفع، والقدرة للتغلب على الصـعاب لا بـد أن ترتبط بالكون كله. بالعالم الخارجي الرحب الفسيح المسـتقل عنا. فإذا لم يكن العقل المجرد، العقل الرياضي يملـك هـذه

---

(١٩) As Einstein has said, you could not be a scientist if you did not know that the external world existed in reality; but that knowledge is not gained by nay process of reasoning. It is a direct perception and therefore in its nature akin to what we call Faith. It is a metaphysical belief. Ibid p ٢١٨.

القوة، فإن القلب الذي جعله القـرآن وعـاء للإيمـان وأداة للإحساس والشعور يملك هذه القوة.

ومع أن بلانك لم يذكر القلب صراحة فإن كـل كلامـه يؤدي إليه ويصب فيه.

وقد يكون مما يستحق الإشارة أن علماء الطبيعـة هـم أقرب العلماء إلى الدين، لأن رجل الدين ورجـل الطبيعـة ينظران إلى السماء: الأول عبر القرآن الذي وصف السموات والأرض والشمس والقمر والرياح والأمطار والسحب، وكلها دليل على وجود ا . والثاني عبر التلسكوب الذي يريه هـذه كلها رأي العين وينتهي به إلى اليقين الذي انتهى إليه رجـل الدين وكلام أينشتين في هذا لا يختلف عما يقول رجل الدين وهو خير ما يدلل به على أثر القلب على العقل وقد كان في أواخر عمره يقول "إن الافتراضات التي أمكن التوصل إليها بالطرق المنطقية الخالصة كانت فارغة من الحقيقـة تمامـا"

واستطرد: "أؤكد أن الإحساس الديني الكوني هو أقوى وأنبل محفزات البحث العلمي"[٢٠].

وقبل بلانك وأينشتين أوصى جيته تلميذه أيكرمـان "أن نفكر بالقلب".

وهناك رؤية أخرى ليست هذه المرة، من أحـد علمـاء الطبيعة ولكنها للمفكر البريطـاني C.E.Joad الـذي رزق خلال الخمسينات جانبا من الشهرة، وأصدر عددا كبيرا مـن الكتب عن الفلسفة، ووجهة نظره تلك نشـرتها لـه المجلـة العقلانية Rational Review عام ١٩٤٦ تحت عنوان "لـم أعد بعد عقلانيا" On Being No Longer a Rationalist قدم لها بأنه لم يكن عقلانيا بالمعنى الحاد، فإنه لم يؤمن أبـدا

---

(٢٠) Even Einstein toward the end of his life, claimed that propositions arrived at by purely logical means were completely empty of reality. He went on to say, It is very difficult to explain this feeling to anyone who is entirely without it. I maintain that cosmic religious feeling is the strongest and noblest incitement to scientific research. Quoted in Dancing in the Light by Shieley Mac Laine P. ٣٥٣.

بأن المادة هي الصورة الوحيدة للوجود، ولـم يكـن حتميـا determinist أي يؤمن أن حالة العالم، أو أي جزء منه، في لحظة ما، إنما هي نتيجة توزيع وتفاعل القوى التي سـبقت هذه اللحظة، أو طبيعيا naturelist - بمعنى أن يؤمن بأن كل ما هو موجود إنما يعود إلى النظام الطبيعي الذي يمكـن أن يكتشف بالعلم. وحصيلة هذا أنه لم يكن يـؤمن أن العلـم وبالتالي العقل هو الصورة الوحيدة للمعرفة، أو أنه المعيـار الوحيد لمعرفة الحق.

ومع هذا فإن "جود" يعترف بقدرة العقل الإنسـاني لأن يصل بإعمال الفكر إلى النتائج التي تتفق مع الواقـع، مـع تحفظ هام، هو أنه يرى أن العقل ليس حرا، أو مجردا، فهو لدى الماديين وظيفة جاءت من المخ. وطبقًا لهـم فأفكارنـا انعكاسات مخنا. والمخ ليس إلا عضوا يتكون مـن ملايـين الخلايا. فأفكارنا التي يفرزها المخ لا يمكن أن نقـول إنهـا خطأ أو صواب، ولكن يمكن القول إنها سليمة كيميائيا بقـدر ما تكون عمليات المخ سليمة. فإذا كانت النظرية المادية هي وليدة فكر المخ، فلا يمكن القول إنها حقيقية.

ورأى Joad أنه من الضروري وجود عنصر له نشاط مستقل أو قوي، وظن أنه وجد ذلك في "الـوعي الإنسـاني" الذي يجمع الحياة والمادة، ويمكن أن يكون قد بدأ في صورة غير واعية، ثم استكمل الـوعي عبـر الحيـاة العضـوية، والخبرات، التي مرت بها الأجيال. خاصة وأن الخصـائص المكتسبة لا تفقد بالموت، ولكنها تنتقل للأجيال التالية.

وهذا الوعي لا يقتصر على العقلانية ولكنه يضم أيضا الحق والطبيعة، والجمال، باختصار القيم. وعند هذه النقطـة وجد جود نفسه مدفوعا لأن يقول إن هذه القيم ما لـم تكـن موحدة فإنها تفقد الكثير من وزنها وأثرها وفعاليتها.

ويدفع Joad بعنصر جديد إلى الحلبة وهو "الشر"، وهو يرى متأثرا بما حاق بالبشرية من ويلات الحـرب العالميـة الثانية وسوءات النظم الشمولية. أن الشر أصيل في الـنفس الإنسانية. وأن هذا هو ركيزة فكرة الخطيئة في المسـيحية، وكـــل الـــذين نبـــذوه أو عـــاملوه كعامـــل طـــارئ أو سطحي وقعوا ضحية المناخ العقلاني للتفـاؤل السـاذج، وفكرة أن العالم سيدخل العهد الذهبي تحت لـواء الشـيوعية أو المحللين النفسيين، وهو أمر يتناقض مع الوقائع والحقائق.

وما لم يعالج معالجة حاسمة فإنه يهـدد البشـرية بالتـدهور والانحطاط.

وكلمة جود توضـح مواقـف كثيـر مـن المفكـرين الأوربيين، فلا يمكن أن يكون في العقلانية وحدها، وبالمعنى الضيق والمجرد أو في الحتمية أو الطبيعة رضا ومقنع لأي مفكر يستوعب الحياة والفكر والكون، إذ العقلانيـة وحـدها فقيرة وجزئية وعاجزة تماما عن الإشباع والإقناع.

والإضافة التي جاء بها جود هي إبـراز قـوة "الشـر" أو الخطيئة وهذا أمر عنيت به كل الأديان بصور متفاوتـة. وقد أبرزه الإسلام بصورة متوازنة، فإنه لم يقلل مـن أثـر الشر، ولكنه كذلك لم يتجاهل الخير ووضـعهما متقـابلين: إغراء الشياطين وهداية الأنبياء، الضعف البشـري والمـدد الإلهي، وقد يكون إبراز جود لقوة الشر أمر أكثر جدوى في إظهار نقص العقلانية، وإنها تعجز عـن أن تقـود العـالم، ولا بد من قوة أخرى تقف للشر بالمرصـاد. ولكـن جـود كمسيحي لم يعن كثيرا بأن يلحظ أن فكرة الفداء المسيحية قد تقلل من تقدير أثر الشر والخطيئة.

واستشهد جود في كتابه "انتعاش الإيمان" الذي نشر عام ١٩٥١ أي بعد خمس سنوات من تاريخ الفقـرات السـابقة بفقرة جاءت في كتاب برتراند رسـل "المنطـق والإيمـان" نصها:

".. إن التعارض ما بين العقل والملكات الغريزية هـو في الحقيقة تعارض وهمي. لأن هذه الملكات هي التي تؤدي إلى الأفكار والعقائد، ويكون على العقل بعدئـذ تفنيـدها أو تأكيدها. وحتى هذا فإنه يتم بالتوفيق ما بين أفكـار وعقائـد سابقة. فالعقل هو عنصر تنسيق وتواؤم أكثر مما هو عنصر خلاق وإبداع. وحتى في المجالات المنطقية الخالصـة، فـإن البصيرة هي التي تصل أولاً إلى الجديد.

ومن رأي رسل أن التعارض ما بين العقل والعقيدة إنما يحدث لدى بعض الناس عندما يضـعف العقـل أو عنـدما تكتسـ ـ ـب العقيـ ـ ـدة قـ ـ ـوة أحاديـ ـ ـة مفـ ـ ـردة.

لا تلحظ الجوانب الأخرى. فالتعارض ليس أصلا بين العقـل والعقيدة[٢١]".

وبناء على هذه النتيجة، انتهى جود إلى أن الدين ثمـرة لاقتران العقل بالحدس أو البصيرة، وأن من الخطـأ إعـادة العلم إلى العقل وحده.. وإعادة الدين إلى البصيرة وحدها.

***

واستعراض الآيات القرآنية للقلوب مع الاستئناس بمـا جاء بالأقوال السابقة التي بينت بعض ما كان غامضا في هذا الصدد، يظهر لنا أن القرآن الكريم يخص القلوب أكثر مـن العقول بالجانب الإيماني في عملية الفكر، بمعنى أنه يفترض وجود إيمان يستلهم أصلاً من القلـب، لكـل مـن يتصـدى لمعالجة قضية فكرية وعلمية.. إلخ، حتى لو كان هذا الإيمان هو الإيمان بالحقيقة الموضوعية.. والمجردة، بـل إن هـذا الإيمان هو أرقى مستويات الإيمان. لأنه بقدر مـا يصـاعد ويرتقي، بقدر ما يقترب من فكرة "ا " وبهذا يتلاقى مع الدين

---

(٢١) The Recovery of Faith by C.E.Joad. Faber & Faber. London pp ١١٤-١١٥.

في أبرز معانيه. وهذا الإيمان هو ما يكفل للباحـث العلمـي استمرار دفعته لمواصلة البحث، وما يحـول دون تراخيـه، أو تغلب عوامل القصور والانتهازية. وبدونه يصبح البحـث العلمي عملاً روتينيا يتطرق إليه ما يتطرق إلـى الروتينيـة والوظيفية من نقص، أو تتغلـب النفعيـة وتفقـد العقلانيـة موضوعيتها.

وتوضح إشارات القرآن إلى القلوب أنها أوعية للإيمان أو الكفر، الخير أو الشر، الرحمة أو القسوة. ومن ثـم جـاء تمثيل القرآن الكريم للإيمان والكفر بأربعة نسوة (امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون ومريم) وأنزل ا الأديان على القلوب ﴿نزل به الروح الأمين علـى قلبـك لتكـون مـن المرسلين﴾ ووكل حملها إلى الأنبياء، وليس الفلاسفة، وجعل حجتها التأمل والتفكير وهو صعيد مشترك يتلاقى عليه العقل والقلب ويتفاعلان. واعتبر المبرر الأكبر للنجاة يوم القيامة، "القلب السليم" ﴿يوم لاَ ينفَع مالٌ ولاَ بنُون* إِلا من أَتَـى ا َ بِقَلْبٍ سلِيمٍ﴾ (٨٨-٨٩ الشعراء).

وأكد هذا المعنى الرسول ﷺ في كثير مـن الأحاديـث "التقوى ها هنا يشير إلى صدره ثلاث مرات" جزء من حديث

رواه مسلم "البر حسن الخلق، والإثم ما حاك فـي صـدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس" وكذلك "اسـتفت قلبـك. وإن أفتوك وإن أفتوك" وكذلك "ألا وإن في الجسـد مضـغة إذا صلحت صلح الجسد، وإذا فسدت فسد الجسد، ألا وهي القلب" ويمكن تطبيقا لهذا – أن يفهم ما روي عن الإمام أحمد بـن حنبل عندما أخبر عن شخص أفتاه فقيهان برأيين مختلفـين فقال "لا يجوز له العمل بأيهما شاء، بل يعرض الآراء علـى قلبه ويتبع ما يطمئن إليه قلبه" ففي كل هذه الشـواهد جعـل اطمئنان القلب دليل الإيمان.

وقد رأى الفقهاء أن النية هي شرط كل طاعة بها تصير كل عادة عبادة" والنية هي "قصد القلب إلى عمـل" فقصـد القلب وراء كل الأعمال، وهذا هو الأصـل فـي الحـديث "الأعمال بالنيات" فالنية هي روح الأعمال.

ولا نكران أن العقل ووسيلته العلم، نور يكشف الصواب والخطأ، الخير والشر، الهدى والضلال، ولكن النقطة الهامة هي أن العقل وحده لا يجعل الإنسان يؤثر الخير على الشـر والهدى على الضلالة.. والصواب على الخطأ. أن ما يملـك هذا هو القلب المؤمن. إن شحنة الإيمان هي وحـدها التـي

تستطيع أن تغلب نوازع الشـهوة والضـعف وبـدون هـذا الإيمان، فلا شك أن زينة الحياة الدنيا وجاذبيتها من جمال أو مال أو سلطة، ستستحوذ على النفس البشرية وستطمس نور العقل، فالشهوات لها بريق ووهج أقوى من نور العقل الهادئ المستكن.

وهذا الجانب هو من خصائص العقلانية الإسلامية. إن الإسلام يفترض في عقلانيته "الخيرية" فكل ما يـوحي بـه العقل انسياقًا وراء الشر وخضوعا للشهوة. فـإن العقلانيـة الإسلامية لا تعتد به – كما سيلي في الفصل السادس من هذا الكتاب.

وجعل القرآن القلوب أوعية للإيمان، يجعلهـا بالتبعيـة أوعية للعاطفة وبالتالي مصادر الفنون والآداب. وتلك نقطـة لم ترد بهذا التحديد في القرآن، ولكنها النتيجة المترتبة علـى جعل القلوب أوعية الإيمان وإشـراكها فـي الفكـر، فإنهـا لا يمكن أن تحل معادلة رياضية ولكـن أن تـنظم قصـيدة أو تلحن أغنية.. وهذا الجانب له وسيلة وهدف يختلفان عـن وسيلة وهدف العقلانية، ولكنه يوجد نوعا من التـوازن فـي الحياة ويستكمل جانبا هاما لا يمكن للعقلانية الجافة أن تقـوم

به، وبهذا يوجد المجتمع السوي الذي يجمع ما بـين علـوم العقل وفنون القلب وهداية الإيمان..

وخلاصة إشارة القرآن إلى القلوب، ودفعها للإسهام في عملية الفكر والفقه ثلاثة أمور: الأول: إعطاء الفكـر دفعـة الإيمان والرسالية، وبهذا يكفل لـه البقـاء والاسـتمرارية، والثاني: الخيرية وعدم اتجـاه العقلانيـة المحايـدة للشـر، والثالث: إثراء الحياة بصور من النشاط لا تنبثق عن العقل، ولكن عن "فقه" القلب.. وهي الفنون والآداب.

الباب الثاني
مقومات العقلانية الإسلامية

الفصل الرابع: المقوم الأول. إعمال الفكر سبيل الإيمان.

الفصل الخامس: المقوم الثاني. الموضوعية والسنن.

الفصل السادس: المقوم الثالث. الخيرية والصلاح.

قد يتساءل البعض هل هناك عقلانيـة إسـلامية وهـل تختلف هذه العقلانية الإسلامية عـن عقلانيـة أخـرى، إن العقلانية لا تعني بالضرورة العقلانية الرياضية والحسـابية التي لا تختلف من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمـان. فالعقلانية عندما تتصدى لعلاج المشكلات الكبـرى بالنسـبة للإنسان والمجتمع والكون تتفاوت فيما تنهجه مـن طـرق.. وما تسلكه من مداخل، وما تنتهي إليه من نتائج. وقد لا يكون تعبير "أسلمة المعرفة" دقيقًا أو لا ينم عن طبيعة موضوعية، ولكن هذا لا ينفي أن للعقلانية الإسلامية مقومات متميزة عن غيرها فالعقلانية في مجتمـع بورجـوازي تضـع أصـولا اقتصادية وسياسية، وعلاقات تتلاءم مع الفكر البرجـوازي، ولا يمكن القول إنها تتنافى مع أصول العقلانية.

كما تقيم العقلانية في مجتمع اشتراكي أوضاع الاقتصاد والسياسة فيها على مقدمات وأصول مختلفة، ولها مـع هـذا حظها من العقلانية.

والعقلانية الإسلامية تختلف عن العقلانية البرجوازيـة والاشتراكية، ولها مقومات تميزها وقد تتفق في بعض هـذه المقومات مع غيرها، ولكنها تتميز بمقومات خاصـة، لعـل

أبرزها "غائية" العقلانية الإسلامية، وأنها ليسـت "محايـدة" أو "مجردة" إذ هي "خيرية"، وهي ترفض أي شيء يؤدي إلى الشر.. وهي صفة أخذتها العقلانية الإسـلامية مـن مبـدأ المسئولية ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كـان عنـه مسئولاً﴾.. فالعالم والمفكر المسلم يؤمن أنه مسئول أمـام ا عن ثمرة فكره وإبداع عقله.

وقد يقال إن "الالتزام" ليس مقصـورا علـى العقلانيـة الإسلامية، إن العقلانية الاشتراكية أيضـا ملتزمـة، وهـذا صحيح، ولكن التزام العقلانية الإسلامية هو أمام ا تعـالى وهو ينبع من الإيمان الخالص. دون أي مؤثر من ترغيـب أو ترهيب، ولكنها في المجتمع الاشتراكي تلتـزم بالسـلطة وبالفكر الذي تمثله السلطة.. والفرق شاسع..

ويعالج الباب مدخل الإسلام إلى العقلانية باعتبار إعمال الفكر سبيل الإيمـان، ثـم ينـاقش فكـرة الإسـلام عـن "الموضوعية" و "السنن" ويختمها بالصفة "الخيرية" للعقلانيـة الإسلامية.

الفصل الرابع

المقوم الأول: إعمال الفكر سبيل الإيمان

لما كان الإسلام يؤذن بالعقل على ما أوضحنا، ويستبعد المعجزة الحسية كوسيلة للتوصل إلى الإيمان، ويتخـذ مـن الكتاب آيته، ومن "اقرأ" وسيلته، فلا عجب إذا جعل إعمـال الفكر سبيل الإيمان، لأنه ليس من طريق آخر.

وسلك القرآن لإبراز هذا الأصل مداخل متعددة تـؤدي في النهاية إلى النتيجة المنشودة.

من هذه المداخل:

أ- استثارة الفكر:

فهناك مثلاً الدعوة للتفكير صراحة كأن يأتي الخطاب ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٨٤ الأعراف).

﴿ أَو لَم يتَفَكروا فِي أَنْفُسِهِم مـا خَلَـقَ اُ السـماواتِ والأرض وما بينَهما إِلا بِالْحق وأَجلٍ مسمى وإِن كَثِيرا مـن الناسِ بِلِقَاءِ ربهِم لَكَافِرون ﴾ (٨ الروم)

أو تأتي الدعوة للتفكير ضمنية ﴿ الَّذِين يذْكُرون اَ قِياما وقُعودا وعلَى جنُوبِهِم ويتَفَكَّرون فِي خَلْـقِ السماواتِ والأرضِ ربنَا ما خَلَقْتَ هذَا باطِلاً سبحانَك فَقِنَا عذَاب النارِ﴾ (١٩١ آل عمران)

﴿ كَذَلِك نُفَصلُ الآيـاتِ لِقَـومٍ يتَفَكَّـرون﴾ (٢٤ يونس)

﴿ كَذَلِك يبين اُ لَكُم الآياتِ لَعلَّكُـم تَتَفَكَّـرون﴾ (٢١٩ البقرة)

﴿ وأَنْزلْنَا إِلَيك الذِّكْر لِتُبين لِلناسِ ما نُزلَ إِلَيهِم ولَعلهـم يتَفَكَّرون﴾ (٤٤ النحل)

﴿ وتِلْك الأمثَالُ نَضرِبها لِلناسِ لَعلهم يتَفَكَّـرون﴾ (٢١ الحشر)

وقد يستخدم القرآن تعبير (يفقهون).

﴿ انْظُر كيفَ نُصرفُ الآيـاتِ لَعلهـم يفْقَهـون﴾ (٦٥ الأنعام)

أو يستخدم تعبير (يتدبرون).. ﴿ أَفَلاَ يتَدبرون الْقُرآن أم على قلوب أقفالها﴾. (٨٢ النساء)

﴿ كِتَاب أَنْزلْنَاه إِلَيك مبارك ليدبروا آياتِهِ ولِيتَذَكر أُولُـو الأَلْبابِ﴾ (٢٩ ص)

أو يستخدم (اعتبروا) ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصـار﴾. (الحشر)

أو يستخدم كلمة (يتذكرون) علـى أسـاس أن التـذكر نقيض الغفلة ﴿ أَفَمن يعلَم أَنما أُنْزِلَ إِلَيك مِن ربك الْحق كَمن هو أَعمى إِنما يتَذَكر أُولُو الأَلْبابِ﴾ (١٩ الرعد)

﴿ فَقُولاَ لَه قَولاً لينًا لعله يتَذَكر أَو يخْشَى﴾. (٤٤ طه)

﴿ ويبين آياتِهِ لِلناسِ لَعلهم يتَذَكرون﴾ (٢٢١ البقرة)

﴿ ويضرِب ا ُ الأَمثَالَ لِلناسِ لَعلهم يتَـذَكرون﴾ (٢٥ إبراهيم)

﴿ بصائِر ِللناسِ وهـدى ورحمـةً لعلهـم يتَـذَكرون﴾ (٤٣ القصص)

﴿ ولَقَد وصلْنَا لَهم الْقَولَ لَعلهم يتَـذَكرون﴾ (٥١ القصص)

﴿ ولَقَد ضربنَا ِللناسِ ِفي هذَا الْقُرآنِ ِمن كُل مثَلٍ لعلهـم يتَذَكرون﴾ (٢٧ الزمر)

﴿ولَقَد صرفْنَا ِفي هذَا الْقُرآنِ ِليذكروا وما يزِيـدهم ِإلا نُفُورا﴾ (٤١ الإسراء)

﴿ ولَقَد صرفْنَاه بينَهم ِليذكروا فَـأَبى َأكْثَـر النـاسِ ِإلا كُفُورا﴾ (٥٠ الفرقان)

وقد يستخدم القرآن كلمة تذكرة.

﴿ ِلنَجعلَها لَكُم تَذْكِرةً وتَعِيها ُأذُن واعِيةٌ﴾ (١٢ الحاقة)

﴿ ِإن هِذِهِ تَذْكِرةٌ فَمن شَاء اتخَذَ ِإلَى ربهِ سـِبيلاً﴾ (١٩ المزمل)

﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ* فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ (٥٣ المدثر)

وكما هو معروف فإن من أسماء القرآن الـذكر ﴿ إِنَّـا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩ الحجر)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (٤١ فصلت)

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّـكَ لَمَجْنُـونٌ﴾ (٦ الحجر)

وأهم من هذا كله إلحاح القرآن صراحة علـى الـلاواذ بالعقل واستفهامه الإنكاري على الذين يرفضـون رسـالات الأنبياء دون تفكير "أفلا تعقلون" وهو تعبير متكـرر وروده في القرآن. ويفهم سببه من أن ا تعالى أنما أرسـل رسـله بالبينات ليكون ذلك حافزا لهـم علـى اسـتعمال عقـولهم أو بتعبير القرآن المتكرر (لعلكم تعقلون) فرفضـهم وعـدم تجاوبهم دليل على إهمالهم هذه الأداة الثمينة فـي الإنسـان وبالتالي إصرارهم على الكفر ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١ الملك)

وأكثر من استخدام مادة (العقل) استخدام القرآن لمـادة (العلم) بدءا من تلك الآية ذات المغزى البعيد التي صور فيها القرآن حديث الملائكة إلى ا عن آدم وصرح بأفضـلية آدم على الملائكة وجعله خليفته رغم ما سيقوم به أبناؤه من سفك الدماء والإفساد، لعلمه الأسماء التي علمها ا إياه.

﴿ وإِذْ قَالَ ربك لِلْملاَئِكَةِ إِني جاعِلٌ فِي الأَرضِ خَلِيفَـةً قَالُوا أَتَجعلُ فِيها من يفْسِد فِيها ويسفِك الدماء ونَحـن نُسـبح بِحمدِك ونُقَدس لَك قَالَ إِني أَعلَم ما لاَ تَعلَمـون* وعلـم آدم الأَسماء كُلها ثُم عرضهم علَى الْملاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسـماءِ هؤُلاَءِ إِن كُنْتُم صادِقِين* قَالُوا سبحانَك لاَ عِلْـم لَنَـا إِلا مـا علمتَنَا إِنك أَنتَ الْعلِيم الْحكِيم* قَالَ يا آدم أَنْبِئْهم بِأَسمائِهِم فَلَما أَنْبأَهم بِأَسمائِهِم قَالَ أَلَم أَقُل لكُم إِني أَعلَم غَيـب السـماواتِ والأَرضِ وأَعلَم ما تُبدون وما كُنْتُم تَكْتُمون* وإِذْ قُلْنَا لِلْملاَئِكَةِ اسجدوا لآدم فَسجدوا إِلا إِبلِيس أَبى واسـتَكْبر وكَـان مِـن الْكَافِرِين﴾ (٣٠ – ٣٤ البقرة)

وما من تسجيل لأهمية وقداسة العلم مثل هذه السـطور لأنها توضح كيف أن ا تعالى جعـل آدم خليفتـه وأمـر الملائكة بالسجود له لأنه (يعلم الأسماء) وتقارب هذه الآيات

الآية ﴿ شَهِد ا ُ أَنه لاَ إِلَه إِلا هو والْملاَئِكَةُ وأُولُو الْعِلْمِ قَائِما بِالْقِسطِ لاَ إِلَه إِلا هو الْعزِيز الْحكِيم﴾ (١٨ آل عمران)

فهنا نجد أن ا تعالى أشرك مع الملائكة أولي العلم في الشهادة له بالقسط كما تدل الآية ﴿أَلَم تَر أَن ا َ أَنْـزلَ مِـن السماءِ ماء فَأَخْرجنَا بِهِ ثَمراتٍ مخْتَلِفًا أَلْوانُها ومِـن الْجِبـال جدد بِيض وحمر مخْتَلِفٌ أَلْوانُها وغَرابِيب سود* ومِن الناسِ والدواب والأَنْعامِ مخْتَلِفٌ أَلْوانُه كَذَلِك إِنما يخْشَـى ا َ مِـن عِبادِهِ الْعلَماء إِن ا َ عزِيز غَفُور﴾ إن القرآن خص العلمـاء بمعرفة ما في خلق الطبيعة والجبـال والنبـات والحيـوان، والجبال من دلالة بخشية ا .

ويمن ا تعالى على سيدنا محمد ﴿ وعلَمك ما لَم تَكُـن تَعلَم وكَان فَضلُ ا ِ علَيك عظِيما﴾ (١١٣ النساء)

كما من من قبل علـى عيسـى ﴿وإِذْ علمتُـك الْكِتَـاب والْحِكْمةَ والتوراةَ والإِنْجِيلَ﴾ (١١٠ المائدة)

أما بالنسبة لعامة المؤمنين فإنه تعالى ﴿يرفَعِ ا ُ الـذِين آمنُوا مِنْكُم والَذِين أُوتُوا الْعِلْم درجاتٍ﴾ (١١ المجادلة)

وقد أقسم الله تعالى بالقلم ﴿والقلم.. وما يسطرون﴾. (١ القلم)

﴿الرحمن* علم الْقُرآن* خَلَقَ الإِنْسان* علمه البيان﴾ (١-٤ الرحمن)

وبالطبع فلا يمكن أن ننسى أولى آيات القرآن نزولاً والتي دارت محاورها حول العلم والقلم والقراءة ﴿اقْرأْ بِاسمِ ربك الذِي خَلَقَ* خَلَقَ الإِنْسان مِن علَقٍ* اقْرأْ وربك الأَكْرم* الذِي علم بِالْقَلَمِ* علم الإِنْسان ما لَم يعلَم﴾ (١-٥ العلق)

ب- الشك مرحلة نحو اليقين:

ولأن الفكر والنظر والتدبير.. إلخ هي مداخل الإيمان بالله في القرآن الكريم كما أوضحنا فإن القرآن لم ير في الشك نقيضا لليقين ولكن مرحلة نحوه. والقرآن بالطبع يفرق بين شك يستهدف الوصول إلى الحقيقة وتشكيك يراد به هدم الإيمان أو يستخدم من قبل أعدائها للنيل منها. ويصفه القرآن عادة بأنه مريب، والشك الأول بالطبع هو ما لا يرفضه القرآن وقد ضرب أمثلة له من النبيين أنفسهم.

﴿ وكَذَلِكَ نُـرِي إِبْـرَاهِيمَ مَلَكُـوتَ السـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيكُونَ مِنَ الْموقِنِين* فَلَما جن علَيهِ اللَّيلُ رأَى كَوكَبا قَالَ هذَا ربي فَلَمـا أَفَـلَ قَـالَ لاَ أُحِـب الآفِلِين* فَلَما رأَى الْقَمر بازِغًا قَالَ هذَا ربي فَلَما أَفَلَ قَالَ لَئِن لم يهدِنِي ربي لأَكُونَن مِن الْقَومِ الضـالين* فَلَما رأَى الشمس بازِغَةً قَالَ هذَا ربي هذَا أَكْبر فَلَما أَفَلَتْ قَالَ يا قَومِ إِني برِيء ممـا تُشْـرِكُون* إِنـي وجهتُ وجهِي لِلَّذِي فَطَر السماواتِ والأَرض حنِيفًـا وما أَنَا مِن الْمشْرِكِين﴾ (٧٥ – ٧٩ الأنعام)

فهنا نرى كيف أن أفول الكواكب والشمس والقمر جعل إبراهيم يكفر بها كاله ويتخذ الذي خلقها إلها.

ولم يجد القرآن حرجا في أن يذكر سؤال إبراهيم ﴿وإِذْ قَالَ إِبراهِيم رب أَرِنِي كَيفَ تُحيِي الْموتَى قَالَ أَو لَـم تُـؤْمِن قَالَ بلَى ولَكِن لِيطْمئِن قَلْبِي﴾ وقد استجاب الله تعالى له ولـم ير في سؤاله انحرافًا أو ضعفًا أو كفرا.

وكذلك لم يرفض القرآن طلب موسـى أو يـرى فيـه مروقًا. ﴿قَالَ رب أَرِنِي أَنظُر إِلَيك قَالَ لَن تَرانِي ولَكِنِ انْظُر إِلَى الْجبل فَإِن استَقَر مكَانَه فَسوفَ تَرانِي فَلَما تَجلـى ربـه لِلْجبل جعلَه دكا وخَر موسى صعِقًا فَلَما أَفَاقَ قَـالَ سـبحانَك تُبتُ إِلَيك وأَنَا أَولُ الْمؤْمِنِين﴾. (١٤٣ الأعراف)

ولم يرفض المسيح طلب الحواريين إنزال مائدة وتعليلهم ذلك "تطمئن قلوبنا".

﴿إِذْ قَالَ الْحوارِيون يا عِيسى ابن مـريم هـلْ يستَطِيع ربك أَن ينَزلَ علَينَا مائِدةً من السماءِ قَـالَ اتقُوا ا َ إِن كُنْتُم مؤْمِنِين* قَالُوا نُرِيد أَن نَأْكُلَ مِنْها وتَطْمئِن قُلُوبنَا ونَعلَم أَن قَد صدقْتَنَا ونَكُون علَيها مِن الشاهِدِين* قَالَ عِيسى ابن مريم اللهم ربنَـا أَنْـزِلْ علَينَا مائِدةً من السماءِ تَكُون لنَا عِيدا لأَولِنَا وآَخِرِنَا وآيةً منْك وارزقْنَا وأَنتَ خَير الـرازِقِين﴾(١١٢ – ١١٣ المائدة)

***

ولا نجد إشارات عديـدة إلـى الشـك فـي الكتابـات الإسلامية. رغم تقبل القرآن الكريم. ولكننا أيضـا لا نجـد منهجا يجعل الشك مدخلاً للتوصل إلى النتـائج قبـل مـنهج ديكارت في القرن السابع عشر. على أننا نجد نصـين مـن أجمل وأكمل النصوص في جعـل الشـك منطلقًـا لليقـين وضعهما عالمان من أكبر علماء المسلمين، همـا الغزالـي، وابن الهيثم.

ومعظم القراء يذكر ما قاله الغزالي فـي "المنقـذ مـن الضلال" عندما أراد أن يصف مسيرته الفكرية..

" ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ – قبـل بلوغ العشرين إلى الآن. وقد أناف السن علـى الخمسـين – أقتحم هذا البحر العميق وأخوض غمراته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، أتوغل في كل مظلمة، وأتهجم علـى كل مشكلة. وأقتحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع علـى باطنيته ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارتـه. ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسـفته، ولا متكلمـا إلا

وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صـوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته، ولا متعبـدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقًا معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطله وزندقتـه.. إلخ.

وقد انتهت مسيرة الغزالي بإيثار التصـوف باعتبـاره صورة للصفاء الروحي، وآثره على جدل علمـاء الكـلام، وحيل فقهاء السلاطين، وهو الاختيار الجدير برجـل يريـد الحقيقة.. ويرفض الدنيا. لو لم تشب التصوف تلك اللوثـات التي شانته..

والنص الثاني أقل شـهرة، ولكنـه أكثـر دلالـة فـي المضمون، وفي النتيجة، وفي جعل الشك منطلقًا لليقين.

وقد جاء في مذكرات ابن الهيثم الخاصـة عـام ٤١٧ هجرية..

".. إنني لم أزل منذ عهد الصبا مرتابا في اعتقادات هذه الناس المختلفة، وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأي، فكنت متشككًا في جميعه، موقنًـا بـأن الحـق واحـد، وأن

الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليـه. فلمـا كملـت لإدراك الأمور العقلية، وانقطعت إلى طلـب معـدن الحـق ووجهت رغبتي وحرصي إلى إدراك ما به تنكشف تمويهات الظنون وتنقشع غيابات المتشكك المفتون، وبعثت عزيمتـي إلى تحصيل الرأي القريب إلى ا جل ثناؤه المـؤدي إلـى رضاه الهادي لطاعته وتقواه، فكنت كما قال جـالينوس فـي المقالة السابعة من كتابه "في حيلة البرء" يخاطب تلميذه "لست أعلم كيف تهيأ لي منذ صباي إن شئت قلت باتفاق عجيـب، وإن شئت قلت بإلهام من ا ، وإن شئت قلـت بـالجنون، أو كيف شئت أن تنسب ذلك، أنـي ازدريـت عـوام النـاس واستخففت بهم واشتهيت إيثار الحق وطلب العلـم واسـتقر الرأي عندي أن ليس ينال الناس من الدنيا شيئًا أجود ولا أشد قربة إلى ا من هذين الأمرين".

فخضت لذلك في ضروب الآراء والاعتقادات وأنـواع علوم الديانات، فلم أحظ من شيء منها بطائل، ولا عرفـت منه للحق منهجا،ولا إلى الرأي اليقيني مسلكًا مجددا، فرأيت أني لا أصل إلى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمـور الحسية وصورتها الأمور العقلية. فلم أجد ذلك إلا فيما قرره

أرسطوطاليس من علوم المنطق والطبيعيات والإلهيات، التي هي ذات الفلسفة وطبيعتها حين بدأ بتقدير الأمور الكلية والجزئية والعامية والخاصية، ثم تلاه بتقدير الألفاظ المنطقية وتقسيمها إلى أجناسها الأوائل، ثم أتبعه بذكر المعاني التي تتركب مع الألفاظ فيكون منها الكلام المفهوم المعلوم، ثم أفرد من ذلك الأخبار التي هي عنصر القياس ومادته، قسمها إلى أقسامها، وذكر فصولها وخواصها التي تميزها بعضها من بعض ويلزم منه صدقها وكذبها ويعرض ومعه اتفاقها فاختلافها وتضادها وتناقضها، ثم ذكر بعد ذلك القياس، ثم ختم ذلك بذكر طبيعة البرهان وشرح مؤداه، ثم أخذ بعد ذلك في شرح الأمور الطبيعية، فبدأ في ذلك بكتابه في السماع الطبيعي، ثم أتبع ذلك بكتابه في "الكون والفساد"، ثم تلاه في كتابه "في الآثار العلوية"، ثم اتبعه بكتابه "في السماء والعالم"، ثم والاه بكتابه "في النفس".

فلما تبينت ذلك أفرغت وسعي في طلب علوم الفلسفة وهي ثلاثة علوم: رياضية وطبيعية وإلهية فتعلقت من هذه الأمور الثلاثة بالأصول والمبادئ التي ملكت بها فروعها، ثم إني لما رأيت طبيعة الإنسان قابله للفساد، متهيئة إلى الفناء

والنفاد، شرحت ولخصت واختصرت مـن هـذه الأصـول الثلاثة ما أحاط فكري بتصوره، ووقف تمييزي على تدبره، وصنفت من فروعها ما جرى مجرى الإيضاح والإفصـاح عن غوامض هذه الأمور الثلاثة إلى وقت قولي هذا وهو ذو الحجة سنه سبع عشرة وأربع مئة لهجرة النبي ﷺ "[٢٢].

فهذه النصوص توضح كيف أن بعض علماء المسـلمين لم يكونوا بعيدين عن منهج الشك واتخاذه منطلقًا لليقين.

ج- الأنبياء كمعلمين:

ومما يتفق مع جعل الفكر والعلـم طريـق الإيمـان أن يكون الأنبياء والرسل "معلمين" ورغم أن المعجـزة كانـت موجودة واستخدمت في حالات الأنبياء السابقين على الإسلام إلا أن هذا لا يحدث إلا بعد المكابرة المتأتية من "**المصـالح المكتسبة**" والأوضاع القائمة التي تريـد الأديـان تغييرهـا بالذات ويريد هؤلاء الإبقاء عليها.. أمـا المهمـة التقليديـة

---

[٢٢] ابن أبي صبيعة عيون الأنباء في طبقـات الأطبـاء ص ٥٥٢ – ٥٥٣ طبع بيروت. استشهد بها في كتاب "القرآن ومعرفـة الطبيعـة " دكتور مهدي كلشني – طهران ١٩٨٥ ص ٤٢ – ٤٣.

والدائمة والتي يحقق بها الأنبيـاء رسـالتهم فهـي الـدعوة والهداية طريق الإقناع والحوار والتعليم.. إلخ وقبل أن تظهر المطبعة ووسائل الاتصال الأخرى ووسط الأمية الضـاربة أطنابها فإن مهمة الرسول المعلم كانت هي أن "يتلو" علـيهم الكتاب وما يصطحب بهذا ضرورة من إيضاح وبيان وأخـذ ورد.. ﴿يتْلُو علَيكُم آياتِنَا ويزكيكُم ويعلمكُم الْكِتَاب والْحِكْمـةَ ويعلمكُم ما لَم تَكُونُوا تعلَمون﴾. (١٥١ البقرة).

وهذه الآية تكررت بحروفها تقريبا في الآية ١٢٩ البقرة والآية ١٦٤ آل عمران والآية ٢ الجمعة.

ومن أجمل الآيات وأكثرها وقعا في تصوير دور رسول الإسلام ﴿لقَد من ا ُ علَى الْمؤمِنين إِذْ بعـثَ فِيهم رسولاً من أَنْفُسِهم يتْلُو علَيهم آياتِهِ ويـزكيهم ويعلمهم الْكِتَاب والْحِكْمةَ وإِن كَانُوا مِن قَبـلُ لَفِـي ضلاَلٍ مبِينٍ﴾ (١٦٤ آل عمران)

ففي هذه الآيات كلها يبرز القـرآن الأنبيـاء كمعلمـين يتلون الكتاب على الجماهير ويعلمونهم ما لم يكونوا يعلمون ويستخدمون كبقية المعلمين الوسائل التعليمية والسـيكولوجية

المختلفة كاستثارة الفكر والاعتماد على العقل والمنطق السليم والرد – ردا مقنعا – على الأسئلة التي يتقدم بها الجماهير.. وهناك العديد من الآيات التي تبدأ بكلمة (يسألونك) وتتضمن السؤال والرد – وهي تضم السؤال عن الأهلة ١٨٩ البقـرة والشهر الحرام ٢١٧ البقرة والخمر والميسـر ٢١٩ البقـرة و "ماذا ينفقون" ٢١٩ البقرة واليتامى والمحيض ٢٢٢ البقرة والروح ٨٥ الإسراء والجبال ١٠٥ الكهف إلخ...

ويدخل في دور الأنبياء التبيين والشرح والإيضاح ﴿قَـد جاءكُم رسولُنَا يبين لَكُم علَى فَتْرةٍ من الرسل﴾. (١٩ المائدة)

﴿وما أَرسلْنَا مِن رسولٍ إِلا بِلسانِ قَومِهِ لِيبين لَهـم﴾ (٤ إبراهيم)

﴿لِيبين لَهم الذِي يخْتَلِفُون فِيهِ﴾ (٣٩ النحل)

ويعرض القرآن في آيات عديدة لا يمكن أن يتسع مجال البحث لإيرادها[٢٣] صورة للحوار ما بين الأنبياء وأقـوامهم

---

[٢٣] انظر على سبيل المثال لا الحصر الآيات من ٩٥ إلى ٩٥ سـورة الأعراف التي تتضمن "حوارات" نـوح، وهـود، وصـالح، ولـوط، وشعيب.

وكيف يدعونهم برفق. حتى فرعون الطاغي ﴿فَقُولاَ لَه قَـ ولاً لينًا لعله يتَذَكر َأو يخْشَى﴾ (٤٤ طه).

وحتى يقول شعيب لقومه ﴿وما ُأرِيد َأن ُأخَاِلفَكُم ِإلَى مـا َأنْهاكُم عنْه ِإن ُأرِيد ِإلا الإِصلاَح ما استَطَعتُ وما تَوفِيقِي ِإلا ِبا ِ علَيهِ تَوكلْتُ وِإلَيهِ ُأِنيب﴾ (٨٨ هود)

ويوجه القرآن النبي ﴿ادع ِإلَى سـِبيل ربـك ِبالْحِكْمـةِ والْموعِظَةِ الْحسنَةِ وجادِلْهم ِبالَتِي هِي َأحسن ِإن ربك هو َأعلَم ِبمن ضل عن سِبيِلهِ وهو َأعلَم ِبالْمهتَدِين﴾ (١٢٥ النحل)

﴿ادفَع ِبالَتِي هِي َأحسن السيئَةَ نَحن َأعلَم ِبما يصِـفُون﴾ (٩٦ المؤمنون)

﴿ولاَ تَستَوِي الْحسنَةُ ولاَ السيئَةُ ادفَع ِبالَتِي هِي َأحسن فَِإذَا الَذِي بينَك وبينَه عداوةٌ كَأَنه وِلي حمِيم* وما يلَقَاها ِإلا الَذِين صبروا وما يلَقَاها ِإلا ذُو حـظ عظِيمٍ﴾ (٣٤ – ٣٥ فصلت)

﴿خُذِ الْعفْو وْأمر ِبالْعرفِ وَأعرِض عنِ الْجاهِلِين﴾ (١٩٩ الأعراف)

﴿فَاصبِر علَى ما يقُولُون وسبح بِحمدِ ربك قَبلَ طُلُـوعِ الشمسِ وقَبلَ غُروبِها﴾ (١٣٠ طه)

﴿فَاصـبِر إِن وعـد ا ِ حـق ولاَ يسـتَخِفَنك الَّـذِين لاَ يوقِنُون﴾ (٦٠ الروم)

﴿واصبِر علَى ما أَصابك إِن ذَلِك مِن عزمِ الْأُمور﴾ (١٧ لقمان)

وبمثل تطبيق هذه التوجيهات ورحمة ا لهـم اسـتحق النبي ﴿فَبِما رحمةٍ من ا ِ لِنتَ لَهم ولَو كُنتَ فَظا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضوا مِن حولِك فَاعفُ عنْهم واستَغْفِر لَهم وشَاوِرهم فِـي الأَمر فَإِذَا عزمتَ فَتَوكلْ علَى ا ِ إِن ا َ يحِـب الْمتَـوكِلِين﴾ (١٥٩ آل عمران)

وقد يجمل القرآن دور الأنبياء كمعلمين في أنهم ينقذون شعوبهم من الظلمات إلى النور وهو ما يرمز به إلى الانتقال مـن الجهالـة التـي العلـم والمعرفـة. ففـي الظلمـات لا يمكن أن نرى شيئًا، ولكن النور يجعلنا نرى، ونعـرف، وبقدر ما كان الأنبياء يعلمون، بقدر ما كانوا يدعون النـور يبدد الظلمات.

د- الخلق دليل وجود الخالق:

ومن أبرز المداخل التي يسلكها القـرآن ويجعـل بهـا التفكير طريق الإيمان اعتباره الخلق أكبر الأدلة على الخالق وقوته وكماله. وقد يسوق القرآن الخلق كمجرد ظاهرة أو آية تثير التفكير ضمنًا وتبعث على إنعام النظر، وقد ينبه إلى هذه الإثارة صراحة ويربط ما بينهـا وبـين الخلـق وأن مـن المستحيل وجود هذه المخلوقات دون خالق، وتتضمن هـذه المخلوقات كل شيء من أكبرها حتى أصغرها من الشـموس والسماوات والأقمار إلى النمل والنحل والذباب والبعـوض.. وهكذا نقرأ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السماواتِ والأَرضِ واخْتِلاَفِ الليلِ والنهارِ والْفُلْكِ الَّتِي تَجرِي فِي الْبحرِ بِما ينفَع النـاس ومـا أَنْزلَ ا ُ مِن السماءِ مِن ماءٍ فَأَحيا بِهِ الأَرض بعد موتِها وبث فِيها مِن كُلِّ دابةٍ وتَصرِيفِ الرياحِ والسحابِ الْمسـخرِ بـين السماءِ والأَرضِ لَآياتٍ لِقَومٍ يعقِلُون﴾ (١٦٤ البقرة)

﴿إِن فِي خَلْقِ السـماواتِ والأَرضِ واخْـتِلاَفِ الليـلِ والنهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الأَلْبابِ﴾ (١٩٠ آل عمران)

﴿الْحمد ِ الـذِي خَلَـقَ السـماواتِ والأَرض وجعـلَ الظُّلُماتِ والنور ثُم الَّذِين كَفَروا بِربهِم يعدِلُون﴾ (١ الأنعام)

﴿إن ا َ فَالِقُ الْحب والنوى يخْرِج الْحـي مِـن الْميـتِ ومخْرِج الْميتِ مِن الْحـي ذَلِكُـم ا ُ فَـأَنى تُؤْفَكُـون﴾ (٩٥ الأنعام)

﴿ ومِن آياتِهِ خلْقُ السماواتِ والأَرضِ وما بـث فِيهما مِن دابةٍ وهو علَى جمعِهِم إِذَا يشاء قَـدِير﴾ (٢٩ الشورى)

﴿ ونَادوا يا مالِك لِيقْضِ علَينَا ربك قَالَ إِنكُم ماكِثُون﴾ (٧٧ فصلت)

﴿ ومِن آياتِهِ أَن خلَقَكُم من تُـرابٍ ثُـم إِذَا أَنْـتُم بشَـر تَنتَشِرون﴾ (٢٠ الروم)

﴿ ومِن آياتِهِ خلْقُ السماواتِ والأَرضِ واخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُم وأَلْوانِكُم﴾ (٢٢ الروم)

﴿ ولَقَد خلَقْنَا الإِنْسان مِن سلالَةٍ من طِينٍ* ثُـم جعلْنَاه نُطْفَةً فِي قَرارٍ مكِينٍ* ثُم خلَقْنَا النطْفَةَ علَقَـةً فَخلَقْنَا الْعلَقَةَ مضغَةً فَخلَقْنَا الْمضغَةَ عِظَاما فَكَسـونَا

الْعِظَام لَحما ثُم أَنشأْنَاه خَلْقًا آخَر فَتَبارك ا ُ أَحسـن الْخَالِقِين﴾ (١٢ – ١٤ المؤمنون)

﴿ ولَقَد خَلَقْنَا الإِنْسان مِن صلْصالٍ من حمـإٍ مسـنُونٍ﴾ (٢٦ الحجر)

﴿ هو الَذِي خَلَقَكُم من تُرابٍ ثُم مِن نطْفَةٍ ثُم مِن علَقَـةٍ﴾ (٦٧ الحجر)

﴿ أَو لَم يروا أَنا خَلَقْنَا لَهم مِما عمِلَتْ أَيدِينَا أَنْعاما فَهـم لَها مالِكُون﴾ (٧١ يس)

﴿ سبح اسم ربك الأعلى* الَذِي خَلَقَ فَسـوى* والَذِي قَدر فَهدى﴾ (١-٣ الأعلى)

وبالإضافة إلى أن هذه الآيات تثير الفكر وتـدل علـى إعجاز الخالق فإنها تورد الحل لأكبر المشـكلات.. الحيـاة والموت.. خلق الكون والشمس والقمر.. خلـق الإنسـان.. وتقصي مراحل هذا الخلق بدءا من صلصال من حمأ مسنون أو تراب أو سلالة من طين أو صلصال كالفخـار أو طـين لازب تُبث فيه الحياة بنفثة من ا ليدخل بعد هذا في مراحل التطور البيولوجية من نطفة فعلقة فمضغة ثم العظام ثم اللحم،

وهي إيضاحات تتفق تماما حتى مع الذين يرون نشأة الإنسان من "مادة" ويتفوق عليهم في أنه يحل اللغز الذي لا يزال قائما "من أين جاءت شرارة الحياة" ثم هو في بعض مراحل الحمل يتفق مع آخر الاكتشافات العلمية مما آثـار عجـب أسـاتذة الأجنة ودفع ببعضهم إلى الإسلام فتكرر بالنسبة لهـم فـي القرن العشرين وبفضل الكشف العلمي مـا حـدث للعـرب الأميين في القرن السابع.

ويوجه القرآن نظر المـؤمنين إلـى روعـة الشـمس والقمر.. الليل والنهار.. الموت والحياة.. الظلمة والنـور.. الذكر والأنثى، وتلك الدقة التي يسير بها كـل الكـون كـل يجري لأجل مسمى لا الشمس ينبغي لها أن تـدرك القمـر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون وحديث القـرآن عن هذه الآيات يفوق أشد كتب الشـعر غرامـا بالطبيعـة وإعجازا في وصفها فنظم القرآن فن وحكمة..

﴿ وهو الذِي خَلَقَ الليلَ والنهار والشمس والْقَمر كُل فِي فَلَكٍ يسبحون﴾ (٣٣ الأنبياء)

﴿ ذَلِك بِأَن ا َ يولِج الليلَ فِي النهار ويولِج النهار فِـي الليل وأَن ا َ سمِيع بصِير﴾ (٦١ الحج)

﴿ يولج الليلَ فِي النهار ويولِج النهار فِي الليل وسـخر الشمس والْقَمر كُل يجري لأجلٍ مسمى ذَلِكُم ا ُ ربكُـم لَـه الْملْك والذِين تدعون مِن دونِهِ ما يملِكُون مِن قِطْمِيـرٍ﴾ (١٣ فاطر)

﴿ سبحان الذِي خلَقَ الأزواج كُلها مِمـا تنبِـتُ الأرض ومِن أَنفُسِهِم ومِما لا يعلَمون* وآيـةٌ لهـم الليلُ نَسلَخُ مِنْه النهار فَإِذَا هم مظْلِمون* والشـمس تجري لِمستقَر لها ذَلِك تقْدِير الْعزِيزِ الْعلِيمِ* والْقَمر قَدرنَاه منَازِلَ حتى عاد كَالعرجون الْقَدِيمِ* لا الشمس ينبغِي لَها أَن تدرِك القَمر ولا الليلُ سابِقُ النهارِ وكُل فِي فَلَكٍ يسبحون﴾ (٣٦- ٤٠ يس)

ويتحدى القـرآن المشـركين والكـافرين أن يخلقـوا أو تخلق آلهتهم المزعومة شيئًا..

﴿ يا أَيها الناس ضرب مثَلٌ فَاسـتَمِعوا لَـه إِن الـذِين تَدعون مِن دون ا ِ لَن يخْلُقُوا ذُبابا ولَو اجتَمعـوا لَـه وإِن يسلُبهم الذباب شَـيئًا لا يسـتَنقِذُوه مِنْـه ضـعفَ الطالِـب والْمطْلُوب﴾ (٧٣ الحج)

ومن النادر أن نجد صيغة مركزة مكثفة صـادعة فـي التحدي مثل هذه وهي مع هذا صادقة كـل الصـدق فـالعلم الإنساني بأسره يعجز عن صنع ذبابة أو حتى طـائرة فـي حجم الذبابة وفي مرونة حركتها وطيرانها، فضلاً عن نفـخ شرارة الحياة فيها الذي يجعل طيرانها ذاتيا وإراديا.

هـ - استبعاد عبثية الحياة وتأكيد غائيتها:-

ويتقدم القرآن ليعزز ويدعم بذرة الإيمان التي لا بد وأن تنمو في الإنسان نتيجة للتفكير فيما بين يديه من (آيـات) و (مخلوقات) بما فيها وجوده نفسه باسـتبعاده عبثيـة الحيـاة وتأكيده أن هذه الحياة لم توجد عبثًا أو تخلق سدى وأنها إنما وجدت لغاية وحكمة وبهذا يغرس القرآن فكرة الغائية ويفسح المجال للتفكير المنظم المنطقي المسئول قـدر مـا يسـتبعد العبثية واللامسئولية والعشوائية.

﴿أَفَحسِبتُم أَنما خَلَقْنَاكُم عبثًا وأَنكُم إِلَينَـا لاَ تُرجعـون﴾ (١١٥ المؤمنون)

﴿أَيحسب الإِنْسان أَن يتْرك سدى* أَلَم يك نُطْفَةً من منِي يمنَى* ثُم كَان علَقَةً فَخَلَقَ فَسوى* فَجعـلَ

منه الزوجين الذكر والأنثى* أليس ذلك بقادر علـى أن يحيي الموتى ﴾ (٣٦-٤٠ القيامة)

﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم ا ُ الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون ا ِ ولا رسوله ولا المؤمنين وليجةً وا ُ خبير بما تعملون﴾ (١٦ التوبة)

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما بـاطلاً﴾ (٢٧ ص)

﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عمـلاً﴾ (٢ الملك)

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين﴾ (١٦ الأنبياء)

﴿ ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهمـا إلا بـالحق وأجل مسمى﴾ (٣ الأحقاف)

ففي هذه الآيات كلها يستبعد القـرآن العبثيـة، ويؤكـد الغائية. والعبثية تعنـي العشـوائية، والتلقائيـة والتخـبط، باختصار الفوضى، في حين أن الغائية تعني الإرادة والفكـر

والنظام والتسلسل المنطقي من وسيلة إلى غاية، وقيام النتائج على مقدمات، وارتبـاط الأسـباب بالمسـببات. باختصـار "العقل"، والشكل الكلي والأعظم والحي لهذا العقل يعود إلـى ا تعالى، الذي خلق ونظم هذا الكون طبقًـا للسـنن التـي وضعها له.

و- استخدام درجة أولية من المنطق:

يستخدم القرآن درجة أولية من المنطـق تعتمـد علـى البداهة والفطرة السليمة دون التطرق إلى صور من التعقيـد المنطقي أو الترتيب الذي تقـوم عليـه طريقـة المقـدمات والنتائج.

ومن أمثلة (منطق القرآن).

﴿ أَو لَيس الذِي خَلَقَ السماواتِ والأرض بِقَادِرٍ علَى أَن يخْلُقَ مِثْلَهم﴾ (٨١ يس)

﴿ أَو لَم يروا أَن ا َ الذِي خَلَقَ السماواتِ والأرض ولَم يعي بِخَلْقِهن بِقَادِرٍ علَى أَن يحيِي الْموتَى﴾ (٣٣ الأحقاف)

﴿ ما خَلْقُكُم ولاَ بعثُكُم إِلا كَنَفْسٍ واحِـدةٍ إِن ا َ سمِيع بصِير﴾ (٢٨ لقمان)

﴿ وضرب لنَا مثَلاً ونَسِي خَلْقَه قَالَ مـن يحيِـي الْعِظَام وهِي رمِيم* قُلْ يحيِيها الَّذِي أَنْشأَها أَولَ مرةٍ وهو بِكُلِّ خَلْقٍ علِيم﴾ (٧٩ يس)

﴿ لَو كَان فِيهِما آلِهةٌ إِلا ا ُ لَفَسـدتَا فَسـبحان ا ِ رب الْعرشِ عما يصِفُون﴾ (٢٢ الأنبياء)

﴿ ما اتخَذَ ا ُ مِن ولَدٍ وما كَان معه مِن إِلَهٍ إِذًا لـذَهب كُلُّ إِلَهٍ بِما خَلَقَ ولَعلاَ بعضهم علَى بعضٍ سبحان ا ِ عمـا يصِفُون﴾ (٩١ المؤمنون)

ومقارنة هذا المنطق بمنطق الفلاسفة الـذي اسـتخدمه العلماء المسلمون نقلاً عن اليونان لإثبات وجود ا وحدانيته، يوضح الاختلاف الكبير بين منهج القرآن، ومنهج المناطقـة التقليديين ، ويبرز مدى بساطة وإحكام منطق القرآن وأن كل النفوس تسيغه وتفهمه وتقتنع به دون أدنى صعوبة.

ز- ضرب الأمثلة :

وقريب من هذا أن يستخدم القرآن الأمثال ليصل إلى الأفهام وليقرب إليها المعاني والأفكار بأشياء محسوسة وملموسة ﴿إِن ا لاَ يستَحيِي أَن يضرِب مثَلاً ما بعوضةً فَما فَوقَها (٢٦ البقرة)

﴿ ولَقَد صرفْنَا لِلناسِ فِي هذَا الْقُرآنِ مِن كُلِّ مثَلٍ فَأَبى أَكْثَر الناسِ إِلا كُفُورا ﴾ (٨٩ الإسراء)

﴿ ولَقَد صرفْنَا فِي هذَا الْقُرآنِ لِلناسِ مِن كُلِّ مثَلٍ وكَان الإِنْسان أَكْثَر شَيءٍ جدلاً﴾ (٥٤ الكهف)

ومن أمثلة القرآن:

﴿ مثَلُ الذِين ينْفِقُون أَموالَهم فِي سبِيلِ ا كَمثَلِ حبةٍ أَنبتَتْ سبع سنَابِلَ فِي كُلِّ سنبلَةٍ مائَةُ حبةٍ وا يضاعِفُ لِمن يشَاء وا واسِع علِيم﴾ (٢٦١ البقرة)

﴿ أَلَم تَر كَيفَ ضرب ا مثَلاً كَلِمةً طَيبةً كَشَجرةٍ طَيبةٍ أَصلُها ثَابِتٌ وفَرعها فِي السماءِ* تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ ربها ويضرِب ا الأَمثَالَ لِلناسِ لَعلَّهم

يتَذَكرون* ومثَلُ كَلِمةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجرةٍ خَبِيثَةٍ اجتُثـتْ مِن فَوقِ الأَرضِ ما لَهـا مِـن قَـرارٍ﴾ (٢٤- ٢٦ إبراهيم)

﴿ ا ُ نُور السماواتِ والأَرضِ مثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهـا مِصباح الْمِصباح فِي زجاجةٍ الزجاجةُ كَأَنها كَوكَـب دري يوقَد مِن شَجرةٍ مباركَةٍ زيتُونَةٍ لاَ شَرقِيةٍ ولاَ غَرِبيـةٍ يكَـاد زيتُها يضِيء ولَو لَم تَمسسه نَار نُور علَى نُـورٍ يهـدِي ا ُ لِنُورِهِ من يشَاء ويضرِب ا ُ الأَمثَالَ لِلناسِ وا ُ بِكُل شَـيءٍ علِيم ﴾ (٣٥ النور)

﴿ ضرب الله مثلاً عبدا مملوكا لا يقدر على شيءٍ ومن رزقناه منا رزقًا حسنًا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون* وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيءٍ وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيمٍ ﴾ (٧٤ – ٧٥ النحل)

﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (٥ الجمعة)

ح- التنديد باتباع الآباء:

ومما يتفق مع دعوة القرآن لاستثارة الذهن وإعمال الفكر تنديده باتباع الآباء والأجداد إما من باب التقليد والاستراحة من عناء التفكير وتحمل مسئولية أو اعتزازا ذاتيا بهؤلاء الآباء..

﴿ وإِذَا قِيلَ لَهم اتبِعوا ما أَنْزلَ ا ُ قَالُوا بلْ نَتبِع ما أَلْفَينَا علَيهِ آباءنَا أَولَو كَان آباؤُهم لاَ يعقِلُون شَـيئًا ولاَ يهتَـدون﴾ (١٧٠ البقرة)

﴿ وإِذَا قِيلَ لَهم تَعالَوا إِلَى ما أَنْزلَ ا ُ وإِلَـى الرسـول قَالُوا حسبنَا ما وجدنَا علَيهِ آباءنَا أَولَو كَان آباؤُهم لاَ يعلَمون شَيئًا ولاَ يهتَدون﴾ (١٠٤ المائدة)

﴿ وإِذَا فَعلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وجدنَا علَيهـا آباءنَـا وا ُ أَمرنَا بِها قُلْ إِن ا َ لاَ يأْمر بِالْفَحشَاءِ أَتَقُولُون علَى ا ِ ما لاَ تَعلَمون﴾ (٢٨ الأعراف)

﴿ بلْ قَالُوا إِنا وجدنَا آباءنَا علَى أُمةٍ وإِنا علَى آثَـارِهِم مهتَدون* وكَذَلِك ما أَرسلْنَا مِن قَبلِك فِي قَريةٍ من نَـذِيرٍ إِلا قَالَ مترفُوها إِنا وجدنَا آباءنَا علَى أُمةٍ وإِنـا علَـى آثَـارِهِم مقْتَدون* قُلْ أَولَو جِئْتُكُم بِأَهدى مِما وجدتم علَيهِ آباءكُم قَالُوا إِنا بِما أُرسِلْتُم بِهِ كَافِرون﴾ (٢٢ – ٢٤ الزخرف)

ط- توظيف الحواس لاستثارة الفكر:

ويدعو القرآن لتوظيف الحواس لاستثارة الفكر ويوجـه الناس لاستخدام حواسهم لاستشفاف الحقيقة.. فا تعالى خلق

لهم هذه الحواس ليتعرفوا على الحقيقة وليتوصلوا إلى درجة من الفهم والمعرفة يستوي في ذلك استخدام العيون أو الآذان أو الأقدام.. فهناك دائما توجيهات قرآنية انظروا.. استمعوا.. سيروا.. ويربط القرآن بين هذه التوجيهات والتوصـل إلـى الحقيقة أو إلى شاطئ الحقيقة.. وقد يأتي التوجيه القرآني في صيغة الاستفهام الانكاري "أو لم يروا.. أو لم ينظـروا.. أو في صيغة الأمر للرسول "قل انظروا"...

﴿ أَو لَم ينْظُـروا فِـي ملَكُـوتِ السـماواتِ والأَرضِ وما خَلَقَ ا ُ مِن شَيءٍ ﴾ (١٨٥ الأعراف)

﴿ قُلِ انْظُروا ماذَا فِي السماواتِ والأَرضِ ومـا تُغْنِـي الآياتُ والنذُر عن قَومٍ لا يؤْمِنُون﴾ (١٠١ يونس)

﴿ فَانْظُر إِلَى آثَارِ رحمتِ ا ِ كَيفَ يحيِي الأَرض بعـد موتِها إِن ذَلِك لَمحيي الْموتَى وهو علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِير﴾ (٥٠ الروم)

وقد يجمع في آية واحدة النظر والسير..

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١١ الأنعام)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (١٠٩ يوسف)

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَـةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَـاتِ فَمَـا كَـانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٩ الروم)

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْـأَةَ الآخِـرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَـى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ﴾ (٢٠ العنكبوت)

والربط ما بين "السير" و "النظـر" و "السـمع" وبـين المعرفة والفكر أحد المناهج القرآنية الإسـلامية.. فالمعرفـة المحمودة في الإسلام هي المعرفة التي تفيد الناس أما إذا كان مجرد شقشقة من اللسان أو جدلاً شكليا أو تفكيرا دون هدف فإن الإسلام لا يحبذه تماما وأسوأ منه أن تستخدم المعرفة في المراء والجدل العقيم، والإسلام يتفق في هذا مـع الدرجـة

الأولى والبدائية من العقلانيـة، درجـة اسـتخدام الحـواس وتوظيفها للوصول للمعرفة.

ي- حرية الاعتقاد:

من القسمات التي يعنى القرآن بإبرازها خلال استثارته للفكر حرية الاعتقاد، ومن الغريب أن هذه الفكـرة – رغـم صراحة القرآن وتشديده وتكراره لها بعبارات قاطعة لم تجد تجاوبا، بل نقول إنها نبذت تماما لأنها تخالف مخالفة حادة ما يدعو إليه السدنة وذوو المصالح الذين نصبوا أنفسهم قضـاة على الناس وحكاما في شئون إيمانهم. ونجحوا فعلاً في إيجاد رأي عام يستبعد حرية الاعتقاد، وانقلبت الآية فأصبح الحـق باطلاً والباطل حقًا وبدلاً من أن يثير أي قيـد علـى حريـة الاعتقاد العجب والاستنكار أصبحت حرية الاعتقاد شيئًا يعاذ منه ويتعجب له...

ذلك لأن الاعتقاد ما دام يقوم على الإيمان القلبي فلا بد أن ينشأ بفضل الحرية والمبادأة في التفكيـر ولا يمكـن أن يؤمن الناس قسرا، وأي إيمان قسري لا قيمة له لأنه يتجـرد من النية وهي أصل في الإيمان والعبادات ولأنه لا يقوم على تفكير ولأن صاحبه يكون مكرها فلا عقاب ولا ثواب.

من أجل هذا كله، فإن القرآن يقرر في آيات لا يتسـع المجال لحصرها حرية الاعتقاد وأن الأنبياء أنفسهم لا سلطان لهم على قلوب الناس وأنما أرسلهم ا مبشـرين ومنـذرين ومبلغين ﴿ ما على الرسول إلا الْبلاَغُ﴾ (٩٩ المائدة)

﴿وإِن كَان كَبر علَيك إِعراضهم فَإِن استَطَعتَ أَن تَبتَغِي نَفَقًا فِي الأَرضِ أَو سلما فِي السماءِ فَتَأْتِيهم بِآيةٍ ولَو شَاء ا ُ لَجمعهـم علَـى الْهـدى فَـلاَ تَكُـونَن مِـن الْجـاهِلِين﴾ (٣٥ الأنعام)

﴿ وإِن كَذبوك فَقُل لي عملِي ولَكُم عملُكُم أَنْتُم برِيئُـون مِما أَعملُ وأَنَا برِيء مما تَعملُون﴾ (٤١ يونس)

﴿قُلْ يا أَيها الناس قَد جاءكُم الْحق مِن ربكُم فَمن اهتَدى فَإِنما يهتَدِي لِنَفْسِهِ ومن ضل فَإِنما يضِل علَيها وما أَنَا علَيكُم بِوكِيلٍ﴾ (١٠٨ يونس)

﴿ فَإِن تَولوا فَإِنما علَيك الْبلاَغُ الْمبِين﴾ (٨٢ النحل)

﴿ ولَو شَاء ا ُ ما اقْتَتَلَ الَذِين مِن بعدِهِم من بعـدِ مـا جاءتْهم الْبينَاتُ ولَكِن اخْتَلَفُوا فَمِنْهم من آمن ومِنْهم من كَفَـر ولَو شَاء ا ُ ما اقْتَتَلُوا ولَكِن ا َ يفْعلُ ما يرِيد﴾ (٢٥٣ البقرة)

﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ (٢٧٢ البقرة)

﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين* إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ (١١٨ – ١١٩ هود)

﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ (٢٥٦ البقرة)

﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين* وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ (٩٩ – ١٠٠ يونس)

﴿ فذكر إنما أنت مذكر* لست عليهم بمسيطر* إلا من تولى وكفر* فيعذبه الله العذاب الأكبر* إن

إِلَينَا إِيابهم* ثُم إِن علَينَا حِسابهم﴾ (٢١ – ٢٦ الغاشية)

﴿ قُلْ يا أَيها الْكَافِرون* لاَ أَعبد ما تَعبدون* ولاَ أَنْتُم عابِدون ما أَعبد* ولاَ أَنَا عابِد ما عبدتم* ولاَ أَنْتُم عابِدون ما أَعبد* لَكُم دِينُكُم ولِي دِين ﴾ (١ – ٦ الكافرون)

كل هذه الآيات وهي قليل من كثير تقرر حرية الاعتقاد وتقصر مهمة الرسل على التبليغ والتبيين وتكل إلى ا تعالى يوم القيامة الفصل فيما يختلف فيه الناس وهذه الآيات لا تدع الضالين في ضلالتهم يعمهون لأن تبليغ الأنبياء رسالتهم وأداءهم لأماناتهم وقيامهم بدور المعلمين فيه ما يكفي لإقناع كل من ينشد الحقيقة، ولكنها لا تستخدم وسائل القسر والإكراه في هذا المجال فإذا كان ذلك سيخسر الإيمان عددا من المصرين على الضلال فإنه سيفسح المجال لكل ذوي القلوب السليمة والضمائر الطاهرة للإيمان عن هدى وبصيرة واقتناع.

وكانت هذه التوجيهات ملحوظة فـي الأيـام الأولـى للإسلام وقد ذهب الرسـول فـي سـماحته مـع المنـافقين والمخالفين حدا عاتبه القرآن عليه ولم تكن ردة المرتدين ردة عقيدة لأن معظمهم كانوا يشهدون ألا إله إلا ا وأن محمـدا رسول ا ولكنهم ثاروا على حكم الخليفـة الأول ومنعـوا الزكاة وكانت ردتهم سياسية واقتصادية ولم يكن ثمة مناص من قتالهم وقد ذكر القرآن الردة أكثر من مرة ولـم يرتـب عليها عقابا دنيويا وإنما أوكل أمرها إلى ا كما سادت بيئـة الحرية الفكرية اجتهاد الفقهاء والأئمة حتى وصلت الفتـاوى إلى درجة التضارب.

أما ما يتصف به الفقهاء عادة من ضيق. بحرية الاعتقاد فهو داء كل الخبراء الذين يغلب التخصص والتعمـق فـيهم رحابة الصدر وسعة الأفق، وهو الداء الذي يصطحب ببلوغ العقيدة درجة "المؤسسة" بحيث تقترن الغيـرة علـى الـدين بالحرص على المصلحة، والحفاظ على التصـور التقليـدي. وهي ظاهرة لا تمس الإسلام بالذات ولكنها تصـور بعـض المآزق التي تتعرض لها الأديـان. والفـرق بـين الإسـلام والأديان الأخرى في هذا، أن الإسلام عندما استبعد الكنيسـة

التي تكون لها بحكم العقيدة سلطان على الإيمـان، وعنـدما ائتمن الفطرة فإنه أوجد صمامات الأمان التي تحول دون أن ينتهي تعرض الإسلام لهذا المأزق بالوقوع فيه.. كما حـدث بالنسبة للأديان الأخرى.

الفصل الخامس

المقوم الثاني: الموضوعية والسنن

مع أن القرآن يتقبل الشك كمرحلة فـي الطريـق إلـى اليقين، ويعتبر أن التفكير مفتاح التوصل إلى عقيدة الألوهية واستبعاد ما علق بها من شوائب وأوهام، إلا أن القرآن يوجه الناس إلى أن هناك "سننًا" وضعها ا لقيام المجتمع وسـيره وتطوره، وأن هذه السنن ثابتة لا تتغير، كما أنه يوجه الناس لأن يسلكوا مسلكًا موضوعيا وأن يبنوا أحكامهم على أساس موضوعي يبعد كل البعد عن "الذاتية"، وهو أمر طبيعي لأن القرآن ينبثق عن أصل، وأعم ما يتصور عـن موضـوعية: "ا " تعالى، وليس شرطًا أن يتحدث القرآن عن الموضوعية بهذا اللفظ، لأن للأديان لغتها الخاصة ومسمياتها التي تعطي المضمون نفسه باسم مختلف.

أ- الموضوعية:

يعبر القرآن الكريم عن الموضوعية تعبيرا خاصا به وهو "الحق". وهو تعبير يفضل كثيرا تعبير الموضوعية للأسباب التي سترد. والقرآن يدعو المؤمنين للإيمان بالحق، كل الحق، ولا شيء غير الحق. وفي هذا السبيل يحرم القرآن كل صور الهوى والغرض والأنانية والذاتية كائنة ما كانت وفي كل المجالات.

﴿ ولاَ يجرِمنكُم شنَآن قَومٍ أَن صدوكُم عن الْمسجِدِ الْحرامِ أَن تَعتَدوا﴾ (٢ المائدة)

﴿ يا أَيها الذِين آمنُوا كُونُوا قَوامِين ِ شُهداء بِالْقِسطِ ولاَ يجرِمنكُم شنَآن قَومٍ علَى أَلا تَعدِلُوا اعدِلُوا هو أَقْرب لِلتقْوى واتقُوا ا َ إِن ا َ خَبِير بِما تَعملُون﴾ (٨ المائدة)

﴿ يا أَيها الذِين آمنُوا كُونُوا قَوامِين بِالْقِسطِ شُهداء ِ ولَو علَى أَنْفُسِكُم أَوِ الْوالِدين والأَقْربِين إِن يكُن غَنِيا أَو فَقِيرا فَا ُ أَولَى بِهِما فَلاَ تَتبِعوا الْهوى أَن تَعدِلُوا وإِن تَلْووا أَو تُعرِضوا فَإِن ا َ كَان بِما تَعملُون خَبِيرا﴾ (١٣٥ النساء)

وتطبيقًا لهذا المبدأ في عدم الاعتداد إلا بالحقيقة وحدها واستبعاد العواطف والمشاعر التـي تـؤثر عليها أو تنقص منها أو تغيرها رفض الإسلام مبدأ التبني وأن يعطي الإنسان اسمه لابن لـيس لـه ﴿ ادعوهم لآبائِهم هو أَقْسطُ عِنْد ا ِ فَإِن لـم تَعلَمـوا آَباءهم فَإِخوانُكُم فِي الدين ومواليكُم وليس علَـيكُم جنَاح فِيما أَخْطَأْتُم بِهِ ولَكِن ما تَعمدتْ قُلُوبكُم وكَـان ا ُ غَفُورا رحِيما﴾ (٥ الأحزاب)

ورفض دعوى "الظهار".

﴿ الَّذِين يظَاهِرون مِنكُم من نسائِهِم ما هن أُمهـاتِهِم إِن أُمهاتُهم إِلا اللائِي ولَدنَهم وإِنهم لَيقُولُون منكَرا مـن الْقَـول وزورا وإِن ا َ لَعفُو غَفُور﴾ (٢ المجادلة)

والتوجيه بالتزام هذا المسلك هو تطبيق لأصـل عـام عظيم هو (الحق) الذي نزل به الكتاب ودعا إليـه الأنبيـاء ويعد المحور الذي تدور عليه قضايا المجتمع قاطبـة. وقـد يستخدم القرآن كلمة "العدل" والعدل هو الحق مطبقًا لأنه ليس

إلا إعطاء كل ذي حق حقه ووضع كل شيء موضعه، ومن ثم جاء الربط بين – الوزن والحق ﴿ والوزن يومئذ الحـق﴾ (٨ الأعراف)

﴿يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ (٨١ الأعراف)

فالحق أعم من العدل ولهذا فإن ذكره أكبر في القـرآن (٢٢٧ مرة على حين ذكر العدل على أهميتـه الكبـرى ٢٧ مرة).

وتعبير "الموضوعية" فقير، مجرد، متهافت، أمام التعبير القرآني الحـي القـوي "الحـق" ومـن مثـل هـذه الآيـة ﴿ولاَ تَلْبِسوا الْحق بِالْباطِل وتَكْتُموا الْحق وأَنْـتُم تَعلَمـون﴾ (٤٢ البقرة) اشتقت الشهادة التقليديـة "الحـق وكـل الحـق ولا شيء إلا الحق" لأن ا تعالى هو أصـل "الموضـوعية الإسلامية"، وهو الأصل الذي تتساقط أمامه كل الذاتيات..

وفي آيات عديدة جدا يكرر القـرآن أن الغـرض مـن إنزال الكتاب هو أن يكون لدى الناس الحق الذي يحكمون به ويفصلون به في خلافاتهم ﴿ وأَنْزلَ معهـم الْكِتَـاب بِـالْحق لِيحكُم بين الناسِ فِيما اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (٢١٣ البقرة).

﴿ إِنا أَنْزلْنَا إِلَيك الْكِتَاب بِالْحق لِتَحكُم بين النـاس بِمـا أَراك ا ُ﴾ (١٠٥ النساء)

على أن القرآن يستخدم الكلمة ليعبر بها عما هو أكبـر من المعيار للحكم. أن خلـق السـموات والأرض مـا تـم إلا بالحق ﴿ وما خَلَقْنَا السماواتِ والأَرض ومـا بينَهمـا إِلا بِالْحق﴾ (٨٥ الحجر).

﴿ خَلَقَ السماواتِ والأَرض بِالْحق تَعالَى عما يشْرِكُون﴾ (٣ النحل)

﴿ ما خَلَـقَ ا ُ السـماواتِ والأَرض ومـا بينَهمـا إِلا بِالْحق﴾ (٨ الروم)

﴿ ما خَلَقْنَا السماواتِ والأَرض وما بينَهما إِلا بِـالْحق﴾ (٣ الأحقاف)

وكلل هذا بأن أطلق القرآن اسم الحق على ا تعالى:

﴿ ويعلَمون أَن ا َ هو الْحق الْمبِين﴾ (٢٥ النور)

﴿فذلكم ا ربكم الحق﴾ (٣٢ يونس)

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ (٣٠ لقمان).

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ (٧١ العنكبوت).

وهذه الآية قمة الموضوعية، فبالإضافة إلى تسمية الله تعالى بالحق، فإنها أوضحت أن اتباع الأهواء – وهي رمز الذاتية – سيفسد، ليس فحسب المجتمع الإنساني ولكن السماوات والأرض أيضا.

وأدى حرص القرآن على الحقيقة – كل الحقيقة وأنه آخر الكتب السماوية المقدسة لأن يعترف بهذه الكتب السابقة ولأن يعترف بالأنبياء السابقين، ولا يحس القارئ أية حساسية في خفايا وغضون النظم القرآني عند إشاراته إلى الأنبياء السابقين والكتب السماوية لأن القرآن من الله والله تعالى هو الذي أنزل كل الكتب المقدسة وأرسل كل الأنبياء فليست هناك حساسية وإنما تكون الحساسية لو أن الإسلام كان من عند غير الله إذن لنزع النزعة الذاتية وحتى لو أراد العدل والحق لكان عدله وحقه مشوبا بالحساسية ولظهر ذلك في لحن القول وهو أمر لا أثر له في القرآن سواء بالنسبة للكتب

السابقة أو الأنبياء السابقين والقرآن يأمر المؤمنين أن يؤمنوا بها جميعا دون تفريق.

﴿ قُولُوا آمنا بِا ـ ِ وما ُأنْزِلَ إِلَينَا وما ُأنْزِلَ ِإلَى ِإبـ ـراهِيم وإِسماعِيلَ وإِسحاقَ ويعقُوب والأَسباطِ ومـ ـا ُأوتِـ ـي موسـ ـى وعِيسى وما ُأوتِي النِبِيون مِن ربهم لاَ نُفَرقُ بين َأحدٍ مـ ـنْهم ونَحن لَه مسلِمون﴾ (١٣٦ البقرة)

﴿ قُلْ آمنا بِا ـ ِ وما ُأنْزِلَ علَينَا وما ُأنْزِلَ علَى ِإبـ ـراهِيم وإِسماعِيلَ وإِسحاقَ ويعقُوب والأَسباطِ ومـ ـا ُأوتِـ ـي موسـ ـى وعِيسى والنِبِيون مِن ربهم لاَ نُفَرقُ بين َأحدٍ منْهم ونَحن لَـ ـه مسلِمون﴾ (٨٤ آل عمران)

﴿ إِنا أَوحينَا إِلَيك كَما أَوحينَا إِلَى نُوحٍ والنبِيـين مِن بعدِهِ وأَوحينَا إِلَى إِبراهِيم وإِسماعِيلَ وإِسـحاقَ ويعقُوب والأَسباطِ وعِيسى وأَيوب ويونُس وهارون وسلَيمان وآتَينَا داود زبورا* ورسلاً قَد قَصصـنَاهم علَيك مِن قَبلُ ورسلاً لَم نَقْصصهم علَيك وكَلَّـم ا ُ موسى تَكْلِيما﴾ (١٦٣ – ١٦٤ النساء).

﴿ وكَيفَ يحكمونَك وعِنْدهم التوراةُ فِيها حكْم ا ِ ثُم يتَولون مِن بعدِ ذَلِك وما أُولَئِك بِالْمؤْمِنِين* إِنـا أَنْزلْنَا التوراةَ فِيها هدى ونُور يحكُم بِهـا النبِيـون الَّذِين أَسلَموا لِلَّذِين هادوا والربانِيون والأَحبار بِمـا استُحفِظُوا مِن كِتَابِ ا ِ وكَانُوا علَيهِ شُـهداء﴾ (٤٣ – ٤٤ المائدة)

﴿ ولْيحكُم أَهلُ الإِنْجِيلِ بِما أَنْزلَ ا ُ فِيهِ ومن لَم يحكُـم بِما أَنْزلَ ا ُ فَأُولَئِك هم الْفَاسِقُون﴾ (٤٧ المائدة).

﴿ ولَو أَنهم أَقَاموا التوراةَ والإِنْجِيلَ وما أُنْزِلَ إِلَيهِم مِـن ربهِم لأكَلُوا مِن فَوقِهِم ومِن تَحتِ أَرجِلِهِم منْهم أُمةٌ مقْتَصِـدةٌ وكَثِير منْهم ساء ما يعملُون﴾ (٦٦ المائدة)

﴿ قُلْ يا أَهلَ الْكِتَابِ لَستُم علَى شَيءٍ حتى تُقِيموا التوراةَ والإِنْجِيلَ وما أُنْزِلَ إِلَيكُم من ربكُم ولَيزِيـدن كَثِيرا منْهم ما أُنْزِلَ إِلَيك مِن ربك طُغْيانًا وكُفْرا فَـلاَ تَأْس علَى الْقَومِ الْكَافِرِين* إِن الَّذِين آمنُوا والَّـذِين هادوا والصابِئُون والنصارى من آمن بِا ـ والْيـومِ الآَخِرِ وعمِلَ صالِحا فَـلاَ خَـوفٌ علَـيهِم ولاَ هـم يحزنُون﴾ (٦٨ – ٦٩ المائدة).

﴿ وقُولُوا آمنا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَينَا وأُنْـزِلَ إِلَـيكُم وإِلَهنَـا وإِلَهكُم واحِد﴾ (٤٦ العنكبوت).

فهذه الآيات كلها وهي قليل من كثير لا تنم عن أثـارة من التحيز أو الحساسية تجاه الأنبياء السابقين على الإسـلام أو الكتب التي أنزلت قبله بل إن فيها إشادة بالتوراة والإنجيل ودعوة للمسلمين لعدم التفريق بين أنبياء ا وهو أمر قلمـا نجده في دين آخر بالنسبة للأديان السابقة عليه وإنما اختص

بها الإسلام لغلبة الموضوعية والحرص على الحقيقة.. كل الحقيقة.

وما يؤكد أن هذا المسلك جزء من طبيعة العقلانية الإسلامية أننا نجده في كل المجالات كالشهادة على ما عرضنا. وعندما كان القرآن بصدد تحريم الخمر قال ﴿يسألُونَكَ عن الْخَمرِ والْميسِرِ قُلْ فِيهما إِثْم كَبِير ومنَافِع لِلناسِ وإِثْمهما أَكْبر مِن نفْعِهما﴾ (٢١٩ البقرة)

وهو ما يصور حرص القرآن على إبراز كافة الأبعاد حتى ما صغر منها أو ما يميل الناس عادة لإغفالها.

وأكدت السنة النبوية هذا المعنى عندما جعلت الحكمة ضالة المؤمن، ينشدها أنى وجدها، وحثت على طلب العلم، "ولو في الصين" وعندما أمر رسول ا ﷺ من حلف على يمين، فوجد خيرا منها أن يأخذ بالتي هي خير، ويكفر عن يمينه. ووجه عمر بن الخطاب قاضيه أبي موسى الأشعري ألا يستنكف من الرجوع عن حكم، إذا استبان له أن الحق في غيره، "فإن الحق قديم".

ففي هذه الشواهد كلها نجد التوجيه هو نحو "الموضوع" ليس نحو الذات.. فالمهم هو الموضوع نفسـه، ولـيس أي عامل آخر.

ب- السنن:

وبالإضافة إلى التوجيه القرآني في التزام "الحق" فـإن القرآن يبرز "سننًا" وضعها ا لتطور المجتمع الإسـلامي، وأن هذه السنن ثابتة لا تتغيـر، وأنهـا بمثابـة "علامـات" ومؤشرات وقوانين يمكن للفكر الإسلامي أن يهتدي بها، وأن يستفيد منها، ولكن لا يستطيع تغييرها أو القضاء عليهـا لأن الكون لا بد له من قوانين تمسكه وآلية تحدد سيره. والمجتمع لا بد له من ضوابط تحكمه وتربط ما بين السبب والمسـبب إن خيرا فخيرا، وإن شرا فشرا.

والقرآن يدعو المؤمنين لاحترام هذه السنن وملاحظتها، والتعرف عليها والإفادة منها بطريقة لا تخل بها أو تسـيء إليها.

﴿ قُل لِلذِين كَفَروا إِن ينتَهوا يغفَر لَهم ما قَد سـلَفَ وإِن يعودوا فَقَد مضتْ سنتُ الأولِين﴾ (٣٨ الأنفال).

﴿ لاَ يؤْمِنُــون بِــهِ وقَــد خلَــتْ ســنةُ الأولِــين﴾ (١٣ الحجر)

﴿ سنةَ من قَد أَرسلْنَا قَبلَك مِن رسلِنَا ولاَ تَجِـد لِسـنتِنَا تَحوِيلاً﴾ (٧٧ الإسراء)

﴿ سنةَ ا ِ فِي الَّذِين خلَوا مِن قَبلُ وكَان أَمر ا ِ قَـدرا مقْدورا﴾ (٣٨ الأحزاب).

﴿ سنةَ ا ِ فِي الَّذِين خلَوا مِن قَبلُ ولَن تَجِـد لِسـنةِ ا ِ تَبدِيلاً﴾ (٦٢ الأحزاب)

﴿ فَهلْ ينظُرون إِلا سنتَ الأَولِين فَلَن تَجِـد لِسـنتِ ا ِ تَبدِيلاً ولَن تَجِد لِسنتِ ا ِ تَحوِيلاً﴾ (٤٣ فاطر)

﴿ سنتَ ا ِ الَّتِي قَد خلَتْ فِي عِبـادِهِ وخَسِـر هنَالِـك الْكَافِرون﴾ (٨٥ غافر).

﴿ سنةَ ا ِ الَّتِي قَد خلَتْ مِن قَبلُ ولَن تَجِد لِسنةِ ا ِ تَبدِيلاً﴾ (٢٣ الفتح)

ومن السنن الإلهية أن كل شيء من ناحية القدر والحجم والكم "بقدر" مضبوط موزون. ومن ناحية الزمان بأجـل. لا

يمكن أن يتغير، وأي محاولة للإنسان للتغيير هي جهد ضائع، أو إخلال بالموازين التي وضعها ا   يبوء الإنسان بوزرها، فالإنسان قد يستعجل وقد يستأخر، وقد يستقل وقد يستكثر، ولكن ا   تعالى وضع سنته على أساس قد لا يلائم الإنسان بحكمته ولكنه يتلاءم مع أوضاع الكون والمجتمع، واقرأ إذا شئت.

﴿ لكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة﴾ (٣٤ الأعراف)

﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب﴾ (٥٣ العنكبوت)

﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾. (٥ الحجر)

﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾. (٤٣ المؤمنون)

﴿ ولن يؤخر ا   نفسا إذا جاء أجلها﴾ (١١ المنافقون)

﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾. (٤٥ فاطر)

﴿إن أجل ا إذا جاء لا يؤخر لو كنـتم تعلمـون﴾. (٤ نوح)

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجلٍ مسـمى لقضـي بينهم ﴾ (١٤ الشورى).

﴿ ولو يعجل ا للناس الشر استعجالهم بالخير لقضـي إليهم أجلهم﴾ (١١ يونس)

وكذلك:

﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقـدر معلوم ﴾ (٢١ الحجر)

﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسـكناه فـي الأرض﴾ (١٨ المؤمنون)

﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ (٤٩ القمر)

﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ (٨ الرعد)

﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل، وكان أمر الله قـدرا مقدورا ﴾ (٣٨ الأحزاب)

وهذه السنن تتناول الفرد الإنساني والحياة الـدنيا كمـا تتناول الأسس التي يقوم عليها المجتمع والسنن التي تحكـم الأكوان. والقرآن يضع خطوطًا عريضة لكل منهـا. فهـذه السنن تعرض الإنسان، كما جبله الله مخلوقًا خاصـا لـيس بالملاك. ولا بالشيطان. وقد هداه الله النجـدين ﴿ وإِذَا مـس الإِنْسان الضر دعانَا لِجنبِهِ أَو قَاعِدا أَو قَائِما فَلَما كَشَفْنَا عنْـه ضره مر كَأَن لم يدعنَا إِلَى ضر مسه﴾ (١٢ يونس)

﴿ ولَئِن أَذَقْنَا الإِنْسان مِنا رحمةً ثُم نَزعنَاها مِنْه إِنه لَيئُوس كَفُور* ولَئِن أَذَقْنَاه نَعماء بعـد ضـراء مستْه لَيقُولَن ذَهب السيئَاتُ عني إِنه لَفَرِح فَخُـور ﴾ (٩-١٠ هود).

﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكـان الإنسـان عجولاً ﴾ (١١ الإسراء).

﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾ (٥٤ الكهف).

﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط* ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة﴾ (٤٩- ٥٠ فصلت)

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ (٥١ فصلت)

﴿إن الإنسان خلق هلوعا* إذا مسه الشر* جزوعا* وإذا مسه الخير منوعا ﴾ (١٩ – ٢٠ المعارج)

﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن* وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن ﴾ (١٥ – ١٦ الفجر)

وهذه صورة دقيقة للإنسان وللطبيعة البشرية وكيف يحب المال حبا جما، ويأنس إلى الراحة والعافية وينفر من الفاقة والابتلاء، وينسى أيام الفاقة عندما يغتني وتتملكه الأثرة والأنانية والحرص والشح. والشيء الوحيد الذي ينقذه من

سيطرة هذه العوامل هو الإيمان. فبعد كل آية تصف استسلام الإنسان لهذه القوى نجد الاستثناء "إلا المصلين" أو "إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات" فالإنسان لـيس ملاكًـا طـاهرا ولا هو شيطان أثيم، ولكنه الكائن الذي تتوفر فيه ملكات القوة والضعف، العفة والشهوة.. وتتيسر له هداية الأنبياء وغواية الشياطين.

ويتسق مع هذا التصور للإنسان التصور الـذي يقدمـه القرآن للحياة الدنيا.. فليست هي نسكًا وصلاة وابتعادا عـن مناشط الحياة الدنيا، وليست أيضا استغراقًا في الشهوات، إنها اختيار دقيق فيمكن للإنسان أن يقبل التحدي وينتصر، ويمكن أن يستسلم لضعفه وهواه. وهي مسابقة مـا بـين الآخـرة الآجلة. والدنيا العاجلة. الادخار. والاستهلاك. وليس هنـاك قوة تحجر على الإنسان أو على حق خياراته.

﴿ ومن يرد ثَواب الدنْيا نُؤْتِهِ مِنْها ومـن يـرد ثـواب الآخِرةِ نُؤْتِهِ مِنْها وسنَجزِي الشاكِرِين (١٤٥ آل عمران)

﴿ من كَان يرِيد الْعاجِلَةَ عجلْنَا له فِيها ما نَشَـاء لِمن نرِيد ثُم جعلْنَا لـه جهـنم يصـلاَها مـذْموما

مدحورا* ومن أراد الآخِرةَ وسعى لها سعيها وهو مؤمِن فأولئِك كان سعيهم مشكورا* كلا نمِد هؤلاءِ وهؤلاءِ مِن عطاءِ ربك وما كان عطاء ربك محظورا﴾ (الإسراء من ١٨ – ٢٠)

﴿ من كان يرِيد حرثَ الآخِرةِ نزِد له فِي حرثِهِ ومن كان يرِيد حرثَ الدنيا نؤتِهِ مِنها وما له فِي الآخِرةِ مِن نصِيبٍ﴾ (٢٠ الشورى)

وهذا تصوير منصف للحياة الدنيا لا يصدر إلا عن الإسلام في تحريه الحقيقة الكاملة، وهو يتفق مع تصوره للإنسان، كما يتفق أيضا مع ما سيورده من سنن المجتمع البشري.

فالمجتمع البشري كالفرد، وكالحياة، يمكن أن يكون مجتمعا صالحا، متماسكًا، إذا التزم بما وضعه ا من توجيهات.

﴿ الذِين إِن مكناهم فِي الأرضِ أقاموا الصلاةَ وآتَوا الزكاةَ وأمروا بِالمعروفِ ونَهوا عن المنكَرِ و عاقِبةُ الأمورِ﴾ (٤١ الحج)

﴿ فَهلْ عسيتُم إِن تَوليتُم أَن تُفْسِدوا فِي الأَرضِ وتُقَطعوا أَرحامكُم ﴾ (٢٢ محمد)

ويمكن لهذا المجتمع أن يسقط ويتحال إذا سمح للمترفين بأن يحكموه، ولا بد أن يكون حكم هـؤلاء المترفين نوعا من الفسق أي الخروج عن الأصول. وعندئذ يحق عليها القول ﴿ وإِذَا أَردنَا أَن نهلِك قَريةً أَمرنَا مترفِيها فَفَسقُوا فِيهـا فَحـق علَيهـا الْقَـولُ فَدمرنَاها تَدمِيرا﴾

ولئن كانت المسئولية الأولى في هلاك هـذا المجتمـع تعود إلى الأمراء المترفين، فإن جزءا من المسئولية يقع على الجماهير، لأنهم سلموا للأمراء، وأطاعوهم، ولم يعارضوهم بمختلف الوسائل.

﴿ وما لَكُم لاَ تُقَاتِلُون فِي سبِيلِ ا ـِ والْمستَضعفِين مِـن الرجالِ والنساءِ والْوِلْدانِ الَذِين يقُولُون ربنَا أَخْرِجنَا مِن هـذِهِ الْقَريةِ الظالِمِ أَهلُها ﴾ (٧٥ النساء)

﴿ قَالُوا كُنا مستَضعفِين فِي الأَرضِ قَالُوا أَلَم تَكُن أَرض ا ـِ واسِعةً فَتُهاجِروا فِيها﴾ (٩٧ النساء)

وصور القرآن الكريم حوار الجماهير والقادة.. الأتبـاع والمتبوعين...

﴿ وبرزوا ـ جمِيعا فَقَالَ الضعفَاء ِللذِين استَكْبروا إِنـا كُنا لَكُم تَبعا فَهلْ َأنْتُم مغْنُون عنا مِن عذَابِ ا ـ مِـن شَـيءٍ قَالُوا لَو هدانَا ا ُ لَهدينَاكُم سواء علَينَا َأجزِعنَا َأم صبرنَا مـا لَنَا مِن محِيصٍ﴾ (٢١ إبراهيم)

﴿ وإِذْ يتَحاجون فِي النارِ فَيقُولُ الضعفَاء ِللـذِين استَكْبروا إِنا كُنا لَكُم تَبعا فَهلْ َأنْتُم مغْنُون عنا نَصِيبا من النارِ* قَالَ الذِين استَكْبروا إِنا كُل فِيها إِن ا َ قَد حكَم بين الْعِبادِ ﴾ (٤٧ – ٤٨ غافر)

أما السنن التي وضعها ا تعالى لهذا الكـون.. لكـي يسير سيرا محكما ومنظما... ولكي تؤدي دورها وتتماسـك مع غيرها فإنها ذات أهمية خاصة في كتاب عـن عقلانيـة الإسلام، لأنها بلغت الغاية من الإحكام الذي جعل كثيرا مـن كبار علماء الطبيعة يقفون ذاهلين أمامها، ودفعـت بعضـهم لاعتناق الإسلام، فالقرآن يتكلم عن الحركة المستمرة الدائمة

"السباحة" التي تعم هذا الكون الذي يبدو جامدا دائما. وكـل شيء يسبح ويسبح ﴿ كل في فلك يسبحون﴾.

﴿ وآيةٌ لهم الليلُ نَسلَخُ مِنْه النهـار فَـإِذَا هـم مظْلِمون* والشمس تَجري ِلمستَقَر لها ذَلِك تَقْـدِير الْعزِيزِ الْعلِيمِ* والْقَمر قَـدرنَاه منَـازِلَ حتـى عـاد كَالعرجون الْقَدِيمِ* لاَ الشمس ينبغِي لَهـا أَن تُـدرِك القَمر ولاَ الليلُ سابِقُ النهارِ وكُلٌ فِي فَلَكٍ يسبحون ﴾ (٣٧ – ٤٠ يس)

فإذا قارنا هذه الآيات بما تضـمنته الديانـة المصـرية القديمة أو الميثولوجيا اليونانية وضح الفرق بين عرض يقوم على الخرافة والتصورات الساذجة وعرض آخر موضوعي يستبعد الخرافة ويقوم على العقل. وهذه هي أهمية "السـنن" التي عرضها القرآن إنها لا تتحدث بلغة العلم الاصطلاحي.. ولكنها تهيئ المناخ له باستبعادها الخرافة من ناحية وقيامهـا على أصول تتفق مع العلم حتى وإن لم تسـتخدم الأسـاليب العلمية الإصلاحية فإنها تصب في مجرى العقلانية.

***

ولقد كان مما داعب الفكر الإسلامي حينًا ما فكـرة أن ا تعالى وهو خالق هذا الكون، يستطيع بلا شك أن يفعـل ما يشاء دون معقب، فيمكن أن يجعل النهـار لـيلاً والليـل نهارا، ويمكن أن يجعل الشمس تشرق من الغرب وتغـرب من الشرق – إلخ.. فظن البعض أن التركيز على السنن فيه نوع من الانتقاص من القـدرة الإلهيـة. وأن هـذه السـنن لا تؤدي عملها بحكم آليتها. فالنار لا تحرق والسكين لا تقطع إلا بإرادة ا ، وإننا إنما نقول تحرق وتقطع مجازا. ولهم في هذا عجائب وأفانين فأوقعوا الفكر الإسلامي في مأزق كـان لهم عنه غنى، لولا التفيهق والتنطع وإيراد الأغاليط، أو لولا التأثر برواسب الديانات السابقة التي تبرز الإله كما لو كـان إنسانًا فيه كل نزق الإنسان وإرادته وشهواته مع القوة التـي تمكنه أن يفعل ما يشاء. إن الإسلام لا يبرز ا تعـالى فـي هذا الشكل، بل هو يبعد عنه كل صور التجسيم ويراها وثنية. وفي الوقت نفسه يوضح لنا أنه خلق هذا الكون طبقًا لنواميس منحها صفة الثبات، والحق والموضوعية. مما أشرنا إليـه، مما يستبعد أقل إثارة للعشوائية أو الهوائية، وإن هذا لا يمس قدرته الكاملة والمطلقة، بل هو الأليق بها. وقد أورد القـرآن

العديد من الآيات التي تقرر هذا المعنى كما أشرنا إليه آنفًـا، وقد يورد تعبيرا مثل "كتب على نفسه" ﴿ كَتَب علَـى نَفْسِـهِ الرحمةَ لَيجمعنكُم إِلَى يومِ الْقِيامةِ لاَ ريب فِيهِ ﴾ (١٢ الأنعام)

﴿ سلاَم علَيكُم كَتَب ربكُـم علَـى نَفْسِـهِ الرحمـةَ﴾ ، أو يحيل التغيير إلى إرداة الناس بحيث يتجاوب التغير مـع أعمالهم، وكأنه يفوض ذلك إلـى النـاس أنفسـهم، وإلـى ما وضعه ا من السنن دون أن يشير إلى إرادته الخاصـة، وإن كانت في النهاية هي الحاكمة على كل شيء.

﴿ إِن ا َ لاَ يغَير ما بِقَومٍ حتى يغَيروا مـا بِأَنْفُسِـهِم ﴾ (١١ الرعد)

﴿ ذَلِك بِأَن ا َ لَم يك مغَيرا نعمةً أَنْعمها علَى قَومٍ حتى يغَيروا ما بِأَنْفُسِهِم ﴾ (٥٣ الأنفال)

﴿ ولَو شِئْنَا لَرفَعنَاه بِها ولَكِنه أَخْلَد إِلَى الأَرضِ﴾ (١٧٦ الأعراف)

﴿ فَأَما من أَعطَى واتقَى* وصـدقَ بِالْحسـنَى* فَسنُيسره لِلْيسرى* وأَما من بخِلَ واستَغْنَى* وكَذَب بِالْحسنَى* فَسنُيسره لِلْعسرى ﴾ (٥ – ١٠ الليل)

أو يربط إرادته تعالى بالأجل المحدد ﴿ ولَن يـؤَخر ا ُ نَفْسا إِذَا جاء أَجلُها﴾.

وفي الحديث القدسي أن ا تعالى قال لشهيد (عبـد ا بن عمرو بن حزام) شهيد أحد: "يا عبدي تمن علي أعطـك" قال: "يا رب تحييني.. فأقتل فيك ثانية"، قال: "إنه سبق منـي القول: إنهم إليها لا يرجعون" قال: يا رب فأبلغ من ورائـي، فأنزل ا عز وجل هذه الآية ﴿ ولاَ تَحسبن الَّذِين قُتِلُوا فِـي سبِيلِ ا ِ أَمواتًا﴾، وكذلك ما جاء في حديث قدسي آخر: "يـا عبدي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما".. إلــخ. ومــن ذلــك أيضــا قولــه ﷺ "إن ا لا ينــام، ولا ينبغي له أن ينام". لأن تعبير "لا ينبغي له" قد يبدو مجافيا لما يليق بمقام الألوهية، ولكن الرسول يقيس بعقل ومنطـق البشر أمرا من أموره تعالى، لأنه ليس من معيار آخر يمكن للإنسان أن يعبر به. والرسول في هذا – ينسج على منـوال

الآيات التي جاءت في القرآن مصدرة بتعبير "وما كـان ا " مثل ﴿ وما كان ا ُ لِيضِيع إِيمانَكُم إِن ا َ بِالنـاسِ لَـ رءوفٌ رحِيم﴾ (١٤٣ البقرة).

﴿ وما كان ا ُ لِيعذبهم وأَنتَ فِيهم وما كان ا ُ معـذبهم وهم يستَغْفِرون﴾ (٣٣ الأنفال)

﴿فَما كان ا ُ لِيظْلِمهم ولَكِن كانُوا أَنْفُسهم يظْلِمون﴾ (٩ الروم)

فقد أوجب ا تعالى علـى نفسـه هـذا اتسـاقا مـع ما وضعه من أسس وسنن ومبادئ".

فهذه كلمات أرادات إلهية أرادها ا ليحقق مشيئته فـي وضع الأمور في هذه الدنيا على نسق منتظم، ومبادئ مقدرة ثابتة ﴿ ليهلِك من هلَك عن بينَةٍ ويحيى من حي عن بينَـةٍ﴾ (٤٢ الأنفال)

ويمكن للناس أن يقيموا تصرفاتهم وأعمالهم على أسس، وليمكن ثوابهم وعقابهم.

***

وهكذا نرى أن الأصل الثاني للعقلانية الإسلامية هو الحرص على الموضوعية وملاحظتها. وأن هذا يكون بالالتزام بالحق والابتعاد عن كل المؤثرات الذاتية وعدم الاعتداد بها حتى لو كانت تمس الأقرباء أو الأعداء فمحبة القريب وعداوة الغريب يجب ألا تحيف على الحقيقة.

والموضوعية الإسلامية تستقر على الحق الذي يمثل أعلى ما يمكن تصوره من موضوعية لأنه ليس فحسب منزل من ا ، بل هو يرمز إلى ا نفسه. إذ الحق من أسمائه تعالى، وطبيعي أن يكون التلاعب في مثل هذه الموضوعية أو الانتقاص من موضوعيتها، أقل مما هو بالنسبة لموضوعية أخرى يضعها الإنسان نفسه أو القوانين التي يخطها وينفسح فيها المجال للتلاعب تبعا للأغراض أو القصور البشري.

كما يؤكد القرآن أن هناك "سننًا" وضعها ا لتطور المجتمع بمثابة القوانين التي تحكم تطوره وأن هذه القوانين ثابتة وعلى الفكر الإنساني أن يحترمها ويستثمرها دون أن يحاول تغييرها أو القضاء عليها.

ولا يتنافى مع هذا أن يكون   تعالى قدرة وإرادة أبعـد مما يمكن أن نفهمه، وأعظم من أن نحكم عليـه، لأن كـل منطقنا وعقلنا محكوم بقوانين الكوكب الأرضي. وكما ذكرنا فإن الأرض ليست إلا كوكبا صغيرا في المنظومة الشمسية، التي هي بدورها منظومة بجانب ألوف أو ملايين المنظومات الأخرى. ولم يرفض هكسلي، وهو رائد العقلانيـة، والعـدو اللدود للكنيسة أن يوجد عالم لا تنطبق عليه القـوانين التـي تسري على الأرض وقال.

... وإن كنا على بينة تامة من اطراد النظام الطبيعـي، واسـتمرارية الوضـع الـراهن للأمـور، فـإن هـذا لا يستتبع بالضرورة أن نجعل هذا تعميمـا لا نهائيـا أو أن ننكر على وجه الإطلاق أن يأتي وقت لا تتبع فيه الطبيعـة النظام الموضوع، وتكون العلاقة ما بين السبب والأثر علـى غير النحو المحدد، وتتدخل عوامل أعلى من الطبيعـة فـي السير العام لها. إن الحذر يحمل البعض لأن يروا أن عالمـا يختلف عن عالمنا يمكن أن يوجد. ويمكن ألا يكون فيه ناتج

جمع ٢ + ٢ هو أربعة، ويمكـن أن يتلاقـى فيـه خطـان مستقيمان[٢٤].

ولم يستطع أينشتين أن يستوعب ما أثبتتـه رياضـات الكوانتم، ونتائج هيزنبرج من الخروج عن مبادئ الانضـباط الدقيق بقوانين عالم الذرات، وما يعنيه هذا من تسلل عنصر من الخلل في آليات النظام الطبيعي، رغم أنه هو نفسه كـان الذي وجه ضربة قاتلة لفكرة "ميكانيكية" النظام الطبيعي التي جاء بها "نيوتن"، ولكن عدم استيعابه أو عدم ترحيبه بنتـائج الكوانتم وهيزنبرج جاء لأنه يؤمن على حد تعبيـره "أن ا لا يقامر بالنرد" كما جاء في رسالته إلـى بـورن بتـاريخ ديسمبر سنة ١٩٢٦، وبالطبع فإن ا تعالى لا يقامر بـالنرد وقد وضع أسس النظام الطبيعي الراسخ الثابت الـذي تمنـاه أينشتين، ولكن إيمان أينشتين با هو إيمان عـالم الطبيعـة، ويكاد يكون "بللورة" الطبيعة في شكل الإله، أو الإلـه فـي الطبيعة – فهما واحد.. ومن ثم يكون كل خروج على آليات الطبيعة "مقامرة بالنرد" ولكنه لو آمن با كما يقدمه الإسلام،

---

(٢٤) Huxley : Essays. Vol IV pp. ٤٩.

لما رأى في الأمر "مقامرة بالنرد" ولكن إشارة من ا تعالى ليرينا طرفًا من قدرة أعلى مما نتصور على سبيل الاستثناء، وبغرض التذكر حتى لا يظن الناس أن المبادئ والسنن التي وضعها هو نفسه لتنظيم سر هذا الكون هي – وحـدها دون أن تكون وراءها إرادة ا – التي تقوم بذلك ولهـذا تظهـر المعجزات قديما.. أو يظهر في صميم عالم الرياضـة ممـا يجعل علماءها مبلسين. إن السـماوات والأرض مطويـات بيمينه، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة فلا يمكن أن نقيد إرادة ا تعالى بمنطق بشرى، وقد وضع للكون ولـلأرض وللمجتمع الإنساني سننًا وأوضاعا تسير عليها، ولكن يظـل الأمر من قبل، ومن بعد، رب العالمين.

الفصل السادس

المقوم الثالث: الخيرية والصلاح

تختلف العقلانية الإسلامية عن العقلانية التي تنبثق عن الحضارة الأوربية في جانب هام، هو أن العقلانية الإسلامية ملتزمة وليست طليقة، فهي تتوخى الخير والصلاح، وهي تربط ما بين التوصل إلى المعرفة، وحسن استخدام هذه المعرفة، فالإنسان القرآني لا يقدح زناد فكره، ولا يعمل ذهنه بنية سيئة أو لهدف ضار أو لكسب يستتبع أذى وضررا للآخرين.

والعقلانية الإسلامية تعنى بالنية التي لا تحفل بها عقلانية المجتمع الأوربي، وبوحدة الوسيلة والغاية، وهي ترفض تماما المبدأ الذي يبدو عقلانيا، أو على الأقل يقوم على تبرير منطقي، وهو "الغاية تبرر الوسيلة".

وهذا طبيعي ليس فحسب بالنسبة للإسلام، ولكن أيضا بالنسبة لكل الأديان والكتب السماوية التي نجت من التحريف، لأن الأديان كلها رسالات هداية وإنقاذ للبشرية من الضلال الذي يؤدي إليه اتباع الهوى والخضوع للإغراء..

إغراء الثروة وإغراء الشهوة وإغراء السلطة، فلا يتصور أن تتضمن مسالكها للتوصل إلى الحقيقة سبلاً تؤدي إلى نقـيض ما جاءت من أجله.

قد يقال إن هذا يمكن أن يكون قيدا على الفكر الـذي لا يزدهر إلا في بيئة حرة تماما..، ولكن هذا ليس إلا خلطًا بين ما ينشده الإسلام، وما يهدي الناس إليه.. وبين الحرية التـي يسمح بها في مجال الفكر، فالإسلام لا يضع قيدا من أي نوع على الفكر، وهو يدع كل الأفكار تنطلق، لأن الفكر هو سبيل الإيمان فلا يمكن أن نسده، ولأن الفكر هو معيار الـدعوات فلا يمكن أن نجعلها معياره. وهو الذي يوضح الحـق مـن الباطل. ويثبت أحقية الحق وبطلان الباطل. ومن هنـا فـإن الإسلام لا يضع قيدا عليه، وهو يتعامل مع الفكـر بـالفكر نفسه. فيدع الفكر السليم يفند الفكر السـقيم، ويضـع الحـق ليذهب بالباطل، وهذا هو مسلك القرآن الكريم مـع دعـاوى المشركين، فإنه يوردها، رغم أنها كفر مطلق ومساس بـا تعالى، ثم لا يعنى بتسفيه أحلامهـم، أو بتوقيـع العقوبـات عليهم، ولكنه يضع الحجة في مواجهة الحجة، والـدليل فـي مواجهة الدليل.

ولكن الأمر إذا خرج من نطاق الفكر إلى نطاق العمل، فهنا يمكن للقانون ولوازع السلطان أن يتدخل، وهـذا أمـر طبيعي، فالفكر. والعمل يجابه بالعمل. وإذا لم تتدخل السلطة لأدى ذلك إلى وقوع ضرر لا يمكن إصلاحه ثم استشراء هذا الضرر مع عدم التدخل لدرئه.

والفكر ينتهي بنا إلى الوسائل التي يمكن أن تقوم عليها الصناعة أو الفنون. وهذا الفكر يكون حرا. ولكن عندما يراد تطبيق الوسيلة التي انتهى إليها الفكر لإقامة صناعة خمور أو مخدرات أو استخدام تكنولوجيا الألوان في عـرض صـور للحض على الفحشاء أو إشاعة القسوة والجريمة والانحراف أو تمجيد الديكتاتورية والاستعلاء والاستغلال. فيجب بالطبع أن يتدخل المجتمع.

ومرة أخرى فإن الإسلام ليس وحيدا في هـذا المسـلك فحتى أشد الدول تحررا تجد نفسها مضطرة للتدخل لوضـع الضوابط عندما تدفع الأهواء أو المكاسب الحرية بعيدا بحيث تهدد سلامة المجتمع وتهز الأسس التي يقوم عليها – فالفرق في الدرجة.. وليس في النوع.

والفرق الأعظم في هـذا الصـدد مـا بـين الإسـلام وما بين المجتمعات العقلانية الأوربية أن الإسلام في توجيهه وسياسته يعتمد على وازع القرآن أكثر مما يعتمد على وازع السلطان. وأنه يوجد "القلب السليم" الذي ينأى بطبعـه عـن الشر.. وأنه يربط المجتمع برباط من التكافل والأخوة، بحيث يكون الانحراف شذوذًا أو استثناءا.. وإن كان في المجتمـع الأوربي – بدرجات متفاوتة، قاعدة ودأبا.

وقد عجزت العقلانية الأوربية عـن أن تلـزم العقـل الوقوف عند الخير، وعدم تجاوزه للشـر، لأن الحضـارة الأوربية حضارة وثنية طليقة جعلت إلهها الإنسان، وهـدفها الاستمتاع ووسيلتها الحرية، فلم تستطع بحكم هذه الطبيعة أن تخضع لقوة أعظم من الإنسان الإله.. ومن ناحيـة أخـرى فلا حد لطلعة الفكر البشري وفهمه للمعرفة. وبحق قال الأثر إن طالب العلم كطالب المال، منهوم لا يشبع ولا يقف عنـد حد. وقد بدأت مخايل العالم الأسطوري الذي يمكن للمعرفـة أن تنتهي إليه. فيما انتقل إلينا من الأساطير اليونانية ولكـن العلم الحديث هو الذي كشف تلك العوالم التي استشفها الفكر اليوناني، وبفضل هـذه الطلعـة، ظهـرت الآلات والقـوى

المحركة ووسائل الانتقال، وتحقق للإنسان أن يطير كالطير، ثم ظهر التليفزيون والكمبيوتر.. إلخ.

وكانت هذه في مجملها مجالات خير، وتقدم للبشرية، ولكنها في حالات أخرى جاوزت حدود الخير إلى الشر أو وقفت عند أبوابه...

وفي إحدى الروايات السينمائية في الخمسينات عن "القارة المفقودة" "أطلانتس" صور الفنان الأوربي المدى الذي وصلت إليه المعرفة فيها عندما جعلت حكيمها يمسخ الأسرى إلى وحوش! فيجعل من واحد خنزيرا ويجعل من آخر ذئبا ومن ثالث نمرا ومن رابع حمارا... ولم يتصور الفنان الأوربي وجود حاجز أخلاقي يحول دون هذا الفعل. ومع أن هذه المقدرة لحسن الحظ لم تتحقق حتى الآن، إلا أن تقدم العلوم إلى بعض أسرار الوراثة وشفرتها مكنه من أن يعربد ويعبث في هذا الهيكل المقدس، وهو لم يدخل حتى الآن علنًا جسم الإنسان، ولكنه يجري تجاربه على الحيوان، وقد يمكنه أن يوجد حيوانات بخمسة أرجل أو ثلاثة عيون.. أو يمكنه مضاعفة قوة حيوان أو تعقيمه أو العبث ما شاء الهوى بخصائصه وملكاته..

ونحن لا نعلم على وجه التحقيق ما إذا كانت مثل هذه التجارب قد أجريت على آدميين، ولكن من المعروف أن الأطباء والعلماء مارسوا خلال الحرب العالمية الثانية وسواء في ذلك أطباء الحلفاء أو المحور تجارب على الأسرى أو المحكوم عليهم بالموت. وقد يمكن القول إنها وصلت إلى آخر المدى بحكم العداوات التي تحكمت في الفريقين المتحاربين وقتئذ وإن الذين أجريت عليهم التجارب كان مقضيا عليهم بالموت على أي حال.

إن عالما يمكن فيه للنزق الإنساني أن يتحكم في الطبيعة البشرية والقلب البشري، والجسم الإنساني.. ويجعل كل هذه المقدسات في خدمة الهوى والأغراض لهو العالم الذي يمر فيه الحي بالميت في قبره.. فيقول يا ليتني كنت مكانك...

ويماثل هذا ما يقال عند قنابل ميكروبات تعيد مرة أخرى عهد الكوليرا أو الجدري وبقية الأوبئة التي كانت لعنة العالم القديم وتخلصت منها البشرية بفضل العلم الحديث، ولكن العلم الحديث نفسه، يعود مرة أخرى، فيعيدها وينشرها.

ومع بداية القرن بدأ علم النفس يـتلمس طريقـه إلـى أعماق النفس، وفي أغوار "اللاشعور" وقدم "فرويد" تحليلات وآراء لا تخلو من وجاهه، ولكنه كبقية أصحاب النظريـات يمضي بأفكاره إلى ما يجاوز الاعتدال وأفسحت علوم النفس المجال للعالم الروسي "بافلوف" ليصل إلى صورة من تكييف طبع الحيوان، واستطاع زبانيـة سـتالين الاسـتعانة بهـذه الأبحاث لإفساد النفس البشرية والتأثير على معنويات الإنسان بحيث جعلوا من أبطال الثورة الشـيوعية، ورفـاق لينـين يعترفون على أنفسهم أنهم جواسيس في محاكمات موسـكو الشهيرة سنة ١٩٣٦ ، والتي صورها بقلم الفنـان الروائـي المجري الشيوعي المرتد "آرثر كوستلر" في روايته "ظـلام في الظهيرة" وكان هذا مفتاحا تلقفه النازي، ثم تناوله صلاح نصر وأمثاله، وبهذا عادوا بالبشرية إلى إحـدى الوصـمات التي ظُن أن البشرية (أو على الأقـل المجتمـع الأوربـي) تخلص منها مع بداية القرن، وهي وصـمة التعـذيب، مـع إضافة هي استخدام العلم والمعرفة بأعماق الـنفس البشـرية والجسم البشري لزيادة التعذيب والوصول بالألم إلى أقصـى حالاته، أو إذلال النفس بحيث تفقد آدميتها وإنسانيتها، وقـد

حدث هذا بالفعل في هذا البلد عندما نكبت بصـلاح نصـر وأمثاله من مسوخ البشر والكتب العديدة التي صدرت عـن التعذيب في السجن الحربي والتي كان ضـحيتها الإخـوان المسلمين والشيوعيين على السواء أكدت هذا المعنـى علـى اختلاف مؤلفيها..

وما دمنا بصدد استعمال العلم لخدمة الخسة والنذالة فلا بأس من الإشارة إلى استخدامه لإشاعة الفحشاء عن طريـق الأفلام الجنسية التي توجد في كـل المجتمعـات الأوربيـة والأمريكية، وتتفاوت هذه الأفلام بحيث يصبح أشدها عهـرا ما يؤشر عليها بثلاثة علامات من علامة الضـرب (×××) ممارسات جنسية متصلة. والغريب أن هـذا نفسـه يزهـد المشاهدين فيها، فإنها مجردة تماما من أقل إثارة فنية، وإنما هي ممارسات حيوانية تثير بعد فترة "القرف" والاشـمئزاز، ولهذا فقلما يغشاها إلا أفراد معدودون على الأصابع معظمهم من كبار السن، ولا يقاس روادها برواد السينما العادية. وقد حد هذا بالطبع من أثرها السيئ. ولكن يحتمـل أن تتطـور الأمور، وأن يضفي المخرجون لهذه الأفـلام طابعـا مـن

الرومانتيكية على أفلامهم بحيث تجذب أعدادا أكبـر دون أن تتخلى عن طابعها الجنسي.

وإذا كانت أفلام الجنس لا تزال محدودة الأثر في الدول الأوربية، وغير مسموح بها في بقية دول العالم، فإن القسوة تكاد تكون طابعا دائما لمعظم أفلام العالم. فالضرب والركل والصفع وإطلاق النار، ومختلف صور العدوان هـي نسـيج الفيلم الأمريكـي ولا مكـان فيـه لشـيء اسـمه "الحلـم" أو "التغاضي" أو "التسامي" أو "العفو"، ولا جدال في أن هـذا يغرس في نفوس المشاهدين الذين يمكن أن يكونوا أطفـالاً. الطبيعة العدوانية والجرأة علـى المقدسـات والكرامـات.. وسيادة حكم الباع والذراع واستخدام الأسلحة النارية.

وما يقال على السينما يقال على الصحافة التـي كـان يمكن أن تكون مدرسة الشعب ونافذته الحرة المفتوحة علـى الثقافة. إن انعدام عنصر "الخيرية" فتح الباب على مصراعيه لنوازع الربح، أو الشـهرة أو السـبق فظهـرت الصـحافة الصفراء، وصحافة الجنس؛ وصـحافة الابتـزاز وصـحافة الاستثارة وحازت على أكبر نسبة في التوزيع وأعلى عـدد من القراء. وقد يصور اتجاه وسياسة هذه الصحافة ما نشرته

جريدة أخبار اليوم القاهرة يـوم ٨٧/٩/٢٦ عـن "ملكـات الفضائح الأمريكية لعام ٨٧" وقدمت ثلاث عشيقات "انهالـت العروض علـيهن مـن السـينما والتليفزيـون والناشـرين والصحف" الأولى هي فاون هول سكرتيرة وعشيقة الكولونيل أوليفر نورث بطل فضيحة "إيران جيت". التي عرض عليها ٥٠٠ ألف دولار لكتابة قصة علاقتها بنورت بالإضافة إلـى ٥٠٠ ألف أخرى لقاء نشر صورة عارية لها! والثانية هـي دونا رايس عشيقة السـناتور جـاري هـارت التـي أودت فضيحتها معه بمستقبله السياسي وعرض عليها المبلغ نفسـه لقاء نشر قصتها وصوره عارية لها! والثانية جيسـكا هـان عشيقة القس الدعي جيم باركر الذي جمع ثروة طائلة بدجله، وطالما ندد بالإسلام والمسلمين، حتـى افتضـحت علاقتـه بعشيقته – فجرد من رتبته الكنسية وقبلت عشيقته أن تـروي قصتها معه، وأن تصور عارية لقاء مائة ألف دولار.

فهذا الحرص على إشاعة الفحشاء وإشباع الفضول في أسوأ أشكاله بالكلمة والصورة.. يدل على جريرة الصـحافة ومدى ما يمكن أن تنتهي إليه عندما تتجـرد مـن عنصـر "الخيرية".

وأخيرا فإن انطلاقة العقلانية الأوربية التي لا تحـد ولا تجد ضابطًا أو هاديا. عاثت فسادا في الكـون نفسـه، فـي الأرض والسماء.. البحـار والأنهـار والأشـجار. بحيـث أصبحت الكرة الأرضية كوكبا موبـوءا، سـممت أرضـه وأنهاره وبحاره، ثم تصاعد الإفساد حتى جاوز طبقات الجو وأفسـدت طبقـة الأوزون، فأصـبحت الأرض معرضـة لإشعاعات خطرة..

لقد ثبت بما لا يقبل شكًا، وما نشاهده بعيوننا كل يوم أن انطلاقة العقل البشري في مجالات النفس البشـرية والجسـم البشري، وفي مجالات الموارد الطبيعية، وإضـرام العنـان لأحط نزعتين في الإنسان: القسوة والشهوة.. كل هذا أصبح يهدد المجتمع الإنساني، بل وكوكب الأرض نفسها وما عليها من أحياء وما يحيط بها من أجواء.. بالفساد والتدهور ومـا أصبح المشكلة المستعصية للحضارة الأوربية.

ومما لا يكاد يصدق أن تنفق الدول الكبرى على وسائل الحرب والخـراب وإشـاعة التعاسـة والشـقاء أضـعاف ما تنفقه على وسائل السلام والبناء وإشاعة السعادة والهنـاء، وأن تدمر الطيبات من الرزق، فتقـذف بهـا إلـى البحـر،

أو تطعمها الحيوانات، بينما يموت الملايين في آسيا وأفريقيا جوعا.

إن من المستحيل تبرير مثل هذه الحماقات في عالم عقلاني إلا بسيطرة الشر وسلطان الظلام. ولو تحلت العقلانية الأوربية بضوابط الإسلام وهداياته أو توخت الخيرية كما توختها العقلانية الإسلامية، لتغيرت صورة العالم، ولأصبح عالما سعيدا يعمه الرخاء، لأن كل ما ينفق على التخريب والتدمير، وإشاعة القبح والدمامة والفجر والشهوات سينفق على البناء وإشاعة الخير والسلام والجمال..

إن الفصل ما بين السياسة والدين الذي دعا إليه نيقولا ميكافيللي في القرن الخامس عشر ثم الفصل ما بين الاقتصاد والدين الذي دعا إليه آدم سميث في القرن السابع عشر، ومن خلاف هذين المفكرين من مفكرين عمقوا هذه المفاهيم أدى في النهاية إلى اعتبار الخير أو الطيبة في مجالي السياسة والاقتصاد نوعا من السذاجة أو الغفلة، أو البلاهة – واعتبرت "العاطفية" في دوائر الفكر الشيوعي سبة وضعفًا يستبعد صاحبها من القيادة، وأصبحت كلمة

"يوتوبيا" التي أريد بها التوصل إلى دولة مثلى ترادف الخيال العقيم. ووضعها ماركس في مواجهة "الاشـتراكية العلميـة" التي وإن أسهمت في تقدم الفكر السياسي، إلا أنهـا جـرت الويلات، وأدت إلى ظهور الحكم المطلق في روسيا ثم ألمانيا وإيطاليا وفي النهاية أوقعت بالبشرية أكبـر مجـزرة فـي التاريخ، أي الحرب العالمية الثانية، وأخيرا أعلنت إفلاسها.

إن هذا كله قد لا يكون من العقلانية بالضـرورة، وأي عقلانية تستبعد الطيبة والخير من ضوابطها لا بد أن تلقـي بأيديها إلى التهلكة، وأن تضع نفسها تحت رحمـة سـلطان الظلام، ولن تهنأ بما تحققه من فتوح وإنجازات في المجالات الأخرى.

الصلاح.. والبعد عن الفساد:

يوضح تقصي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مـدى الأهميـة التـي تعلقانهـا علـى تـوفر عنصـر "الخيـر" و "الصلاح" و "الصالحات" و "الطيبات" في كل ما يصدر عن الإنسان من أعمال أو ما تتسم به السياسات والخطط والنظم. وفي حقيقة الحال فإن الإسلام يقرن ما بين الإيمان والعمـل الصالح ويعتبرهما وجهان لعملة واحدة. فـلا يـذكر الـذين

آمنوا، وما أكثر ما ترد في القرآن، إلا ويورد معها "وعملوا الصالحات". فالعمل الصالح ثمرة للإيمان، ومن ثم لا بد وأن يكون "صالحا" طيبا "طاهرا".. وفي الوقت نفسه فـإن هـذا العمل نفسه هو مصداق للإيمان ودليل على حريـة إيمـان المؤمن.. وهذه العلاقة تكفـي وحـدها لجعـل "الخيريـة" والصلاحية أحد مقومات العقلانية الإسلامية بصـفة عامـة ومطلقة.

وتعد كلمة الصلاح ومشتقاتها من الكلمات القرآنية وقـد وردت بمعنى الإصلاح والصـلح والصـالحات والمصـلح والمصلحين، وهي في أصلها اللغوي تعني الكفايـة واللياقـة والصحة.. وجاء القرآن فأضفى عليها طابع الخيرية.. ويقابل ذلك كلمة الفساد ومشتقاتها.

ولا يتسع المجال لإيراد نصوص القرآن عن ذلك لأنها بضع مئات – وقد ذكرت الصالحات ٦٢ مرة، بينما ذكـرت الصلاة ٦٧ مرة، والصالحات ليست إلا إحدى مشتقات مـادة الصلاحية والصلاح.

ولكن قد يوضح مقصد القرآن وفكرته عن هذا المقـوم من مقومات منهجيته إشارات مثل ﴿ إن أريد إلا الإصـلاح

ما استطعت ﴾ أو ﴿ اخلفني فـي قـومي ولا تتبـع سـبيل المفسدين﴾ ، ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون منها بغير حساب﴾ ﴿ليخـرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمـات إلـى النـور﴾ ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنـوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ﴾..

وكذلك:

﴿ ومِن الناس من يعجِبك قَولُه فِي الْحياةِ الـدنْيا ويشْهد ا َ على ما فِي قَلْبِهِ وهو أَلَد الْخِصامِ* وإِذَا تَولى سعى فِي الأَرضِ لِيفْسِد فِيها ويهلِـك الْحـرثَ والنسلَ وا ُ لاَ يحِب الْفَساد* وإِذَا قِيلَ له اتـق ا َ أَخَذَتْه الْعِزةُ بِالإِثْمِ فَحسبه جهـنم ولَبِـئْس الْمِهـاد﴾ (٢٠٤ – ٢٠٦ البقرة)

﴿ إِذْ قَالَ له قَومـه لاَ تَفْـرح إِن ا َ لاَ يحِـب الْفَرِحِين* وابتَغِ فِيما آتَاك ا ُ الدار الآخِرةَ ولاَ تَنس نَصِيبك مِن الدنْيا وأَحسِن كَما أَحسـن ا ُ إِلَيـك ولاَ

تَبغِ الْفَساد فِي الأَرضِ إِن ا َ لاَ يحِب الْمفْسِـدِين ﴾ (٧٦ – ٧٧ القصص)

وقد يتحدث القـرآن عـن الخيـر مرادفًـا للصـالح والصالحات.

﴿ ولِكُلٍ وِجهةٌ هو موليها فَاستَبِقُوا الْخَيراتِ َأينَما تَكُونُوا يأْتِ بِكُم ا ُ جمِيعا إِن ا َ علَى كُـلِ شَـيءٍ قَـدِير﴾ (١٤٨ البقرة)

﴿ يؤْمِنُون بِا ِ والْيومِ الآَخِـرِ ويـأْمرون بِـالْمعروفِ وينْهون عنِ الْمنْكَرِ ويسارِعون فِي الْخَيراتِ وُأولَئِـك مِـن الصالِحِين﴾ (١١٤ آل عمران)

﴿ ولْتَكُن منْكُم ُأمـةٌ يـدعون إِلَـى الْخَيـرِ ويـأْمرون بِالْمعروفِ وينْهون عنِ الْمنْكَرِ وُأولَئِك هم الْمفْلِحون﴾ (١٠٤ آل عمران)

﴿ وجعلْنَاهم َأئِمةً يهدون بِأَمرِنَا وَأوحينَـا إِلَـيهِم فِعـلَ الْخَيراتِ وإِقَام الصلاَةِ وإِيتَاء الزكَاةِ وكَانُوا لَنَا عابِدِين﴾ (٧٣ الأنبياء)

﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (٦١ المؤمنون)

إن أهمية هذه الضوابط ازدادت في العصر الحديث بقدر ازدياد قوة العلم المحايدة والتي يمكن أن توضع فـي خدمـة الخير كما يمكن أن توضع في خدمة الشر.

الباب الثالث

القضايا الأربع التي تطرحها العقلانية على الأديان

الفصل السابع: وجود ا تعالى. وذاته

الفصل الثامن: خلود الروح. والبعث بعد الموت

الفصل التاسع: الدار الآخرة. والثواب والعقاب

الفصل العاشر: النبوات وقيامها على الوحي

القضايا الأربع التي تطرحها العقلانيـة علـى الأديـان كانت موضوعات لكتب مستقلة مسهبة. سواء في ذلك وجود ا تعالى أو عالم الروح.. أو الدار الآخرة.

من أجل ذلك حذِر البـاب أن يغـرق فـي محيطـات التفاصيل والجزئيات التي لا يتسع لها المجال، والتي تـؤثر على شمول الصورة الكلية لكل قضية. وفي الوقت نفسه فإنه تصدى لجوانب عديدة فيها أغفلتها معظم الكتـب أو آثـرت لدواعي الأمان أن تسلك المسلك التقليدي، ومن ثـم يمكـن القول إن طريقة معالجته لهذه القضايا فريدة من نوعها. وقد تعرض الباب الأول لقضية وجود ا تعالى وأبرز أنها كانت مغروسة في النفس البشـرية، والمجتمعـات الإنسـانية وأن الخلاف كان حول "الذات الإلهية" التي لا بد وأن تضل فيهـا الأفهام، وأوردت وجهات نظر ديكارت ووليم جيمس وبعض النظريات الحديثة، ثم تحدث عن دليل الجمال، ودليل القرآن وفندت وجهة نظر الشكاكين مثل "رسل" وفرويد وغيرهما...

وفي القضية الثانية الموت – وخلود الروح حلل الفصل عملية الموت.. ثم عرض لوجهة نظر علم الأحياء من الخلية إلى الروح وأورد دليلاً علـى أن العقـل البشـري والإرادة

البشرية ليس لها أعضاء جسدية. وأن البحث عن العقل فـي المخ هو كتصور المبـرمج نفسـه جـزءا مـن الحاسـبة الإلكترونية. وإذا كان العقل والإرادة غيـر مـاديين فإنهمـا لا يخضعان بالموت للتحلل الذي يطرأ على الجسم والدماغ.

وانتقل الفصل إلى الأرواح فعرض لبعض التجارب في هذا المجال. وبعث صفحات مطوية منها محاولـة "أديسـن" وضع آلة بالغة الدقة يمكن أن تنقل مـا قـد تريـد الأرواح الإدلاء به. كما تحدث عن تجربة "شيرلي ماكلين".

ومع أن معالجة القضية الثالثة الدار الآخـرة والثـواب والعقاب.. والجنة والنار لم تكن مسهبة كالفصلين السـابقين، إلا إنها تميزت بطابع من الجدة والأصالة وأوردت تصورات لم تذكر من قبل، ولم يتردد أمام نقاط يعرضها المستشرقون أو تخطر للبعض دون أن يفصحوا عنها دون أن يجدوا لهـا تفسيرا مقنعا مثل النعيم "الحسي" في الجنة والعذاب "الوحشي" في النار...

أما بالنسبة للقضية الرابعة. إنكار النبوات، فلـم يكـن هناك إشكال فالأنبياء بلغوا من الامتياز على القادة والفلاسفة والحكام – كما امتازت الأديان على بقية الدعوات والأفكار –

بما لا يمكن تفسيره إلا وجـود "وحـي" خاصـة وأن هـذا لا يتنافى مع العقلانية وإن كان جديدا عليها، ومما لا يـدخل في أدواتها ووسائلها..

ويتميز الباب عن الأبواب السابقة بتمهيد مسهب له هو الذي يتلو هذه الكلمة

***

تمهيد:

أربع قضايا رئيسية جعلت العقلانية تنعزل عن الأديـان وتتخذ منها موقفًا يتفاوت ما بين العزوف.. والهجوم هي:

وجود ا تعالى، وما يتصل بهذه القضية من صفات ا وذاته إلخ...

خلود الروح.. والبعث بعد الموت..

وجود دار آخرة.. ثواب وعقاب.. جنة ونار.

النبوات. وقيامها على "الوحي".

وهذه القضايا الأربع توجد في كل الأديان السماوية على سواء وإن اختلفت درجة التركيز والعناية بقضية منها دون الأخرى أو طريقة معالجة إحداها.. وتصويرها..

أسباب هذا الموقف من العقلانية:

هناك أسباب عديدة لهذا الموقف من العقلانية تختلف في طبيعتها وتتفاوت في دواعيها منها:

أن العقلانية ترتبط بطريقة معينة في الاستدلال أبرز خصائصها أنها حسية – مادية تعتمد على الحقيقة العملية التي يمكن لمسها باليد، أو رؤيتها بالعين أو سماعها بالأذن، أو ترتكز على بدائه لا خلاف عليها، كما هو الحال في الحساب أو الهندسة. ولا تتعدى وسائل العقلانية في الاستدلال ثلاث: الأولى الحواس. والثانية النظر الرياضي/ الحسابي والثالثة التجريب في المختبرات والمعامل. وبهذا يمكن لها أن تنتهي إلى نتائج محددة ومبادئ ثابتة. كأن يكون مجموع ١ + ١ = ٢ أو أن المعادن تتمدد بالحرارة.. وأن الماء يتجمد بالبرودة إلخ..

ولا يجدي شيئًا القول إن العقلانيين أنفسهم قد استبانوا قصور الحواس وخداع النظر، وأن وسائلهم العلمية والرياضية تنتهي إلى نتائج تختلف أو تتناقض مع ما تظهره الحواس، لأن المنهج العقلاني ارتبط بالمحسوس منذ نشأته. وأصبح عنصرا مطبوعا به. ورد الفعل التلقائي لديها هو رفض كل ما وراء ذلك. وعندما عرض مكتشف الفرملة الهوائية اختراعه هذا على "الكومدور" "فاندربلت" قطب صناعة السكك الحديدية صاح به "هل تريد أن تقول إن الهواء يستطيع أن يوقف قاطرة بخارية تسير بسرعة ثلاثين كيلو مترا؟ ومن قبل طلب فرعون من وزيره أن يبني له برجا يبلغ به أسباب السماوات ليطلع على إله موسى، وبهذا المنطق نفسه قال رائد الفضاء الروسي إنه لم يجد ا ... ولو كان لديه فكرة عن "الجنة" لقال إنه لم يجدها في أي مكان من السماوات العلا.

وما دام "ا " و "الروح" وعالم ما بعد الموت... ليس محسوسا أو مما يمكن أن يوزن أو يقاس أو يقبض باليد أو يبرهن عليه بمعادلة رياضية، فسترفض العقلانية التقليدية الاعتراف به. وعندما تلتزم الدقة فإنها تقف موقف

"اللاأدرية". لأنها لا تستطيع أن تنفي وجـوده علـى سـبيل القطع. وسيغلب عليها المقولة التي نقلها القرآن عـن أشـباه لهم. ﴿ وقَالُوا ما هِي إِلا حياتُنَا الدنْيا نَموتُ ونَحيا وما يهلِكُنَا إِلا الدهر ﴾.

كانت أوربا التي انبثقت منها العقلانية الحديثة – "وثنية" فلم تعرف من أيام اليونان والرومان "ا " الذي تنزلـت بـه الأديان السماوية... وإنما كان آلهتها أناسا... وأبطالها آلهة. وهي نزعة تتفق مع اتجاه التجسيم الحسي. قدر ما تبتعد عن التجريد المطلق وكانت هذه النزعة في أصل الإضافة التـي قدمتها الحضارة الأوربية ألا وهي الحرية لأن تأليه الإنسان يفسح المجال أمام إرادته.. ويجعلها قانونًا ويبعد كل الضوابط أو التوجيهات التي يوجبها الإيمان بـا ، والحريـة إحـدى متطلبات العقلانية التي تحققها الوثنية – بمعنى تأليه الإنسان – أكثر مما يحققها أي دين سماوي.

ويقترن بهذا، ولو في اللاشعور الخفي، إحساس الإنسان الأوربي بأن الدين قيد على حريته في الانطلاق على أهوائه سواء كانت الأهواء استمتاعا بالشهوات أو الاستخدام الطليق للقوة وهذه وتلك من أبـرز سـمات الحضـارة الأوربيـة

المعاصرة التي نجد جذورها في الحقبة اليونانية/ الرومانيـة للحضارة الأوربية وتظلل فروعها المجتمـع الأوربـي فـي الحديث.

وهذا العامل وإن لم يكن موضوعيا إلا أنه كان عظـيم التأثير على العقلانية – وكاد أن يكون عـاملاً وراثيـا فـي النفسية الأوربية، ينعكس على تصرفاتها وتوجهاتهـا – ولا تستطيع التحرر منه.

إن ما تضمنته الكتب السماوية لدى الأوربيـين، أعنـي التوراة والإنجيل من تحريفات وادعاءات وقصـص كانـت كافية وزيادة لكي ينفض العقلانيون الأيدي منهـا. وتكفـي نظرة سريعة على ما تضمنته بعض صفحات "العهد القـديم" من مخاز نسبت إلى إله إسرائيل.. أو أنبيائهم للحكم بأنها لا يمكن أن تكون قد صدرت عن إله حكيم، أو حتـى إنسـان سوي لديه أقل إحساس بالشرف مما جعل أحد الكتاب يقـول عن داود إنه رجل "ترفض أن تصافحه". أما ما جاء خاصـا بالتاريخ أو الجغرافيا، فقد يبرر ما قاله فولتير عن أن ا لم يكن قويا في الجغرافيا!!

حقًا إننا لا نجد هـذه المخـازي الجنسـية والسياسـية والخرافات التاريخية والجغرافية في الإنجيل الذي يدور حول أفكار سامية. ولكن العقلانية اصطدمت بعقبة كئود لم تسغها. وجعلتها في النهاية تنفض منه اليدين، تلك هي فكـرة الإلـة الشخصي وما وضعته من لاهوت غامض مـبهم لا يمكـن معاملته عقلانيا لتبرير وجود أو للبرهنة على هذا الإله. ولو قدمت الأناجيل المسيح كرسول ونبي لمـا كـان للعقلانيـة ما تعترض عليه – حتى وإن لم تستطع أن تثبته بوسـائلها. والكنيسة – بعد – اعتبرت أن العهد القديم يعد أصـلاً فـي العقيدة المسيحية.

وعندما قضت الكنيسة على المذاهب المسـيحية التـي كانت ترى في المسيح رسولاً وليس إلها. فإنها قطعت العلاقة ما بينها وبين العقلانية.. فضلاً عن أن الذين أرادوا الإصلاح مثل "مارتن لوثر" و "كالفين" لم يتعرضا لهذه النقطـة وشـنا حربا على المخالفين. فبسط كالفين جو الإرهاب على جنيف، ووقف مارتن لوثر مع النبلاء ضـد الفلاحـين فـي ثـورة الفلاحين واستخدمت الكنيسـة أتبـاع الراهـب المتصـوف

المتجرد صاحب الشفافية والإنسانية "فرانسـيس الأزيسـي" ليقوموا بمجازر ضد الفئات التي انشقت على المذهب.

ولا يقل من هذا أثرا فيما يتعلق بموقف العقلانية موقف الكنيسة في قضية دوران الأرض. وإصرارها على خطأ ذلك وتمسكها بأن الأرض ثابتة.

واضطهاد كل العلماء والمفكرين الذين آمنـوا بـدوران الأرض طوال ثلاثة قرون. وقصة دوران الأرض أو ثباتهـا ليست من الدين في شيء، ولا يعني تمسك الكنيسة بهـا إلا الغباء الذي كان لا بد وأن ينال ازدراء العقلانية.

أضف إلى ذلك محاكم التفتـيش البابويـة الرهيبـة – والأحكام بالموت حرقًا على الألوف المؤلفة بدعوى الهرطقة أو السحر، وما مارسته الكنيسة من وسائل التعذيب المروعة وإقناعها الرهبان بأنهم يؤدون مهمة مقدسة إلى الدرجة التي جعلت أحدهم يشعر بتأنيب الضمير لأنه أعفى بعض الأطفال الصغار من التعذيب وما مارسته الكنيسة على الفكر والبحث وتأليف الكتب من رقابة حديدية.

إن المحرقة التي نصبتها الكنيسة لعشرات الألوف من المخالفين وفنون التعذيب المروعة في سجون محاكم التفتيش وقفت سدا بين العقلانيين – والإيمان بدين تمارس مؤسسته هذه الجرائم، وأصبح هذا العداء تقليدا تتوارثه أجيال العقلانية جيلاً بعد جيل، وكان من العمق بحيث استحال أن ينسى أو يغتفر.

لم تجد العقلانية في دراساتها للأديان الأخرى – خلاف اليهودية والمسيحية – ما يمكن أن يصحح فكرتها عن الدين. فالديانة المصرية القديمة وديانة الآشوريين وديانة اليونانيين والرومان.. كلها تقدم ا في صورة الأجداد أو الحيوانات المقدسة أو القوى الطبيعية أو تنسب إليه كل النزق الإنساني والضعف البشري.

ولم تكن الديانات الهندية التي ظفرت ببعض العناية بأفضل من سابقاتها ففيها طبقية قاتلة أو صوفية مغرقة وربطت دراسات أخرى ما بين الدين و "الفولكلور" في المجتمعات البدائية فأكدت لهم هذه الدراسة ما وجدوا أنفسهم مدفوعين للإيمان به من أن الأديان كلها أقرب إلى الخرافة.. منها إلى الحقيقة.

ومن نكد الدنيا أن الدين الوحيد الـذي كـان يمكـن أن يصحح لهم المفاهيم..

وهو الإسلام. كان مجهولاً لديهم. فقد نجحت الكنيسـة من أيام الحروب الصليبية في أن تسدل ستارا كثيفًا عليه وأن تحجبه عن الفكر الأوربـي، وتلاقـت السياسـة والكنيسـة والأطماع الاستعمارية والغـرور الأوربـي الـذي يعتبـر الحضارة إرثًا أوربيا بدأ مـع اليونـان ثـم الرومـان ثـم "الرينسانس" فالقوميات والفترة المعاصرة وأدت في النهايـة لحصر الوعي الحضاري لدى الأوربيين في أنفسـهم وفـي الحضارة الأوربية وحدها:

وبهذا لم ير العقلانيون الأوربيون دينًا دون كنيسـة أو صورة تجمع بين التجريد والحياة والكمال والإطلاق. ولم يسمعوا بمواقف محمد إزاء المخالفين له في العقيدة أو حتـى المحاربين له. ولم يخطر ببالهم نظام كالبيعـة أو سياسـات كسياسات الخلفاء الراشدين أو "ديمقراطية الجامع" في المدينة المنورة التي فاقت "ديمقراطية السوق" في أثينا. لأنها ضمت الرقيق والنساء. وعندما سمحت ظروف العصـر الحـديث للأوربيين بالتعرف علـى الإسـلام – كانـت المجتمعـات

الإسلامية قد وصلت إلى درك الانحطاط والتخلف فكانت أسوأ دعاية للإسلام. وأعطت الفكر الأوربي – مع قلة المراجع والكتابات أو ندرتها – انطباعا سيئًا – لم ينج منه إلا القلة التي تحررت من التحيزات وتحملت مشقة البحث عن الحقيقة وبادر بعض هؤلاء إلى إعلان إسلامهم بينما صرح آخرون أنهم – وإن آمنوا بالإسلام فإن القطار قد فاتهم أو أنهم لا يستطيعوا إعلان ذلك لأسباب تتعلق بالظروف العامة أو الأوضاع الخاصة.

***

إن هذه العوامل كلها – أعني:

ارتباط العقلانية بالنزعة الحسية أو الرياضية التي تبعدها عن عالم ا .. والروح.. وما وراء الموت.

التحريفات والمخازي والمخالفات الفاحشة، فيما يتعلق بالخلق والتاريخ والجغرافيا التي تضمنها "العهد القديم" والتعقيد اللاهوتي في فكرة الثالث والإله الشخصي.

ما حفلت به الأديان الوثنيـة القديمـة مـن خرافـات وترهات، وجهل العقلانية الأوربية بالدين الذي كان يمكن أن يصحح لها الصورة – وهو الإسلام.

المحرقة التي نصـبتها الكنيسـة للمخـالفين، وصـور التعذيب المروعة في محاكم التفتيش وما فرضـته الكنيسـة على الفكر من إرهاب وموقفها من قضية دوران الأرض وما حفلت به من فساد في بعض فترات تاريخها.

هذه الأسباب كلها أبعدت العقلانية الأوربية عن الـدين وأوجدت كراهة عميقة تتزايد بقدر إيمان بعـض العقلانيـين بجدية الفكر وبلغت هذه الكراهية درجة أبعدت بعضهم لـيس فحسب عن الحياد – أو الموضوعية – ولكن عـن المنطـق العقلاني نفسه.

وعندما يقول جوليان هكسلي..

" .. وفي النهاية.. فإننا نجد المفارقة المجيدة. أن تلـك الآلية غير القصدية، بعد ألف مليون سنة من عملياتها العمياء

والآلية ولدت "القصد" كأحد الصفات الخاصة التي تنسب إلى نوعنا – وبأدائها لهذا، كأنها جاوزت نفسها"[٢٥].

فإن هذا الكلام – يلقي حكما على عواهنه خلال "ألـف مليون سنة "دون أي إثبات، بل باعترافه هو بأنهـا "مفارقـة مجيدة" و "جاوزت نفسها".

وأسوأ من هذا.. وأبعد.

"لو جلست ستة من القردة على الآلة الكاتبـة، وظلـت تضرب على حروفها لملايين السنين – فلا نستبعد أن نجـد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة مـن قصـائد شكسبير. فكذلك كان الكون الموجود نتيجة لعمليات عميـاء تدور حول المادة لملايين السنين".

فهذا الافتراض الذي تكذبه كـل قـوانين الاحتمـالات ما كان يمكن أن يتقدم به هكسلي، لولا أن الصـورة التـي قدمتها الكنيسة، وما حفل به العهد القديم من مخـاز كانـت

---

[٢٥] انظر مقالًا في مجلة the Rationalist Annual بقلـم جوليـان هكسلي بعنوان "تبرئة الدارونية The vindication of Darwinsm ص ٨٧ عدد ١٩٤٦.

أسوأ، وأن جوليان هكسلي هنا يكرر ما فعله جـده "تومـاس هكسلي " ١٨٢٥ – ١٨٩٥. صديق داروين ونصـيره فـي المناظرة الشهيرة التي جرت بينه وبين ويلبر فورس ممثـل الكنيسة عندما سأله "إلى أي فصيلة من القرود ينتمي ؟ فقال هكسلي: " إنه يفضل أن يكون سليلاً لأي فصيلة من القـرود على أن يكون دجالاً يستخدم ذكاءه في التضليل والخداع".

وكان الحفيد وهو رأس من رءوس العقلانية في غنـى عن افتراض المستحيل، كما كان الجد في غنى عن أن يتقبل أن يكون سليلاً للقرود لو انفسح المجـال لمعالجـة القضـية معالجة موضوعية، ولكن وجود الكنيسـة ومواقفهـا نقلـت الموضوع نقلة ذاتية أصبح النكران فيه أفضل الأمرين.

ولم يقتصر هذا المسلك على هكسلي، إذ أصبح التحيـز ضد الدين صفة لصيقة بالعلماء في فترة مـا.. لأن مواقـف الكنيسة أصبحت في حكم الأمر المقرر والدائم، ولأن الكنيسة هي صوت الدين والممثلة له، وبالتالي لم يجد العلماء خيـارا ولم تستطع أن تتحرر من هذا المسلك إلا قلة تحملت عنـاء ومشقة البحث عن الحقيقة، فلما بلغتهـا اعترفـت بتحيزهـا السابق "التقليدي" ضد الدين.

وقد قال أحد هؤلاء وهو إدوارد لوثر كيل أستاذ علم الأحياء بجامعة سان فرانسيسكو: "لو أن جميع المشتغلين بالعلوم نظروا إلى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق بنفس روح الأمانة والبعد عن التحيز الذي ينظرون به إلى نتائج بحوثهم، ولو أنهم حرروا عقولهم من سلطان التأثير بعواطفهم وانفعالاتهم فإنهم سوف يسلمون دون شك بوجود ا . وهذا هو الحل الوحيد الذي يفسر الحقائق فدراسة العلوم بعقل متفتح سوف تقودنا دون شك إلى إدراك وجود السبب الأول الذي هو "ا ".

وسنرى في تفصيل مناقشة كل قضية من القضايا الأربع كيف أن العقلانية المزعومة تأثرت بعوامل ذاتية ولم تكن "عقلانية تماما".

الفصل السابع

القضية الأولى : وجود اللّهِ تعالى وذاته

القضية الأولى والرئيسية هي ما يتعلق با تعالى. وهي بدورها تنقسم إلى شقين: الأول وجود ا تعالى والثاني ذاته وصفاته ومع أن هذه القضية بشقيها هي القضية الرئيسية بين القضايا الأربع التي تطرحها العقلانية على الأديـان. فـإن التدليل عليها أسهل من التدليل على القضيتين التـاليتين، لأن وجود ا ، عندما يتجرد من الغشاوات التي ألحقت بهـا دون أن تكون في صلب الدين المنزل. وعندما تتحرر من سيطرة المؤسسة "المؤسسة الدينية" المنتفعة. تصبح قضية عقلانية بل يصبح ا تعالى هو – بتعبير بعـض المفكـرين – العقـل الكوني.

ومن ناحية أخرى فإن القضية كانت – ولا تزال – من الأهمية بحيث فرضت نفسها على المجتمع الإنسـاني مـن نشأته الأولى حتى الآن ويصعب الزعم أن موضوعا له هذه الصفة لا يكون له أصل حقيقي، إذ ما الداعي، إذا لم يكن له أصل، أن يفرض نفسه على الإنسان البدائي وعلى الفيلسوف

المعاصر... وبأي تفسير نبرر تسليم الثالوث الفلسفي القـديم سقراط وأفلاطون وأرسطو. والثالوث الفلسـفي الحـديث – ديكارت وكانت وهيجل.

لقد ظن بعض الكتاب أن هذه النقطة نفسـها يمكـن أن تكون أساسا للادعاء بأن ا "مخلوق إنسـاني". إذ نجـد أن صورة ا لدى الإنسان البدائي تتلاءم مع مستوى فكره وأن الصور التي نجدها في الحضارات القديمـة – كالحضـارة المصرية – والحضارة اليونانية حتى الحضارة الرومانيـة، بما في ذلك الحضارة الهندية... كلها صور وثنية تتجسم في حيوانات أو أجداد أو طبيعة (شمس – بحر إلخ..) ولكن هذا الظن يخلط بين شـقي القضـية –أي وجـود ا تعـالى... وتصور ذاته وصفاته. فكل المجتمعات توصلت إلى وجـود ا واهتدت إلى فكرة وجـود خـالق، واسـتبعدت، علـى سذاجتها، فكرة الوجود التلقائي أو الوجود مصـادفة ولكنهـا أخطأت في تصوير ذات ا . وكان لا بد أن تخطيء في هذا إذ لم يكن ممكنًا أن تتوصل إلى تصور أعلى من مداركها.. فضلا عن أن العقل الإنساني وإن رفـض – فـي مرحلـة نضجه – هذه التصورات البدائية ، إلا أنه يعجز عن التصور

"الإيجابي" الكامل لذات ا . وكان لا بد من "وحي" ينقل إلى الإنسان شعاعا من شمس الألوهية الباهرة التي لا يسـتطيع الإنسان التوصل إليها.

ولو جاز أن يتوصل العقل الإنساني إلى ذات ا ، لمـا كان هناك حاجة إلى الأديان السماوية... أو إلى الرسل.. أو الوحي ولأصبح من الممكن أن يقوم الفلاسفة بهذا – ولكـن الفلاسفة عجزوا من سقراط حتى هيجل عن تقـديم صـورة تماثل ما جاء به الوحي حتى وإن اقتربت كثيرا منه.

وهكذا تتضح القضية – فإن فكرة وجود ا كانـت ولا تزال مغروسة في الفطرة الإنسانية – وقد صاحبت الإنسـان من ظهوره – وتضمنتها كل الحضارات منذ ظهور المجتمع الإنساني وعلى اختلاف أوضاعها ومواقعها ونظمها وطـرق إنتاجها... إلخ. ولا يمكن تعليل هذه الظاهرة إلا بـأن لهـا أصلاً – وما أخطأته هذه الحضارات هـو تصـور ذات ا تعالى وصفاته. وهو أمر لا نجادل فيه. بل نسلم به ونرى أنه المبرر لظهور الديانات السماوية التي تقدم ما يمكـن للعقـل البشري استيعابه من تصور لذات ا . فإذا قيل إن السـذاجة أو حتى الخرافة قد صاحبت تصـور ذات ا فـي بعـض

الأديان السماوية كاليهودية أو المسيحية قلنا إن هذا ليس من حقيقة اليهودية أو المسيحية، ولكنه التحريف الذي زحف عليها. وهو تحريف ثبت يقينًا بما لا يمكن الشك فيه واعترف به كل الدارسين للتوراة والأناجيل. فضلاً عن أنه الأمر الطبيعي في أي دين يوجد به "المؤسسة الدينية المنتفعة" وهو ما ينطبق على المسيحية واليهودية. ونحن هنا لا نقول إلا ما أكده الباحثون الأوربيون أنفسهم – وما تقضي به طبائع الأشياء – إذ ليس من المعقول أن يحتفظ نص بحروفه ومضمونه الدقيق على مدار ثلاثة آلاف سنة أو يكون ما كان عليه عندما يتعرض للترجمة لا مرة واحدة، ولكن عدة مرات. وقد اتهمت الكنيسة الكاثوليكية لوثر بأنه أجرى قرابة ثلاثين تحريفًا في نصوص الكتاب المقدس ليتفق مع مذهبه.

الفلاسفة يثبتون وجود ا :

كانت نقطة انطلاق الفلاسفة التي أدت بهم إلى التسليم بوجود ا هي الخلق واستبعادهم أن يوجد هذا الكون تلقائيا أو مصادفة ومن ثم عليهم أن يسلموا بوجود "علة أولى" بلغة المناطقة أو "قوة خفية" بتعبير هربرت سبنسر،

أو "التطور الخالق" كما يقول برجسون. ولـم يسـمح لهـم منطقهم أو فلسفتهم بأن يذهبوا إلى ما وراء ذلك.

وفي الوقت نفسه فقد شذ بعض المفكـرين، وظنـوا أن الإيمان با عند عامة الناس إنما يعود إلى جهالتهم بالأسباب فينسبون إلى ا الإصـابة بـالأمراض أو إسـقاط المطـر أو إحداث الرعد والبرق والصواعق... فإذا أثبت العلـم أن الأمراض تعود إلى "ميكروبات" وأن الأمطار والرعد والبرق والصواعق لها أسبابها التي كشف عنها علم الفلـك انتفـت الحاجة إلى "إيجاد" إله يعزى إليه القيام بها.

وعبر عن هذا المعنى أوجست كونت عندما قال:

"إن الإعتقاد فـي إرادات أو ذوات عاقلـة لـم يكـن إلا تصورا باطلاً نخفي وراءه جهلنا بالأسـباب الطبيعيـة. أما الآن وكل المتعلمين من أبناء المدنية الحديثة يعتقدون بأن كل الحوادث العالمية والظاهرات الطبيعية لا بد أن تعود إلى سبب طبيعي وأنه من المستطاع تعليلها تعليلاً مبنـاه العلـم

الطبيعي – فلم يبق من فراغ يسده الاعتقاد بوجود إله – ولم يبق سبب يشوقنا إلى الإيمان به..." [٢٦].

وهو المعنى الذي صوره "الزهاوي" فترة إلحاده.

لما جهلت من الطبيعـة وأقمت نفسك في مقـام
أمرهاأثبت ربا تبتغي حلاً به معلـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـل
للمشكلات–فكان أكبر مشكل!

ولكن اكتشاف الأسـباب الطبيعيـة لا يغلـق الكتـاب ولا يحل المشكلة كما تصور أوجست كونـت – لأن العقـل البشري سيسأل عن السر وراء هذا التصرف من الطبيعة – فضلاً عن أن كلمة "الطبيعة" تجريـد – فيـه مـن الإبهـام ما لا يمكن تعليق الأحكام. وكما قال أحد الكتاب في تعليـق على كلام أوجست كونت إن موضع الضعف فيه.

---

(٢٦) انظر بحثًا للأستاذ إسماعيل مظهر في افتتاحية العدد الصـادر في ١٥ يوليو ١٩٤٧ عن مجلة المقتطف بعنوان "ا وفكرة الألوهية أو الربوبية" ص ٨٥.

"ينحصر في الاعتقاد بأنه لا يوجد في الكون من شـيء يحتاج إلى تعليل أكثر من وصل الحلقات المتفرقة في سلسلة الظاهرات الطبيعية التي يتألف منهـا الكـون المـادي فـي مجموعة بعضها ببعض في حين أن السلسلة في مجموعها – باعتبارها كلا متواصل الأسباب لم يعرف سببها الأول[٢٧] ".

ولما كانت الأسباب الطبيعية قد عجزت عن تعليل ذلك. فإن الاحتمال الوحيد أمام العقل هو وجود إرادة يعود إليهـا السبب، ولا بد أن تكون هذه الإرادة من القوة والحكمة بحيث تكون قادرة على خلق هذه الظواهر – أي لا بـد مـن "ا " "فألفة العقل" تقتضي وجود الألوهية.

ولايمكن التساؤل عن السبب في وجـود ا لأن هـذا سيؤدي بنا إلى ما يسميه المناطقة "الدور" الـذي لا ينتهـي ولا يحل المشكل ويصبح أقرب إلى العبـث لأنـه يضـحي بالواقع في سبيل جدل منطقي مظنون.

لقد حاول أوجست كونت وضع أسس ديانة إنسانية تقوم على المعنويات والمحبة وتستهدف التقدم ولا تدين لكنيسة أو

---

[٢٧] المرجع السابق ص ٨٧.

تؤمن بإله فوق البشر[٢٨]. وحاول أن يطبق هذه الفكرة في بريطانيا تلميذه المخاص فردريك هاريسون الذي ظل رئيسا للجمعية الوضعية في بريطانيا طوال عشرين عاما. وكان هاريسون شخصية بارزة في المجتمع البريطاني المثقف. وناصر كل قضايا العدالة كالحركة النقابية البريطانية. وكان أحد الذين احتجوا على ضرب الأسطول البريطاني للإسكندرية في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وتبرع بالدفاع عن عرابي.

فماذا كانت نتيجة كفاح وجهاد هذين المفكرين البارزين؟ لاشيء تقريبا. وقد وصف هكسلي محاولة كونت بأنها "الكاثوليكية مطروحا منها المسيحية!" كما وضعت بياتريس وب، صديقة فردريك هاريسون الحميمة، والتي كانت نفسها تبحث عن عقيدة وإيمان الديانة الإنسانية بأنها "جهد باسل

---

(٢٨) قيل إن أوجست كونت انتهى إلى أن الإسلام أقرب الديانات إلى العقلانية، ولم يكن لهذا مردود عملي، لأن الجو الذي أحاط به لم يكن ليسمح بذلك، وشأنه شأن، بورجيه، الذي ألم بامتياز الإسلام آخر عمره، وبعد أن فاته القطار.

لإيجاد ديانة من لاشيء، ومحاولة تستحق الرثاء والعطف من البشرية البائسة لتدير رأسها وتعبد ذيلها".

وما حاوله أوجست كونت فـي القـرن الماضـي دون توفيق يحاوله جوليان هكسلي في هذا القـرن، دون توفيـق أيضا، فهو يريد دينًا دون وحي، ودون إله. وما مـن ديـن يمكن أن يكون دون وحي. أو دون إله، إنه لا يكـون دينًـا. وإنما نظرية إنسانية ولا بد – في هذا المجـال – أن يكـون مصيرها الفشل.

وفي الاتحاد السوفيتي أيضا وجدت مع أوائـل القـرن جماعة باسم "الباحثين عن ا " بذلت جهدها للتوفيق بين فكرة ا والماركسية، ولكن الجماعـة اختلفـت وانبثقـت عنهـا مجموعة جديدة لا تعمل للبحث عن ا ... ولكن لبناء ا !.

والفرق بين الاتجاهين هو في مفهوم ا في كل اتجـاه، فالباحثون عن ا ظلوا مرتبطين بالفكرة المسيحية، أما البناة فإن ا – في نظرهم – لم يوجد بعد.. ولكن جهد الإنسـانية الجماعي يجب أن يبني إلها جماعيا اشتراكيا ساميا، ووجدت هذه النظرية في المفكر الاشتراكي "بوجدانوف" رفيق لينـين القديم ظهيرا وفيلسوفًا، كما فتنت عددا آخر من الشـيوعيين

القدماء وأيدها الكاتب مكسيم جوركي"الذي كـان قـد آثـر الاعتكاف في كابري عندما صدمه العنف الذي اتسـمت بـه الثورة، وكان تأييد جوركي لهذه النزعة من القـوة بحيـث أكسبها اسم "مدرسة كابري".

وباستعراض قائمة الفلاسفة من سقراط حتـى الفتـرة المعاصرة، نجد أنه لم يشذ عن الإيمان با إلا قلـة وقفـت حائرة، ترجع البصر ليعود إليها البصر وهو حسـير. أمـا الأغلبية فآمنت، فقد آمن سقراط وأفلاطون وأرسـطو، كمـا آمن روسو، با وخلود الروح والثواب والعقاب، ولم يجـد "لوك" تنافرا ما بين الوحي والعقل وارتأى أن التوفيق بـين الدين والفلسفة أمر ميسور، وكان "هوبز" مسـيحيا ملتزمـا. وكان كانت مؤمنًا با ، ووضع دليله المشهور لـذلك، كمـا قامت فلسفة هيجل على أساس وجـود ا . وسـنعالج فـي الفقرات التالية أفكار بعض الفلاسفة بالنسبة لقضـية وجـود ا .

مدخل ديكارت:

يستحق ديكارت اهتماما خاصا باعتباره المفكر الذي نهج الوصول إلى الحقيقة نابذًا وراء ظهره كل الموروثات، وجاعلاً الشك طريق اليقين ورائدا للعقلانيين جميعا.

وفي كتابه "التأملات" جاء ديكارت بمدخل جديد يقلب رأسا على عقب كل دعاوى العقلانيين المزعومة، فقد ذهب إلى أن "الميتافزيقيا" علم دقيق يمكن إثبات قضاياه بيقين رياضي وصرح في الرسالة التي كتبها في ١٥ أبريل سنة ١٦٣٠ أنه اهتدى إلى "السبيل إلى البرهنة على الحقائق الميتافيزقية ببراهين هي أكثر بداهة من براهين الهندسة" ويقول في موضع آخر "ثق أنه ليس في الميتافيزيقيا شيء إلا اعتقد أنه واضح كل الوضوح للنور الفطري ويمكن أن يبرهن عليه برهنة دقيقة وإذن فالميتافيزيقيا علم يعادل في يقينه علم الهندسة، إن لم يزد عليه" وهي أكثر يقينًا من

الهندسة" لأن طائفة كبيرة من الحقائق الميتافيزيقيـة يمكـن اكتشافها قبل أن يرفع الشك عن حقائق الرياضيات [٢٩].

إن الهدف الأعظم لديكارت كان الوصول إلى اليقين ولم يكن المقصود من الميتافيزيقيا الديكارتية إثبات وجود الـنفس وا أصلاً وإنما الإعداد للمعرفة. والمعرفة العلمية على وجه الخصوص، ولهذا فإننا نرى فيما ذهب إليه منهجـا علميـا ثوريا يخالف كل المنـاهج السـابقة التـي كانـت تسـتبعد "الميتافيزيقيا" من إطار الاستدلال العلمـي. وإنمـا وصـل ديكارت إلى هذا لأنه رأى أن الشك في حقيقة الأشياء الحسية معناه العدول عن كل معرفة لا تكون قائمة على حدس مـن حدوس العقل. والحدس عند ديكارت عبـارة عـن الرؤيـة العقلية المباشرة التي يدرك بها الذهن بعض الحقائق فتـذعن لها النفس – وتوقن بها يقينًا لا سبيل إلى دفعه.

فالحدس نظرة من نظرات العقل بلغت مـن الوضـوح مبلغًا يزول معه كل شك. والحدس عقلي لا يتعلق بـالحواس

---

[٢٩] كتاب التأملات في الفلسفة الأولى لـديكارت – ترجمـة الـدكتور عثمان أمين – مكتبة الأنجلو.

ولا بالخيال، إنما يتعلق بالذهن – بل الذهن الصافي. وبهذا المنهج فإن ديكارت الرياضي وجد أن فكرة ا في مثل وضوح قاعدة هندسية "مجموع زوايا المثلث يساوي قائمتين، وا موجود – هما قضيتان متعادلتان في اليقين"[٣٠].

وحدد ديكارت تصوره تعالى "أقصد بلفظ ا جوهرا لا متناهيا أزليا – منزها عن التغيير – قائما بذاته محيطًا بكل شيء قادرا على كل شيء، خالدا – ثابتًا قد خلقني أنا وجميع الأشياء ويستطرد – وهذه الصورة قد بلغت من العلو قدرا يجعل من المستحيل أن أكون قد اكتسبت من نفسي الفكرة التي لدي عنها – ولذلك فإن هذه الفكرة لا يمكن أن يكون قد وضعها إلا جوهر لا متناه حقًا وإذن فا موجود[٣١].

ويرفض ديكارت فكرة "وحدة الوجود " لأن ا هو خالق لمخلوقاته لا متحد بها – ويتجلى حضوره فينا بما نستشعره من حاجة دائمة إلى بلوغ الكمال[٣٢].

---

(٣٠) المرجع السابق ص ٢٥ .

(٣١) المرجع السابق ص ١٢٤ .

(٣٢) المرجع السابق ص ٢٢ .

إن كتاب التأملات "لديكارت" يمكن أن يكـون أفضـل إثبات لوجود ا يأتي به فيلسوف العقلانيـة الحديثـة وهـو يفضل كثيرا الأسلوب الـذي انتهجـه فقهـاء علـم الكـلام الإسلاميين الذي يعود إلى أصول المنطق الأرسطي ولهـذا يصدق عليه ما قاله ديكارت على الكنيسة "لقد كـان رأيـي دائما أن مسألة ا والنفس أهم المسائل التي مـن شـأنها أن تبرهن بأدلة فلسفية خيرا مما تبرهن بأدلة اللاهـوت "حتـى وإن لم يكن علم الكلام "لاهوتًا" خالصا كاللاهوت المسيحي، وإنما يفضل المنهج الديكارتي غيره لأنه اتسم بالبساطة التي كثيرا ما تصطحب بالحقيقة عندما اعتبـر الحـدس العقلـي والبداهة بالنسبة لوجود ا . فاقترب بذلك كثيرا مـن فكـرة "الفطرة" التي اعتبرها الإسلام أصلاً من أصـول الاعتقـاد وسبيلاً للإيمان با .

منطق وليم جيمس:

وليم جيمس (١٨٤٢ – ١٩١٠) كما هو معروف مبدع نظرية "البراجماتيزم" أو "الذرائع" وهي تذهب إلى أن جدوى الأفكار والنظم إنما تقاس بمدى فعاليتها العملية. فما يثبت أنه مفيد وعملي فهو صالح والعكس بالعكس. وقد تعرضت هذه

الفكرة لنقد قاس – خاصة من أنصار "المبدئية" أي الـذين لا يقيسون المبادئ بنفعيتها، ولكن بأصالتها وحقيقتها. وقد يظن أن وليم جيمس سيكون آخر من يدافع عن الأديان، وبالـذات فكرة "الاعتقاد" و "الإيمان" ولكن الواقع غير ذلك. فإن منطقه العملي أدى به إلى التسليم بأن الفائدة العملية للاعتقاد بصـفة عامة والاعتقاد في ا بوجه خاص لا بد وأن يكـون وراءه أصل حقيقي لا مزعوم أو متخيل.

فدخل الأديان من باب المنافع والمصـالح – وبالنسـبة للإسلام فإن هذا مدخل غير مرفوض – لأن من المسلم به أن المصلحة من مقاصد الشريعة، وأن الإسلام لم يتجاهل المنافع بل أقرها حتى في شعيرة مثل الحج، وأن الرسـول أرسـل للناس "ليحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث".

ولا ريب أن دفاع جيمس عن الدين حتـى مـن هـذا المدخل يعد دليلاً على صحة الأديان وسلامتها. لأنه عنـدما يقوم بذلك فإنه يستخدم أدلة قد يكون الناس أكثـر اسـتعدادا لقبولها وفهمها، ليس فحسب في اللغة ولكن في الهدف أيضا. فهو يتكلم بلغة مفهومة ولهدف مطلوب.

وفي كتابه "إرادة الاعتقاد" انتقـد ولـيم جـيمس بقـوة الماديين أصحاب العقول التي "لا تقبل من الحقـائق إلا مـا كان محسوسا" ويستطرد.

"والمعشوق الأوحد لهذا النوع من العقول هو ذلك البناء المسمى "بالعلم" وأقرب الطرق عندهم وأسهلها لقتـل مـا لا يؤمنون به من آراء هو أن توصف بأنها آراء "غير علميـة" ولكن لا بد من الاعتراف بأنه ليس هناك أدنى سبب لهـذا. حقًا لقد قفز العلم في الثلاثمائة عام الأخيرة قفزات عظمـى يفخر بها. ومد من أفق معرفتنا بالطبيعة مـدا عظيمـا فـي مجموعها وفي تفاصيلها. ولقد سمعت عـدة مـن الأسـاتذة يقولون إن العلم قد أوجد الأصول والقواعد النهائية للحقيقـة. ولم يترك للمستقبل إلا النظر في التفاصيل".

ولكن وليم جيمس يرى مع هـذا أن معرفتنـا ليسـت إلا قطرة من بحر هو جهلنا. ومهما يكن من اليقين أو مـن عدمه حول كثير من الأشياء فإن هذا القدر – على الأقـل – يقيني، وهو أن عالم المشاهدة محاط بعالم آخر أكبر منـه – ولكننا لا نعرف في الوقت الحاضر شيئًا عما يتصف به من صفات إيمانية.

تعترف اللاأدرية الوضعية بهـذا المنطـق – ولكنهـا ترفض أن تطبقه على الناحية العملية. إذ تقول تلك النظريـة ليس لنا من حق في أن نتوهم – أو أن نفترض أشـياء فـي ذلك الجزء الخفي من العالم لمجرد أن ذلك الـوهم أو هـذا الافتراض قد يبدو محققًا لأغراضنا العليا. فلا بد أن ننتظـر دائما قبل أن نعتقد حتى نجـد البـراهين الحسـية المبـررة للاعتقاد وإذا لم يكن لمثل هذه الأدلة من وجود، فليس لنا أن نفترض فرضا ما. ذلك طبعا موقف سليم على وجـه عـام. فإنه إذا لم يكن للمرء غرض ما من وراء العالم الخفي، وإذا كان لا يجد إليه من حاجـة ماسـة، ولا يعنيـه أن ينسـجم أو لا ينسجم معه، فإن خير الطرق وأحكمها بالنسبة له هـو حالة الحياد وعدم الاعتقاد لا في هذا ولا في ذلـك، ولكـن الحياد على الرغم من أنه صعب المراس من ناحية نفسـية، هو كذلك غير ممكن التحقيق في هذه الحالة، حيث أن الأمر المخير فيه أمر حيوي وعملي بالنسبة لنا. وذلك لأن الاعتقاد والشك كما يخبرنا علماء النفس أمران حيويان يستلزمان منا عملاً. فمثلاً طريقنا الوحيد للشك أو لـرفض الاعتقـاد فـي وجود شيء ما هو أن نستمر في حركاتنا وتصـرفاتنا كأنـه

لا وجود له. فإذا رفضت أن أعتقد أن جو الغرفـة أصـبح باردا فإني أترك النوافذ مفتوحة ولا أوقد فيها نارا كما أفعـل لو كنت أعتقد أن جوها لا يزال دافئًا. وإذا شككت في أنـك من الأشخاص الذين لا يوثق بهم. فإني أكـتم عنـك جميـع أسراري، كما أفعل لو علمت أنك لست مجـالاً للثقـة، وإذا ترددت في أن منزلي يحتاج أن يؤمن عليه فإني أدعه غيـر مؤمن عليه. كما أفعل لو علمت يقينًا أنه ليس هناك من حاجة للتأمين. كذلك إذا لم أعتقد أن هذا العالم عالم إلهـي، فلـيس لذلك من مظهر إلا الامتناع عن التصرف على أنـه إلهـي، وليس لهذا من معنى إلا التصرف بالنسبة للأمور الخطيـرة المهمة كأنها ليست بالخطيرة أو التصرف على نحـو غيـر ديني. من هذا يتبين لك أن عدم الفعل هو نفسـه فعـل فـي بعض الأحيان. ولا بد أن يعتبر كذلك وإذا لم يكن الفعل من أجل شيء فإنه لا بد أن يكون من ناحية عملية ضـد ذلـك الشيء، وفي جميع هذه الحالات، لا يمكن وجود حيـاد تـام غير متردد فيه.

وبعد كل هذا أليس القول بوجوب الحياد فـي حـين أن ميولنا النفسية تؤدي بنا إلى الاعتقاد، قولاً فـي غايـة مـن

الحماقة؟ أو ليس القول بأنه لا يمكن أن تكون هناك صلة بين أغراضنا النفسية وقوانا وبين القوى الموجـودة فـي العـالم الخفي مجرد يقين خاطئ لا دليل عليه؟ فلقد بـرهن التنبـؤ المبني على الاتجاهات والميول النفسية على صحة نفسه في كثير من الأمثلة الأخرى. انظر إلى العلم نفسه، فمن غير أن تكون لنا ميول نفسية تستدعي بالضرورة انسـجاما منطقيـا ورياضيا في هذا العالم فإنه يكون من العسير علينا أن نذهب لنبرهن على وجوده بين ثنايا ذلـك العـالم الطبيعـي الفـج وفجواته، ويندر أن يوضع قانون علمي يتيقن بحقيقة ما فيه، من غير أن يكون كل ذلك مسبوقًا ببحث، غالبا ما يكون شاقًا ومضنيا ليرضي حاجة نفسية ويشبعها. ولكنا لا ندري مـن أين أتت تلك الحاجات النفسية، إنا نجدها فينا فحسب ولـيس لعلم النفس البيولوجي من مجهود نحوها إلا أن يضعها فـي دائرة واحدة مع "الاختلافات العرضية" موافقًـا فـي ذلـك داروين. ولكن للحاجة النفسية إلى الاعتقاد في أن هذا العالم المشاهد ليس إلا مجازا لعالم آخر أكثر روحانية وأبدية مـن القوة والسلطان على نفوس هؤلاء الذين يشعرون بها مثل ما للحاجة النفسية إلى اعتقاد الأكـراد فـي قـوانين السـببية

والمسببية من قوة وسلطان على عقول العلماء الفنيين. ولقـد برهن المجهود المتعاقب من الأجيال المختلفة على أن هـذه الحاجة الأخيرة حق وعلى أنها صحيحة في الواقـع فلمـاذا لا يمكن أن تكون الأولى صحيحة أيضا؟

وإذا ما صح كل ذلك فـي العـالم المشـاهد، فلمـاذا لا يصح في العالم الغائب ولا يكون دليلاً على وجوده أيضا؟ وباختصار، من هو الذي يحق له أن يمنعنا من أن نثق فـي ميولنا ومطالبنا الدينية ونصدقها؟ ليس للعلم كعلم أن يـزعم هذه السلطة لنفسه، لأنه لا يتحدث إلا عن الموجود بالفعـل، وليس له شأن بغيره، وأما قول اللاأدريين "ليس لك أن تعتقد غير أن تكون لك أدلة حسية قاطعة" فليس إلا تعبيـرا (لكـل امرئ الحق في أن يعبره) عن اتجاه خاص ورغبة شخصية في أدلة من نوع خاص.

ويستطرد وليم جيمس "ولكن إذا افترضنا ألا نقـدر أن نتأكد من ذلك فهل معنى ذلك أنه ليس لنا أن نثق، وأن الثقـة أو التصديق ليست إلا أحلاما وخديعـة مـن أحـلام البلـه والمغفلين، أو ليست إلا مكانًا يلجأ إليه الكسالى من النـاس، أو أنها بالعكس لا تزال اتجاها حيويا قويا لكل منا أن يتجـه

إليه وينغمس فيه؟ إننا طبعا أحرار فـي أن نثـق وفـي أن نصدق ما نشاء، ما دام غير محال في نفسه وما دمنا نجد من الأشباه والنظائر ما يؤيده. والآن كل ما يشهد للمذهب المثالي من الأدلة المختلفة يبرهن على أن العالم المادي لـيس هـو العالم المطلق وأن القول بأن حياتنا المادية كلهـا لا بـد أن تكون مشربة بجو روحي، ومختلطة بنوع من الوجود لـيس لدينا الآن من القوى ما نعرفه بها، تمكن البرهنة عليه"[٣٣].

إن المنطق النفعي لوليم جيمس في البرهنة على وجـود ا لا يبخس من قيمته، لأن هذا المنطق – كما ذكرنا مقبول من وجهة نظر الإسلام – ولأنه سائغ مقبـول ولأنـه أحـد المداخل التي يمكن منها الوصول إلى موضـوع لا يمكـن معاملته "عدا ونقدا" أو بمنطق الحواس من رؤية أو لمس... لأننا إذا سددنا مثل هذا المنفذ الفلسفي والعلمي، فلا يبقى إلا

---

[٣٣] إرادة الاعتقاد ترجمة الدكتور محمود حب ا مطبوعات الجمعيـة الفلسفية المصـرية – ص ١القـاهرة ١٩٤٦ صـفحات ١٢٩ – ١٣٣ بتصرف.

ما طالب به المشركون وما يتناقض مع جـوهر الموضـوع "أرنا ا جهرة!!".

وخلاصة فكر وليم جيمس فيما يتعلق با تعالى تحملـه الكلمات التالية "إنه يبدو لي أيضا – وتلك هي نتيجتي النهائية – أن العالم الخلقي المستقر المنظم الذي يبحث عنه الفيلسوف الخلقي لا يمكن أن يوجد كاملاً إلا حيث توجد قـوة مقدسـة ذات مطالب عامة شاملة. فإذا وجد مثل هـذه القـوة. فـإن منهجه [٣٤] في إخضاع أحد المثل للآخـر يكـون المـنهج الصحيح لتقدير القيم، وتكون مطالبه أبلغ أثرا ويكون عالمـه المثالي أكثر العوالم ممكنة التحقيق شمولاً وإذا كان موجـودا الآن فلا بد أن يكون قد علم بالفعل تلك الفلسفة الخلقية التـي نبحث عنها، وعلم أنها النموذج الذي يجب أن نعمل للوصول إليه دائما لذلك ينبغي لنا، كفلاسفة ومن أجل تحقيق غاياتنـا من إيجاد نظام أخلاقي واحد أن نفترض وجود الإلـه، وأن نتمنى انتصار الدين على اللادينية".

---

(٣٤) تعود إلى "العالم الخلقي" – ص ١٠٦.

ومن رحمة ا بالبشرية أنه لم يدع الأمر وقفًا على إرادة الفلاسفة وتمنياتهم التي كان يمكن ألا تجد اهتمامًا، أو أن تعصف بها الريح. إن ما تمناه وليم جيمس كان هو – بالفعل – الأمر الواقع. وقد استهدفت ثورتان كبيرتان، مدفوعتان بمختلف الدوافع التي ارتؤي وقتئذ أنها تمثل التقدم الأمثل – الإطاحة بالأديان. وأثبت التاريخ أن ما ظن تقدما لم يكن إلا وهما من أوهام المنظرين – وأنه أساء إلى البشرية أضعاف ما نسب إلى الدين من إساءة. فقد أوجد آلهة مزيفة. وادعى كتبا مقدسة وأوجد كنيسة من نوع خاص. ثم انتهى بالفشل. وعادت الكاثوليكية إلى فرنسا بعد أن خبت الثورة الفرنسية، وعادت الأرثوذكسية والإسلام إلى الاتحاد السوفيتي بعد أن أعلن إفلاس الماركسية اللينينية و "ثورة أكتوبر المجيدة".

العلم الحديث يثبت وجود ا :

كان الفيلسوف هوايت قد تنبأ بأن العلم الذي سحق اللاهوت المتعسف في الماضي سيسير في المستقبل مع الدين جنبا إلى جنب، وبينما يتضاءل نفوذ اللاهوت يقوى الدين

وينمو في ثبات [٣٥] وقد صدقت هذه النبوءة ربمـا بدرجـة أكثر بكثير مما تصور هوايت.

ذلك أن البحوث العلمية والاكتشافات الفلكية والتجـارب الذرية والفسيولوجية قد وصلت إلى درجة تثيـر الـذهول، درجة يفوق الواقع فيها الخيال وتجـاوز الحقيقـة الخرافـة وتصيب المتابع لها بنوع من الدوار أو "الدوخة" التي تعقـب تلقيه ضربة على أم رأسه ! فما أبعد صورة الكون اليوم عن الصورة القديمة الساذجة التي كان الشاعر يصور فيها النجوم المتوهجة على صفحة السماء بحبات مـاس علـى صـدر غانية... أو عندما يشتط به الخيال فيبدع عمالقة وأقزام مثل عمالقة وأقزام "سويفت" أو يتصور عوالم أسـطورية مثـل عوالم السندباد البحرية وسيف بن ذي يزن... إن هذه الصور كلها أصبحت ساذجة، بدائية أمام تقدم العلوم في المجـالات الثلاثة الهامة: الفلك والطبيعة النووية... والفسيولوجيا.. وها هي ذي صورة مبسطة جدا.

---

[٣٥] قصة النزاع بين الدين والفلسفة للدكتور توفيق الطويـل – مكتبـة الآداب. ص ٢٥٦.

"إن كوننا هذا فسيح جدا. ولكي نفهمه نتصور طـائرة خيالية تسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل في الثانية الواحدة – وإن هذه الطائرة الخيالية تطوف بنا حول الكون الموجـود الآن. إن هذه الرحلة الخيالية سوف تسـتغرق ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة يضاف إلى ذلك أن هذا الكون ليس بمتجمد. وإنما هـو يتسع كل لحظة حتى أنه بعد ١,٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة تصير هذه المسافات الكونية ضعفين وهكذا لن تستطيع هذه الطائرة الخارقة في سرعتها الخيالية أن تكمل دورتها حـول الكـون أبدا – وإنما سوف تظل تواصل رحلتها في نطاق هذا التوسع الدائم في الكون.

ويقدر علماء الفلك أن هذا الكون يتألف من خمسـمائة مليون من مجـاميع النجـوم مضـروبا هـذا العـدد فـي ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ وفي كل مجموعة منها يوجـد مائة مليار من النجوم – أو أكثر أو أقل ويقدرون أن أقـرب مجموعة من النجوم – وهي التي تراها في الليـل كخيـوط بيضاء دقيقة – تضم حيزا مداه مائة ألف سنة ضوئية ونحن سكان الأرض – نبعد عن مركز هـذه المجموعـة بمقـدار ثلاثين ألف سنة ضوئية. وهذه المجموعة جزء من مجموعة

كبيرة تتألف من سبع عشرة مجموعة، وقطر هذه المجموعة الكبيرة (ذات السبع عشرة) مليونًا من السنين الضوئية...[٣٦].

فإذا انتقلنا من عالم الجسامة الفلكية اللانهائية التي تقاس مسافاتها بألوف السنوات الضوئية (الضوء يقطع ١٨٦ ألـف ميل في الثانية) إلى عالم الذرات، وجـدنا مـا يقابلـه فـي التركيب والانتظام.. ولكن في حدود من الضآلة لا يمكن أن نشاهدها بمنظار يكبرها ملايين المرات.. هي الـذرة وهـذه الذرة المتناهية في الضآلة يـدور بـداخلها نظـام كنظـام المجموعة الشمسية، فهي تضم مجموعة مـن الإلكترونـات التي تشغل من مساحة الذرة $\frac{١}{١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠}$ (التي لا ترى بأكبر مجهر إنساني) والإلكترون يدور حـول البروتون – الذي هو الجزيء الإيجابي في الـذرة – بـنفس النظام الذي تتبعه الأرض في مدارها حول الشمس[٣٧].

---

[٣٦] الإسلام يتحدى – وحيد خان – الطبعة الثامنة من ٥٢ إلى ٥٤.

[٣٧] المرجع السابق من ٥٢ إلى ٥٤ .

فإذا انتقلنا إلى الأعضاء البشرية... من مخ أو عـين أو يد... إلخ ففي المخ عشرة مليارات خلية عصبية تستطيع أن تسجل ٨٦ مليون معلومة كل يوم وتتبع الذاكرة خلال فتـرة حياة الإنسان إلى مائة ألف مليار معلومة.

فهذه النتف التي أخذت عرضا من كتـاب غيـر فنـي بغرض التبسيط – قد أثبتت للإنسان المعاصـر أن الكـون أعظم وأكثر تعقيدا وإعجازا من كل مدى كان يمكن لخيـال الإنسان القديم أن يصل إليه. بحيث لا يمكن أبـدا افتـراض المصادفة أو التكوين العشوائي. والتفسير الوحيد لوجود مثل هذا الكون المعجز هو وجود ا تعالى.

فقد كان هناك – كما قال فرانك ألن – عـالم الطبيعـة البيولوجية – أربعة احتمالات. الأول أن يكون هـذا الكـون مجرد وهم وخيال... وهو ما يتعارض مع الوجود الماثـل. والثاني أن يكون الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم. وهو كذلك لا يقل عن سابقه سخفًا. وقد صور القرآن في إيجـازه وإعجازه سخافة ذلك ﴿ أَم خُلِقُوا مِـن غَيـرِ شَـيءٍ أَم هـم الْخَالِقُون ﴾ (٣٥ الطور) الاحتمال الثالث أن يكون هذا الكون أزليا – ليس لنشأته بداية وهذا احتمال يشترك مع الرأي الذي

ينادي بوجود خالق لهذا الكون. وذلك في عنصر واحد هـو الأزلية. وإذن فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق – وليس هنـاك صـعوبة فكرية في الأخذ بأحد هـذين الاحتمـالين أكثـر ممـا فـي الآخر[٣٨]. لكن قوانين الديناميكا الحراريـة تـدل علـى أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا. وأنه سائر حتمـا إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحـرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق – ويومئذ تنعدم الطاقـة وتستحيل الحياة، وهذا دليل واضح على أن أصـل الكـون

---

[٣٨] ا يتجلى في عصر العلم: ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيـد سرحان ص ٧ وفي قول الكاتب "وليس هناك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد هذين الاحتمالين تساهل كبير" ويبدو أنه لم يشأ أن يعالجه بـادئ ذي بدء، وترك للأدلة العملية تفنيد فكرة أزلية للكون. وهو ما دلل عليه بفكرة فناء الكون لأن النشاط الحيوي يؤدي إلـى نضـوب الطاقـة. ومعنى هذا أن الكون ليس أزليا وإلا لاستهلكت طاقته من زمـن بعيـد وتوقف كل نشاط في الوجود. وهكذا توصل العلم – دون قصد – إلـى أن لهذا الكون بداية ... وهو بذلك يثبت وجود ا . لأن ماله بداية – لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه – ولا بد له من مبدئ أو محرك أولي ... أي خالق.

أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة. فهو إذًا حدث – ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس لـه بداية، وأنه عليم محيط بكل شيء – قوي ليس لقدرته حـدود ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه.

ويعدد الكاتب الخصائص التـي يتميـز بهـا الكـون ولا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية.

فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حـول نفسـها – فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار – وهي تسبح حول الشمس مرة كل عام فيكون في ذلك تتابع الفصول – الـذي يـؤدي بدوره إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكن. ويزيـد مـن اختلاف الأنواع النباتية... ويحيط بالأرض غـلاف غـازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها إلى ارتفـاع كبير (يزيد على ٥٠٠ ميل) ويبلغ هذا الغلاف الغازي مـن الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يوميا إلينا. منقضة بسرعة ثلاثين ميلاً في الثانية. والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجـة حرارتهـا فـي الحـدود المناسبة للحياة، ويحمل بخار الماء مـن المحيطـات إلـى مسافات بعيدة داخل القارات حيث يمكن أن يتكـاثف مطـرا

يحيي الأرض بعد موتها – والمطر مصدر الماء العـذب – ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية.

وكثيرا ما يسخر البعض من صغر حجم الأرض بالنسبة لما حولها من فـراغ لا نهـائي – ولـو أن الأرض كانـت صغيرة كالقمر – أو حتى لو أن قطرها كان ربـع قطرهـا الحالي لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوي والمائي اللذين يحيطان بها. ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حد الموت.

أما لو كان قطـر الأرض ضـعف قطرهـا الحـالي لتضاعفت مساحة سطحها أربعـة أضـعاف – وأصـبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ما هي عليه – وانخفض تبعا لـذلك ارتفاع غلافها الهوائي وزاد الضغط الجوي من كيلو جـرام واحد إلى كيلو جرامين على السنتيمتر المربع – ويؤثر كـل ذلك أبلغ الأثر في الحياة، فتتسع مساحة المنـاطق البـاردة اتساعا كبيرا وتنقص مساحة الأرض الصالحة للسكن نقصـا ذريعا – وبذلك تعيش الجماعات الإنسانية منفصلة – أو فـي أماكن متنائية فتزداد العزلة بينها – ويتعذر السفر والاتصال. بل قد يصبح ضربا من الخيال.

ولو كانت الأرض في حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التي عليها ١٥٠ ضعفًا ولنقص الغلاف الجوي إلى أربعة أميال ولأصبح تبخر الماء مستحيلاً ولارتفع الضغط الجوي إلى ما يزيد على ١٥٠ ك جرام على السنتيمتر المربع ولوصل وزن الحيوان الذي يزن حاليا رطلاً واحدا إلى ١٥٠ رطلاً. ولتضاءل حجم الإنسان حتى صار في حجم السنجاب ولتعذرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات.

ولو أزيحت الأرض إلى ضعف بعدها الحالي عن الشمس لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية. وقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول وتضاعفت تبعا لذلك طول فصل الشتاء – وتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض. ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما هي عليه الآن، لبلغت الحرارة أربعة أمثالها وتضاعفت سرعتها المدارية حول الشمس ولآلت الفصول إلى نصف طولها الحالي.

وعلى ذلك فإن الأرض بحجمها وبعدها الحاليين عن الشمس وسرعتها في مدارها تهيئ للإنسان أسباب الحياة

والاستمتاع بها في صورها المادية والفكرية والروحية، على النحو الذي نشاهده اليوم في حياتنا.

ويعود المؤلف إلى مناقشـة فكـرة المصـادفة التـي يطرحها البعض بديلاً عن ا .

".. فإذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكم وتصميم سابق فلا بد أن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة – فما هي تلـك المصادفة إذن حتى نتدبرها ونرى كيف تخلق الحياة".

إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسـس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثمـا انعدم الحكم الصحيح المطلق وتضع هذه النظريـات أمامنـا الحكم الأقرب إلى الصواب مع تقدير احتمال الخطأ في هـذا الحكم. ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال مـن الوجهة الرياضية تقدما كبيرا حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التي نقول إنها تحـدث بالمصـادفة والتي لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى (مثل قذف الزهر في لعبة النرد).

وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسـات قـادرين علـى التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة. وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في ميدان معين من الزمان.

ولننظر الآن إلى الدور الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة.

إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية وهي تتكون مـن خمسـة عناصـر هـي الكربـون والأيدروجين والنتروجين والأكسجين والكبريت. ويبلغ عـدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد ٤٠٠٠٠ ذرة – ولمـا كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة ٩٢ عنصرا موزعة كلها توزيعا عشوائيا فإن احتمال اجتمـاع هـذه العناصـر الخمسة لكي تكون جزئيا من جزئيات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطًا مستمرا لكـي تؤلف هذا الجزيء ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمـة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد وقد قـام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين جاني بحساب هذه العوامل جميعا. فوجد أن الفرصـة لا تتهيـأ عـن طريـق

المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة ١ إلى $١٠^{١٦}$ أي بنسبة ١ إلى رقم ١٠ مضروبا في نفسه في ١٦٠ مرة. وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات وينبغي أن تكون المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له هذا الكون بملايين المرات – ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة عددا لا يحصى من السنوات قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين ($١٠^{٢٤٣}$ سنة).

إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات ؟ إنها إذا تألفت بطريقة أخرى غير التي تألفت بها تصبح غير صالحة للحياة. بل تصير في بعض الأحيان سموما.

وقد حسب العالم الإنجليزي ج. ب ليسز j.b. Leathes الطرق التي يمكن أن تتألف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ الملايين ($١٠^{٤٨}$) وعلى ذلك فإنه من المحال عقلاً أن تتألف كل هذه المصادفات لكي تبني جزئيا بروتينيا واحدا.

ويستطرد الكاتب:

ولكن البروتينات ليست إلا موادا كيماوية عديمة الحيـاة ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيـب الذي لا ندري من كنهه شيئًا. إنه العقل اللانهائي – وهو ا وحده... [٣٩] .

ويعالج عالم آخر هو جون كليفلاند كـوثران القضـية نفسها من زاوية البروتونات الموجبة والإلكترونات السـالبة. والنيوترونات التي يعتبر كل منها ناشئًا عن اتحاد بروتـون واحد مع إلكترون واحد – والنظام الذي يحكمهـا، والـذي يجعل جميع البروتونات التي بالذرة الواحدة تقع فـي نـواة مركزية – أما الإلكترونات فإنها تدور حول محاورهـا فـي مدارات مختلفة حول النواة وعلى أبعاد شاسعة منها مكونـة ما يشبه مجموعة شمسية مصغرة... وهـي كلهـا تخضـع لقـوانين دقيقـة لا يتصـور أن تـأتي نتيجـة للعشـوائية أو المصادفة [٢].

---

[٣٩] ، (٢) المرجع السابق من ٨ إلى ١٢ .

ويرى رسل تشارلز أرنست وهو أحد علماء الأحياء أن أبسط الخلايا – نباتية أو حيوانية – تعمل بدرجة من الدقـة يتضاءل بجانبها أقصى ما وصل إليه الإنسان من دقـة فـي صناعة الساعات ولا يمكن للعقل البشري أن يتصور وجـود آلة دقيقة كالساعة بمحض المصادفة ودون الاستعانة بالعقـل المفكر واليد الماهرة وبالتالي يصـعب – أو يسـتحيل – أن يتصور أن أبسط خلية تعمل بدقة تفوق السـاعة – وجـدت بنفسها أو نتيجة للمصادفة [٤٠].

وأثار عالمان أسهما في وضع كتاب: "**ا يتجلـى فـي عصر العلم**" الذي استشهدنا به في الفقرات السابقة نقطة هامة هي استخدام العجز عن إدراك الظواهر الكونية أو البيولوجية للتدليل على وجود ا ومع هذا فقد قال أحدهما – تشـارلز أرنست وهو عالم أحياء "لقد وضعت نظريات عديـدة لكـي تفسر لنا كيف نشأت الحياة من عالم الجمادات. فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت مـن البروتـوجين أو مـن الفيروس أو من تجمع بعض الجزيئات أو البروتينية الكبيرة.

---

[٤٠] المرجع السابق ص ٢٦.

وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء. وعالم الجمادات. ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهـود التـي بـذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بخـذلان وفشل ذريعين.

وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشـأة الحياة فهذا شأنه وحده. ولكنه إذ يفعل ذلك فإنما يسلم بـأمر أشد إعجازا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود ا الذي خلق هذه الأشياء [٤١].

وحذر العالم الثاني – وهو جون أدولف بـوهلر وهـو أستاذ كيماوي من "أن نقع في نفس الخطأ الـذي وقـع فيـه الأقدمون. عندما اتخذوا آلهة لكي يجدوا تفسيرا لما غمـض عليهم وحددوا لكل إله قدرته – وعينوا له وظيفـة ودائـرة تخصصه – وعندما تقدمت العلوم وأمكن فهـم كثيـر مـن الظواهر الغامضة ومعرفة القوانين التي تخضع لها – لم يعد هؤلاء الناس في حاجة إلى الآلهة التي أقاموها. بل إن كثيرا

---

(٤١) المرجع السابق ص ٧٩ .

من البشر أنكروا وجود ا لنفس هذا السبب، والواجـب أن نتلمس قدرة ا في النظام الذي خلقه والقوانين التي أخضـع لها جميع الظواهر والأشياء. فقد يستطيع الإنسان أن يفسـر ما كان غامضا عليه باكتشاف القوانين التي تحكمها. ولكـن الإنسان عاجز عن أن يسن تلك القوانين فهي من صـنع ا وحده. ولا يفعل الإنسان أكثر من أن يكتشفها ثم يسـتخدمها في محاولة إدراك أسرار هذا الكون. وكل قـانون يكتشـفه الإنسان يزيده قربا من ا وقدرة على إدراكـه فتلـك هـي الآيات التي يتجلى بها ا علينا[٤٢].

وما قاله الباحث هو ما يمكن أن توحي به إلينا الآية:

﴿ سنُريهم آياتِنَا فِي الآفَاقِ وفِي أَنْفُسِهم حتى يتَبين لَهم أَنه الْحق﴾ فبقدر ما تتكشف للنـاس مـن آيـات ا بقـدر ما يزداد إيمانهم با . وقد تصور البعض أن اكتشاف العلـم الحديث لكثير من الظواهر التي اختص ا بها نفسـه مثـل معرفة نوع الجنين أو سـر نـزول الأمطـار أو كسـوف الشمس... إلخ يزلزل الإيمان. ولكن الآية تعلن بصريح اللفظ

---

[٤٢] المرجع السابق ص ١٠٥ .

أن ا تعالى "سيري" الناس هذه الآيات في الكون وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. فليس هناك تعارض بين اختصاص ا تعالى بهذه المعرفة وقت نزول القرآن... أو بعده بأجيال. ثم إطلاعه الناس عليها وكشفه عنها بعد فترة ليزدادوا إيمانًا.

ويعد تقدم العلم مصداقًا لذلك فيما سبق أن أوردنا وما كشفت عنه آخر مباحث العلم. فبعد نشر نظرية النسبية العامة توصل العلماء إلى أن الكون يتمدد وأن المجرات تتباعد بعضها عن بعض. وهذا يدل على أنها كانت في الماضي السحيق متحدة مما يدل على أن للكون بداية.

ثم جاءت إشارة ثانية من مجال الفيزياء النووية فلقد كان كيميائيو القرن التاسع عشر يعرفون أن الشمس لا يمكن أن تحرق وقودا تقليديا. فالاحتراق الكيميائي العادي لم يكن يصلح تفسيرا لطاقة الشمس. إذ لو كانت كتلة الشمس كلها فحما لأحرقت نفسها في غضون ثلثمائة عام. وظلت الشمس لغزا إلى حين اكتشاف الطاقة النووية – في السنوات الأولى من القرن العشرين. وأخيرا تمكن الفيزيائيان هانز بيته Hans Bethe وكارل فون فايتنرساكر Carl Von

Weizsacker في عام ٣٨ من تقديم تفسير كامـل لكيفيـة إنتاج الشمس للطاقة من خلال تحول العناصر النووية. ففـي قلب الشمس يتحول الهيدروجين إلى هليـوم منتجـا الطاقـة والضوء وعلى ملايين السنين كانت العمليات التي تتم داخل كل نجم تكون شيئًا فشيئًا لا الهليوم فحسب بل جميع العناصر الأثقل: الكربون، الأكسجين والسـيلكون والحديـد وسـائر العناصر، وكان معنى ذلك أنه إذا كانت كل العناصر الثقيلـة في الكون قد تكونت من الهيدروجين فـي قلـوب النجـوم، فلا بد إذًا من أن الكون كله تقريبا كان مركبا في البداية مـن الهيدروجين، وهذا يدل مرة أخرى على أن للكون بداية.

وأخيرا تقدم الفيزيـائي جـورج جـاموف George Gamowf عام ١٩٤٨ بعد أن جمع الأدلة المسـتمدة مـن تباعد المجرات ومن دورة حياة النجوم برأي مفاده أن الكون نفسه نشأ من تمدد بدئي للمادة أطلق عليه "الانفجار العظـيم" ويفترض أن كرة النيران فائقة الحرارة قد تمـددت بسـرعة كالانفجار ثم بردت وباستخدام الفيزياء النووية بين جـاموف كيف أن الجسيمات دون الذرية التي كانت موجودة في أسبق المراحل أنتجت – بتأثير درجات الحرارة والضغوط اللاحقة،

ذرات الكون حديث النشأة، وفضلاً عن ذلك بين أنه نتيجـة التمدد والتبريد، لا بد من تشتت وهج خافت مـن الإشـعاع الأساسي بشكل منتظم في جميع أرجاء الكون.

وظل تنبؤ جاموف معلقًا طوال عدة أعوام ثم اكتشـف آرنو بنزياس Arno Penzias وروبرت ويلسون Robert Wilson في عام ١٩٦٥ بمحض الصدفة وباستخدام جهـاز ضخم لالتقاط الموجات الصغرى إشعاعا ضعيفًا منبعثًا مـن الفضاء. وبعد أن قاس بنزياس وويلسون هذا الإشعاع بدقة لم يسبق لها مثيل وجد أنه يقرب من ٣,٥ فوق الصفر المطلق. ولم يكن الإشعاع أشد كثافة في اتجاه الشمس أو فـي اتجـاه مجرة درب التبانة (Milky way) ولذا لا يمكن أن تكـون المجموعة الشمسية أو المجرة مصدر هذا الإشعاع فلم يبـق إلا تفسير واحد وهو أنه بقيه من الإشعاع الأصلي الناتج من "الانفجار العظيم" وهذا الدليل القائم على المعاينة أكد نظريـة "الانفجار العظيم".

فعالمنا إذًا تولد في أعقاب تمدد هائل في المادة ويشـير حجم التمدد ومعدل سرعته الحاليان إلى أن الكون بدأ منذ ما يتراوح ما بين ١٢ و ٢٠ مليار سـنة. وفـي جـزء مـن

السكستليون sextillion ($١,٠٠٠,٠٠٠^{٦}$) من الثانيـة بعـد البداية كانت كل المادة الموجودة في الكون معبأة في مساحة أصغر كثيرا من الحيز الذي يشغله بروتون واحد. وكانـت الكثافة في تلك المرحلة تهول الخيال، فتصور أن الكواكـب والنجوم والمجرات بكاملها وكل المادة والطاقة فـي الكـون كانت جميعها محتواه في حيز لا يكاد حجمه يعادل شيئًا وفي لحظة الصفر من بداية الزمن كانت الكثافة غير متناهية دون حدوث أي تمدد في المكان على الإطلاق. وكانت تلك اللحظة بداية المكان والزمان والمادة [٤٣]. وتحققت في "ومضة ضوء وطاقة"، أو بتعبيرنا الإسلامي "كن فيكون".

وهذا العرض لتتابع البحث العلمي منذ اكتشف أينشـتين نظرية النسبية في أوائل القرن. حتى تناولها عشرات العلماء. وكل واحد يكتشف جانبا يسلمه إلى آخر ليقدم إضافته ويدفعه لثالث حتى ينتهي العالم إلى ما عبر عنه القرآن في كلمتـين

---

[٤٣] العلم في منظوره الجديد – تأليف روبرت .م. أغروس . جورج . ن . ستانسيو – ترجمة كمال خلايلي – عالم المعرفة – الصفحات ٦٠ – ٦٤ .

"كن فيكون" ولو وجدت في الألفاظ ما هو أكثر اختزالاً من هذا لعبر بها القرآن. ولكن الناس ما كانوا ليؤمنوا به ولا يستوعبوا بعد "كن فيكون".

وقد توصل العلم الحديث إلى أدلة أخرى عديدة بيد أنها أكثر فنية. أثبت بها أن الانفجار العظيم وما تلاه وتكوين الكون إنما أريد به وجود الإنسان... وأن يكون صالحا للإنسان وهي اكتشافات تعيد للإنسان مرة أخرى مكانته المجيدة بين المخلوقات التي قررتها له الأديان السماوية. ثم جاءت علوم القرن التاسع عشر ونظريات نيوتن وداروين لتبددها... فجاءت أبحاث القرن العشرين لتعيدها وتقيمها على أسس علمية.

إن مسيرة العلم الحديث ليعرض لنا قصة أكثر روعة وأبعد في إثارة الدهشة والعجب من كل ما توصل إليه الخيال القديم في ألف ليلة وليلة وما تضمنته الأساطير القديمة أو ما تحفل به بعض موسوعات التفسير والحديث من الإسرائيليات ومزاعم الوضاعين.

ويستطرد مؤلفا "العلم في منظوره الجديد".

فهل من مكان لإله في كون مثل هـذا؛ إن الفيزيـائي إدموند ويتاكر Edmund Whittaker يعتقد كذلك فهو يقول ليس هناك ما يدعو إلى أن نفترض أن المادة والطاقة كانـا موجودتين قبل الانفجار العظيم وأنه حـدث بينهمـا تفاعـل فجائي فما الذي يميز تلك اللحظة عن غيرها من اللحظـات في الأزلية؟ والأبسط أن نفترض خلقًا من العدم، أي إبـداع الإرادة الإلهية للكون من العدم وينتهي الفيزيائي إدوار مـين Edward Miene بعد تفكيره في الكون المتمدد إلـى هـذه النتيجة: أما العلة الأولى للكون في سباق التمدد فأمر إضافتها متروك للقارئ، ولكن الصورة التي لدينا لا تكتمل من غيـر ا .

ولما كان لا يمكن تصور عدم وجود أي شـيء علـى الإطلاق من قبل الانفجار العظيم كما أنه لا يمكن أن يكـون ماديا، لأن للمادة بداية، ولما كانت الحقيقـة غيـر الماديـة الوحيدة هي العقل (وتلك نقطة سنعود إليهـا [٤٤]) فـالفرض

---

[٤٤] انظر الفصل السابع فقرة "خلود الروح من منظور طبي".

الوحيد أمامنا أن المادة هي من خلق عقل أزلي، أي باختصار ا .

دليل الجمال :

هناك دليل لم ينل ما يستحق من أهمية. وقد لا نجد إشارة إليه في كل الكتب الإسلامية التي وضعت للبرهنة على وجود ا كما قد يكون الأمر كذلك في معظم الكتب الأوربية التي صدرت لهذا الغرض. هذا العامل هو الجمال الذي يتبدى للعين في الكائنات جميعا. في الزهور وألوانها الساحرة والفراشات وأجنحتها المزركشة وفي ندف الثلج التي تأخذ أشكالاً يستلهمها مصممو المنسوجات وصانعو الحلي والمجوهرات... دع عنك جمال الإنسان... ذكرا وأنثى... وخلقه في "أبدع تكوين".

إننا نؤمن أن ما نلحظه من مشاهد الجمال في الطبيعة والحيوان والنبات والإنسان – دلالة لا تخطئ على وجود خلاق هو أصل هذا الجمال ومصدره... قدر ما هو دعوة للاعتبار والعظة والاستلهام ومنة من ا تعالى على الإنسان للاستمتاع به وتذوقه.

والجمال بهذه الصفة أي باعتباره شعاعا من الأصل الإلهي الجميل له صلة بعالم الحقيقة والقيم وهو يتجلى في النظريات العلمية – والمنشآت المعمارية وتقتضي أصول الجمال إبعاد كل ما يعد فضولاً، أو ما يسيء إلى التناسق أو البساطة أو الحقيقة.

وليس هناك من مبرر مادي أو نفعي لوجود الجمال فمن الناحية النفعية يمكن لأداة بشعة المنظر أن تكون أفضل – عمليا – من أداة جميلة المنظر، ومع هذا فقد يفضل الإنسان الأداة الجميلة لأنها تشبع حاسة الجمال وتتجاوب مع نزعة تذوقه بالمخالفة لمنطق المنفعة. كما لا يمكن أن نفسر وجود مشاهد الجمال بالمصادفة لأن مشاهد الجمال تتبدى في كل مظاهر الطبيعة وتصدر عن قوانينها وطريقة عملها. فالجمال لا يمكن أن يفسر بالضرورة أو المصادفة لأنه قيمة من القيم ووجود صور عديدة مجسمة للجمال لا ينفي أن يكون له في بعض الحالات جانبه المبدئي الذي يجعله قيمة كالعدل والخير والصدق إلخ...

وقد عجز داروين عن أن يعلل الجمال في الصوت الإنساني، وما حبي به الإنسان من موهبة موسيقية وقال:

".. وحيث أن الاستمتاع بالأنغام والقدرة على إطلاقها ليسـا من الملكات التي تعود على الإنسان بأدنى منفعة في عاداتـه اليومية الحياتية، فلا بد أن نضيفها في عدد أكثـر الملكـات التي حبي بها غموضا [٤٥].

قد يقول البعض إن الجمال يرتبط بالغريزة الجنسية في الإنسان، والحيوان، بل والنبات أيضا. وهو يستثير الحـواس لتنشيط أداء هذه الوظيفة، ولكن هذا القول ليس حجة علينـا، بل هو حجة لنا، لأن الجمال يضفي هالة من العاطفة علـى الغريزة ويزجيها في غلاف رقيق منمق جميل بحيث تـؤدي أداء تسمو به من مجرد الميكانيكية الغريزية إلـى العاطفـة الإنسانية.

على أننا نجد الجمال في غروب الشمس، وفي تمـاوج الموج، وفي الوردة ذات الأوراق الناعمـة الملتفـة بـألوان ساحرة، وشذى عاطر، وكأنها ترتدي ثوبـا مـن القطيفـة لا يخفى، بل يعلن نضـارتها، كمـا لـو أنهـا درة ثمينـة

---

[٤٥] استشهد بها في كتاب – العلم في منظوره الجديد – مرجع سابق – ص ٧٢ .

أو جوهرة مكنونة، وليست وردة علـى عـرض الطريـق أو سفوح الجبال مبذولة للجميع، ويوجد منها الملايين.

وهذه كلها بعيـدة كـل البعـد عـن معـاني الجـنس والغريزة... وهي متاحة في كل وقت، وفي كل مكان ما لـم تشوهه يد الإنسان.

والحق أن الجمال من أكبر نعم ا على الإنسان. وهـو يثبت – بالإضافة إلى وجود ا تعالى كرمه وقدرتـه علـى خلق كل هذه الصور من الجمال الفائق الرائع فـي الطبيعـة والنبات والإنسان نفسه فمن ذا تكون له القـدرة علـى هـذا الخلق والإبداع؟ من ذا يكون له الكرم والاستغناء والتفضـل بحيث يقدم كل هذه المشاهد مجانًا ودون مقابل، ودون ثمـن تذكرة لمشاهدتها غير ا تعالى. وهو أيضا ينم علـى أن ا تعالى أراد للإنسان وجودا حضاريا يتحقـق لـه فيـه هـذا العنصر الثمين وسخر له مشاهده في الكون وفـي الأرض. ولولا تلك اللمسة من الجمال التي غرسـها ا تعـالى فـي الإنسان ويسرها له في الأرض لعاش الإنسـان كـالحيوان، ولما كان هناك حاجة إلى اللبس الأنيق أو السـكن الجميـل

أو عالم الفنون والآداب الفسيح بما فيه من موسيقى، وشـعر ورسم... إلخ.

ولما كان هناك العاطفة جنبا إلى جنب الغريزة.

إن الاستغراق في تأمل وردة، أو فراشة هو نوع مـن العبادة لأنها آيات بينات على قدرة ا . لا يجـوز أن نمـر عليها معرضين لاهين. وهنا يتلاقى الفن والجمال والعبادة.

وإنه لمن الغريب حقًا ألا نجد في كتب العقائد التي تعنى بإثبات وجود ا تعالى وصفاته هذا الدليل رغم أنه يشـمل معظم مظاهر الحياة – بالنسبة للإنسان وبالنسـبة للحيـوان والنبات أيضا، وأن القرآن الكريم قد عني به وأبرزه في أكثر من موضع. وأن بعض الصوفية قد استشفوا شيئًا منه. ولكن الذين جعلوه مدخلهم للعقيدة هم ولا حـرج الفنـانون الـذين التقطت حواسهم المرهفة ومشاعرهم الرقيقة مشاهد الجمال، فآمنوا با ... وهم في هذا كالعلماء الذين آمنوا با باعتباره "العقل الكوني"، أو علماء الاجتماع والنظم والفلاسفة الـذين رأوا فيه المثل الأعلى والأصل الموضوعي الأعظم والمطلق للحق، والعدل والحكمة وللسنن التي يسير عليها المجتمع.

والفرق بين خلق ا الذي يتسم بالجمال، وخلق الإنسان كبير، وأذكر أني رأيت على شاشة التليفزيون آخر نمط للروبوت صنعه اليابانيون بفضل أحدث تكنولوجيا. وكان الروبوت يتقدم ويتأخر، وينحني وهو يقدم وردة لسيدة، وتلي هذا مباشرة عرض لإحدى بطلات "الترابيز"، وهي تنتقل من عقلة إلى عقلة أخرى، وتنحني وتدور وتلف. وتتجاوب تلقائيا، وفي سرعة البرق مع متطلبات كل حركة فما أعظم الفرق بين لاعبة الترابيز الرشيقة المتزنة وأعضائها المتناسقة الجميلة. وإشراقة الحياة، ونضارة الصحة، باختصار جمال الخلق الإلهي من لحم ودم وتكوين عضوي وحياة. لقد بدا الروبوت الياباني وكأنه قطعة عتيقة بالية صنعها إنسان بدائي ليس فيها جمال، وما أبشع حديده وأعضاءه وأبعده عن التكوين العضوي النضر، المتناسق وما أبطأ حركاته وأثقلها إذ قيس بحركاتها الحرة الطليقة.

فإذا كان الإنسان يعجز عن أن يخلق امرأة جميلة نضرة كفتاة الترابيز فإنه يعجز أيضا عن أن يخلق نمرا له فتوة وانطلاقة ومرونة وسرعة النمر في الغابة. فالخلق الإلهي يتميز في الكائنات بجمال يعجز الإنسان عن أن يساميه سواء

كان هذا الجمال في المرونة أو التناسب إلى غير ذلك من عناصر الجمال، وإن ما توصل إليه الإنسان في هذا المجال تقليد فقير بالنسبة لما خلقه ا تعالى.

وقد افتتن اليونانيون القدامى بجمال الجسم الإنساني فغلبت "فينوس" إلهة الجمال، "هيرا" إلهة الحكمة... كما توله بعض الكتاب والفنانين الأوربيين والأمريكيين، بنساء فائقات الجمال، ولكن فارغات العقول. وقد أخطأوا جميعا فإنما الجمال آية من آيات ا ، مثله كالشمس والقمر، وبالإضافة فإن جمال الجسم الإنساني لا يفترض – ضرورة – توفر الحكمة. بل قد يكون – بتركيزه على الشكل – مناف لها – بطريقة ما، ومن ثم فلا يتصف هذا الجمال بالكمال الذي يجب أن يتوفر في الإله المعبود، وهذه الواقعة هي من أدلة تفرد ا تعالى بالكمال، وأن ما عداه إنما هي مشاهد من قدرته، وأدلة على حكمته.

دليل القرآن الكريم:

يظل دليل القرآن في النهاية أنصع الأدلة، وأكثرها بساطة ونفاذًا إلى النفوس، وفي الوقت نفسه أقواها وأكثرها منطقية. وهو يبرأ من كل شوائب النقص والقصور فيما

أوردناه من اجتهادات للمفكرين والفلاسفة ومن صور التعقيد والفنية التي يعسر على بعض الناس فهمها أو تتطلب ثقافـة خاصة. إن دليل القرآن يفهمه أبسط الناس ممن لا يلم بقراءة أو كتابة ويرتضيه أكثر الفلاسفة والعلماء تبحرا وتعمقًـا... وقد جاوز في تأكيده وقوته مرحلة الإثبـات إلـى مرحلـة التحدي. وذلك لأنه يقوم على حقيقة أساسية لا يستطيع أحـد أن ينكرها وهي "الخلق". فهل يعقل أن تكون هذه السماوات، هذا السقف السماوي الجميل الباهر من غير عمـد، وهـذه الشموس والنجوم التي تجري لمستقر لها ﴿ لاَ الشمس ينبغِي لَها أَن تُدرِك القَمر ولاَ الليلُ سابِقُ النهارِ وكُـل فِـي فَلَـكٍ يسبحون ﴾ وهل يعقل أن تكون الحيوانات والحشـرات مـن النملة إلى الفيل والطيور صافات أجنحتها.. وهل يعقـل أن يكون هذا الإنسان ذكرا أو أنثى في أبدع تكوين.. هل يعقـل أن يكون هذا كله.. قد خلق دون خالق، أو أوجد نفسه بنفسه. ومتى حدث ذلك وكيف حدث.. فإذا كان هناك من ينكـر أن ا هو الخلاق العظيم فليرنا قدرته، وليخلق ذبابة وهي أهون الحشرات ﴿ لَن يخْلُقُوا ذُبابا ولَو اجتَمعوا لَه﴾ ﴿ وإِن يسلُبهم الذباب شَيئًا لا يستَنقِذُوه مِنْه﴾ .

ومن أسرار قسم القـرآن وضـربه المثـل بـالبعوض والذباب والعنكبوت والنمل والنحل، أن هذه تمثـل أصـغر المخلوقات ومع هذا فإن تكوينها معجز بالنسبة لحجمها، فمن المستحيل أن يخلق الإنسان طائرة في حجم البعوضة تطيـر مثلها بتلقائية ونعومة، وقل مثل ذلك على النحـل أو النمـل ونظامها العجيب...

ولا يكتفي القرآن بمنطقية دليل "الخلق" الذي يكاد يكون مغروسا في الفطرة، بل إنـه يسـوقه فـي أسـلوب أخـاذ لا يمكن أن يدفع من النظم فهو حينًا يرق حتى يصبح حريرا موشى.

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ* وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ* تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ* وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ* وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ* رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾.

وفي أحيان أخرى يكون قاطعا كالسيف البتار أو البرق الخاطف ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ ﴿قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقًا مما يكبر في صدوركم﴾ ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثانًا وتخلقون إفكًا﴾ ﴿قتل الإنسان ما أكفره* من أي شيء خلقه* من نطفة خلقه فقدره*﴾.

ولن نسهب في الحديث عن هذا الدليل، لأننا أشرنا إليه آنفًا في الفصل الرابع من هذا الكتاب، وحسبنا القول إن دليل القرآن هو أكثر الأدلة صدقًا ووضوحا وحسما في إثبات وجود الله تعالى وتنزيهه.

الشكاكون واللاأدريون:

لقد كان يفترض والأمر هكذا ألا يوجد من ينكر وجـود ا بين ذوي الحجى – ولكن القضية أكثر تعقيدا. ومن السنن التي وضعها ا تعالى لهذا الكون وجود النقائض والأضداد. وأن المجتمع لا يأخذ وضعه ولا تسير أمـوره دون وجـود "وجهة النظر الأخرى" ولو شاء ا تعالى لجعـل مجتمعنـا مجتمعا ملائكيا لا عمل له إلا التسبيح والتهليـل. ولكـن ا تعالى جعل مجتمعنا إنسانيا وألهم النفوس فجورها وتقواهـا وسمح بوجود قوى الشر والضعف بل إن القرآن الكريم يقرر أن الهداية هي حظ الأقلية. أما الأكثريـة فإمـا لاهيـة.. أو مفتونة بآراء الحياة الدنيا من سلطة أو جاه أو فتنة أو شهوات إلخ...

فليس من الغريب والأمر هكذا أن يوجد الذين يشـترون الذي هو أدنى بالذي هو خير، والذين يتفـادون كلمـة "ا " ليلوذوا بتعبيرات غامضة – متهافتة ليس لها مدلول حقيقـي وإنما تحيل على شيء آخر مثل "الطبيعة" لدى علماء الفيزياء أو "التطور" لدى علماء الأحياء أو "اليد الخفية" لدى علمـاء الاقتصاد السياسي.

وقد يصور اتجاههم كلمة جوليان هكسـلي "إذا كانـت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة" وهؤلاء وجدوا في القديم كما وجدوا في الحديث وقد صورهم القرآن فأحسن تصويرهم ﴿ وَإِذَا ذُكِـر ا ُ وحده اشْمَأَزتْ قُلُوب الَذِين لاَ يؤْمِنُون بِالآخِرةِ وإِذَا ذُكِـر الَذِين مِن دونِهِ إِذَا هم يستَبشِرون﴾ ٤٥ الزمر، فإذا لم تكـن الشقوة الغالبة هي التي جعلت هؤلاء يلوذون بذلك. فقد يعود سلوك بعضهم هذا المسلك إلى أنهم أرادوا ألا يقعـوا تحـت وصاية كنيسة أو أن يوضعوا في معسكرات مذهب... أو أن يتحكم فيهم السدنة ويفرضوا عليهم خرافاتهم المقررة (وهـذا ما اعترف به بعضهم).

ومن المحتمل أن بعضهم أراد التحرر مما يوجبه عليهم الاعتراف با من سلوك اجتماعي ومستوى فـي الحيـاة لا يقدرون عليه أو لا يريدونه، لأن جانب الاسـتمتاع بالحيـاة الطليقة أفضل لديهم.

وهناك بعد مـن آثـر أن يقـف علـى بـاب الشـك أو يعترف بالجهل.. فإن معظم الذين لم يعترفوا بوجود ا – لم يقطعوا بعدم وجوده فشكهم في الوجـود لا يرقـى إلـى

مستوى اليقين في عدم الوجود. وهو موقف يذكر لهم ويفهـم عند دراسة حالة كل واحد. والتعرف على الملابسات التـي أحاطت به والظروف التي دفعته لهذا الموقف. وقد لا يهمنـا كثيرا رأي فولتير الهازل الذي كـان "يفتـرض" وجـود ا ليحمي له أمواله وليضمن له ولاء خادمه وإخلاص زوجته ! ولا نرى فيه الحسنة الوحيدة التي ينسبونها إليه وهي "حريـة الفكر" لأنه أثبت جهله بكتابه "محمـد" الـذي افتـرى فيـه الأكاذيب على الرسول ثم زاد فأهداه متملقًا إلى البابا فأضاف النفاق إلى الجهالة، كما لا يهمنا كلام ماركس عـن الـدين كأفيون للشعوب لأنه ينظر إلى القضية من زاويـة محـدودة هي علاقات الإنتاج وهـي زاويـة لا علاقـة لهـا بالفلـك ولا الفيزياء، ولا القيم ولا الجمال وليست إلا ناحية واحـدة من النشاط المتعدد للكائن الإنساني، وهذا أيضا مـا ينطبـق على كلمات "فرويد" "إن أديـان البشـر يجـب أن تصـنف باعتبارها وهما من أوهام الجماهير وأن الأفكار الدينية نشأت من ضرورة حماية الإنسان لنفسه من قوة الطبيعة المتفوقـة والساحقة" وأن البشر لا بد لهم من أن يعترفوا لأنفسهم بكامل عجزهم وتفاهة دورهم في آلية الكون – فهم لا يسـتطيعون

بعد اليوم أن يكونوا محور الخليقة أو موضع عنايـة إلهيـة خيرة.

ونبوءته عن أن هذه الطفولية infantilism مقدور لها أن تتجاوز بالتأكيد، ويتحتم على الإنسان أن يتحلى بالشجاعة للاعتـراف بأنـه وحيـد فـي هـذا الكـون الفسـيح واللاشخصي، ففرويد طبيب وعندما يترك مجال الطب بـل حتى نظريته الخاصة، يتوه، ومن الظلم أن تطبـق مدرسـة التحليل النفسي على آليات الكـون أو الإليكتـرون وكلمـة اللاشخصي توحي بأنه يتصور – أو أن الناس يتصورون – إلها شخصيا وهذا أمر مستبعد بالطبع، حتى سـارتر الـذي يقول "لأني أعتقد وأؤمن بالحرية فإني لا أستطيع أن أكـون مؤمنًا معتقدا با لأنه لو قبلت ا فلا محالـة مـن قبـول القضاء والقدر ولو قبلت القضاء والقدر لم يمكن أن أختـار حرية الفرد ولأني أريد اختيار الحرية وأؤمـن بهـا فلسـت مؤمنًا با " لا ينكر أنه ولد "قضاء وقدرا" لم يستشر قبـل أن يولد لا في جنسه ولا في وطنه ولا في نفسه وأنه سـيموت ما في ذلك شك حتى لو آثر أن يموت بيده منتحرا (فقد مات قضاء وقدرا) وهذه الحقائق هي ما يمكـن أن يتعلـق بهـا

القضاء والقدر... ولا يجديه شيئًا أن ينكرها وله بعد هذا أن يعيش حرا دون أن يعاق رغبته في الحرية بقضية وجود ا أو حكمته، كما لن يكون الإيمان با قيدا على حريته لأن إله الفيلسوف لا بد وأن يكون أكثر فلسفة من الفيلسوف وأكثـر حكمة منه وتقديرا له، ويحق له إن لم ينصفه العدل أن يأمل الغفران.

نقول إن هؤلاء لا يهمونا كثيرا وإنما نهتم برأي مفكـر نحترمه مثل برتراند رسل يعـد فـي الـذروة مـن الفكـر والمواقف الإنسانية والحضارية منذ الحرب العالمية الأولـى حتى الحرب العالمية الثانية. وهو وريث صادق للحضـارة الأوربية. تأثر بكل ما فيها من عناصر الوثنية الإنسانية التي بدأت مع حقبتها اليونانية الرومانية. وحافظـت عليهـا فـي الحقبة الرأسمالية الاشتراكية وأنه كذلك ورث ذكرى الكنيسة ومحاكم التفتيش والتحكم في الرأي وكلها كانت تبعـده عـن الدين قدر ما تقربه من عالم الإنسان والدنيوية.

إن رسل عندما جوبه بالمشكلة التي جابهت كل الفلاسفة من قبله. وهي مشكلة "العلة الأولى" التي ترتبط عادة بحقيقة وجود الكون.. قال إن مشكلة وجود ماض غير متناه مشكلة

مرعبة إنه يستعصي على الفهم أن نتصـور أنفسـنا ورثـة لزمان تمهيدي غير محدود كما أن مسألة وجود لحظـة لـم تسبقها لحظة أخرى بدورها ليست بأقل استعصاء على الفهم، وفي النهاية يصل..

"إما ألا يصدق القانون الثاني للترموديناميك فـي كـل زمان ومكان أو أننا نكون قد أخطأنا في تصورنا لمحدوديـة عالم الوجود من الزاويـة المكانيـة ولكـن مادامـت هـذه الاستدلالات رائجة. فإني أرجح أن نقبل – بشكل مؤقـت أن العالم من خلال زمانه المتناهي – ابتدأ ولكـن مـن نقطـة مجهولة لدينا ترى هل نستطيع من هنا أن نستنبط أن العـالم خلقه خالق...

إننا إذا لجأنا إلى القوانين القائمة على أسلوب الاستنباط العلمي الموجه فإن الجواب سيكون بالنفي طبعا. فليس هناك من دليل على أن العالم لم يوجد دفعة واحـد غيـر مسـألة الاستغراب من مثل هذا الأمر.. ولكنه ليس هناك في الطبيعة أي قانون يدل على أن ما يبدو بتصويرنا أمرا غريبا يجـب ألا يقع.

إن اســتنباطًا عــن الخــالق يســاوي اســتنباط علة ما والاستنباطات العلية إنما يسمح بها في المجال العلمي إذا بدأت من القوانين العلية (الخلق من العدم شـيء يمتنـع بالتجربة)، ومن هنا فإن تصور أن يكون هناك خالق للعـالم ليس بأية حال أكثر منطقية من فرض أن العالم وجد من غير علة ذلك أن كلا الفرضين ينقضان قوانين العلية التي تقـدر على مشاهدتها بقوة معينة".

ورسل يعني بالجملة الأخيرة أنه إذا كان وجود ا يقوم على أن التسلسل العلمي لا يمكن أن يمضي بلا نهاية ولا بد أن توجد العلة الأولى التي هي علة العال فإن وجهة النظـر الثانية التي ترى أنه لا بد لكل علة من علة تنفي الافتـراض الأول فكل افتراض من هذين ينفي الآخر.

وأرجحية الافتراض الأول وهو أن التسلسل العلمـي لا يمكن أن يمضي بلا نهاية أقوى بكثير من الالتزام الصـارم بضرورات المنطق الصوري. وإذا وسع رسل - كعالم يؤثر اللاأدرية – ترجيح افتراض على افتراض. ما لم يكن ذلـك بدليل قاطع. فإن موقف اللاأدرية لا تسـتقيم عليـه الأمـور ويصبح من الضروري لرسل أن يحزم أمره... ولكن رسـل

نفض يديه من الأمر وتحول إلى عالم الرياضيات حيث وجد سلاما شبهه بسلام الإيمان الديني.

إن دراسة شخصية رسل وتطوره الفكري قد توضح لنا شيئًا ما مسلكه هذا. فهذا المفكر الذي ينحدر من إحدى الأسر البريطانية العريقة التي شغل بعض أفرادها رئاسة الـوزارة في القرن التاسع عشر بدأ حياته متمسكًا أو حتى متعصـبا.. بالمسيحية حتى هبت عليه رياح الشك مـع المراهقـة ومـا بعدها. فاقتلعت هذه الإيمـان – وأصـبح رسـل شخصـية مشـاركة فـي كـل حركـات التحـرر الفكريـة أو الجماهيرية أو السياسية في الوقت الذي تحول فيـه إلـى الفلسفة ومن الفلسفة إلى الرياضة وقد لاحظنا أن معظم مـا يستشهد به من أقوال لا تثبت على وجه القطع – وجود ا - هي من كتاباته الأولى. فترة مشاركته في المعارك الفكريـة والتحريرية. التي كان بعضها ضد الكنيسة ولكن لـم يتـابع تطوره الفكري في سنواته الأخيرة. وليس من البعيد أن يكون قد حدد موقفه أخيرا مع ا ... وليس مع الضياع واللاأدريـة ولا مراء في أن تصلبه العلمي حمله – ربما أكثر من اللازم على التصدي والوقوف مناقضا، فإذا كـان ولـيم جـيمس

يناصر " إرادة الاعتقاد" فإن رسل يناصر "إرادة عدم الاعتقاد" والأمر في حقيقته غير ذلك وأكبر من ذلك. وقد تناول وليم جيمس بالنقد موقف الحياد. واللاأدرية التي يرى بعض العقلانيين الالتزام بها وهي على كل حال أخف من موقف "إرادة عدم الاعتقاد" "لأن هذه الأخيرة مرفوضة عقلاً وعملاً ولا أعتقد أن رسل نفسه يقرها، فهي حتى بالنسبة لمفكر جاد ترف أو سقطة. وقد آمن رسل بأهداف نبيلة عديدة تجعله مؤمنًا من حيث لا يحتسب ولا بد من اعتقاد في ا أفضل من الاعتقاد في الشيطان، وأفضل من اللااعتقاد.

خاتمة الفصل:

كانت فكرة ا تعالى متغلغلة في الفطرة البشرية والبداهة تجاه خالق الكون بحيث لم يمكن تجاهلها. فآمنت أغلبية العلماء والفلاسفة بوجود ا وشذت أقلية فوقف بعضها عند الشك واللاأدرية.. بينما لاذ البعض الآخر بتعبيرات بديلة عن تعبير ا مثل الطبيعة أو التطور... إلخ. حتى ينجو من الملابسات والتداعيات والأوضاع التي أحاطت بفكرة ا . وربطتها بالأديان والمؤسسات الدينية ومع هذا فإن منطلق الفلاسفة والعلماء نحو ا تعالى جعلهم

يسلمون – بطريقة ما – بوجوده فالمناطقة سلموا بوجود إله ليس له من عمل إلا أنه العلة الغائية للكون. لأنه كان يتعين عليهم أن يخلصوا من التسلسل إلى ما لا نهاية، بينما آمن علماء الطبيعة والكون بإله كوني أبدع الأفلاك وأحكم تحريكها وتنظيمها بحيث يكون هو المهندس الكوني الأعظم، وابتدع بعض المفكرين نظرية الساعة فقالوا إن ا تعالى خلق هذا الكون كما يخلق ساعاتي قدير ساعة محكمة ثم يدعها وتنقطع صلته بها وتدور الساعة بفضل قوتها الذاتية وتصميمها. وظنوا أن هذا التشبيه يخلصهم من مشكلة لم يجدوا لها حلاً هي العلاقة الدائمة والوثيقة بين ا تعالى وخلقه ولم يرد في خاطرهم وقتئذ أن من الممكن لإنسان – دع عنك ا – أن يحرك آلة يصنعها بطريقة "الريموت كونترول" وادعى بعض هؤلاء في تبرير مذهبهم هذا أي اقتصار دور ا تعالى على الخلق وعدم متابعة هذا الخلق يوما بعد يوم أو حتى دقيقة بعد دقيقة بأن ا تعالى أعظم من أن يشغل نفسه بتصرفات آحاد الناس – الذين لا قيمة لهم أمام عالم الكون العظيم الذي خلقه ا . وصور ذلك من المفكرين المصريين طه حسين في الكلمات التي

كتبها سنة ١٩٢٣ وهو يعبر البحر الأبيض المتوسـط نابـذًا وراء ظهره الأزهر ومستقبلاً بوجهه فرنسا...

"... أعترف بأني في هذا الوقت أحسست شيئًا قد ينكره علي المؤمنون والملحدون جميعا. أحسست أن إيمان المؤمن وإلحاد الملحد ضرب من الكبرياء وغلو الإنسان في تقـدير نفسه وإكبار منزلتها. فإن هذا المؤمن الذي يعتقد أن خـالق الكون ومدبره، خالق هذا الكون العظيم الذي لا تشعر بعظمته وأنت مستقر في دارك أو بالتحدث إلى رفاقك. أو القراءة في كتابك – وإنما تشعر بعظمته مع هدير البحر وعصف الريح وشكوى السفينة ، وحين تشعر شعورا بأن أسـباب الحيـاة ضعيفة واهية، وبأن أقل شيء يستطيع أن يحطم هذه السفينة التي تقلك وأن يقطع كل ما بينك وبين النجاة، فتصبح نسـيا منسيا، كأنك لم تكـن قـط، وكأنـك لـم تعـرف أحـدا، أو يعرفك أحد... أقول إن المؤمن الذي يعتقد أن خالق هـذا الكون العظيم ومدبره يختصه بالبر والرحمة، ويرعاه في كل لحظة، بل في كل جزء من أجزاء اللحظة متكبر يرى نفسـه شيئًا مذكورا. يستحق هذه العناية المقدسة العظمى، مع أن في الكون ما لا يقاس الإنسان إليه عظمة وجلالاً.

وهذا الملحد الذي يستشعر الإلحاد، ويتخذه مذهبا وعقيدة فيعاند ويدافع عن إلحاده كما يدفع المؤمن عن إيمانه، وينكر ا كما يثبته المؤمن، ويعتقد أن العقل كل شيء، وأن آثـار العقل وحدها خليقة بالإجلال والإكبار، وأن نجاة الإنسان في عبادة العلم والإذعان له. لا في إكبـار الـدين والخضـوع لأوامره ونواهيه.. هذا الملحد يمعن في الغرور بقوة العقـل والعلم وآثارهما".

ويعقب الأب كمال قلته الذي أورد هذا الـنص ضـمن مقال عن "ا " فـي فكـر طـه حسـين: بمجلـة الإذاعـة والتليفزيون.. "ولست بحاجة إلى القول بـأن هـذه النظـرة لا تعظم ا ، وا فوق كل تعظيم، وإنمـا تحتقـر الإنسـان وتحمل بعضا من إنكار لأعظم الحقائق الإيمانية، التي تقرها كل الأديان وهي "**العناية الإلهية**" بل لعـل أروع مـا فـي الروحي هذا الإحساس بعناية ا بكل إنسان مهمـا صـغر، وبكل أمر مهما ضؤل، وأعظم الفروق بين العلم والـدين أن العلم يخضع كل شيء لقانون "العلة" و "المعلول" – أما الدين فيربط هذا القانون با ، علة العلـل، وراءـي المحـاولات والنتائج – وهذا الارتباط بين عنايـة ا وأمـور الإنسـان

والأشياء يعطي للحياة معناها الأصيل، كمـا يعطـي للألـم والموت المعنى الحقيقي والجوهري، بل إن دليلاً رائعا على وجود ا وعظمته يتضح من اهتمامه سبحانه وتعالى بخلائقه وكائناته، فا خالق يرعى خليقته، ومهندس يـدبر أكوانـه، وا أمير في خلقه وإرادته".

وكما لاحظ كاتب المقال فإن هذا الموقف من طه حسين أدى به لأن يرى في دراسة "الميتافيزيقيا" شيئًا عقيمـا، وأن الفيلسوف إنما هو رجل درس "العلـوم الطبيعيـة والإلهيـة والخلقية درسا علميا مقنعا وبسط سلطانها على حياته العملية وسيرته الخاصة فلم يكن تناقض بين هذه العلوم وبين أعماله" وفيما نرى فإن هذا الموقف من "طه حسين" يعود بالإضـافة إلى ظروفه الخاصة إلى تأثره بفولتير الذي كان لا يرى فائدة من البحث عن ا .

إن هذه الفقرات وما قبلها توضح أن القضـية الكبـرى والشائكة أمام الفلاسفة والمفكرين لم تكن هي وجود ا تعالى إذ سلموا بهذا الوجود بعد أن تضافرت أدلة لا يمكن دفعهـا أو تجاهلها ولكن القضية الصعبة كانت هي ما يتعلق بـذات ا تعالى ومدى قدرته أو طريقة استخدامه لقدراتـه وكمـا

ذكرنا من قبل فإن هذا الموقف مـن "طـه حسـين" يعـود بالإضافة إلى ظروفه الخاصة إلى تأثره بفولتير الـذي كـان لا يرى فائدة من البحث عن ا .

إن هذه الفقرات وما قبلها توضح أن القضـية الكبـرى والشائكة أمام الفلاسفة والمفكرين لم تكن هي وجود ا تعالى إذ سلموا بهذا الوجود بعد أن تضافرت أدلة لا يمكن دفعهـا أو تجاهلها ولكن القضية الصعبة كانت هي ما يتعلق بـذات ا تعالى ومدى قدرته أو طريقة استخدامه لقدراتـه وكمـا ذكرنا من قبل فإن هذه النقطة بالذات هي التي تبرر وجـود الأديان لأنه في الوقت الذي سكت العقل نطقت الأديان وجاء الأنبياء والمرسلون بما عجز عنه العلماء والمفكرون.

وقد حل الإسلام هذه القضية حلاً باتا عندما قال إن ا تعالى "ليس كمثله شيء" وعندما استبعد الحديث عن ذات ا وقطع بأن العقل البشري يعجز عن كنهه وفي الوقت نفسـه قدم الخطوط العريضة التي يمكن للعقل البشري أن يستوعبها من "أسماء ا الحسنى" التي وصف ا تعالى بها نفسه فـي القرآن الكريم وقد قال أحد الكتاب "لقد اختصـر المسـلمون

الطريق إذ قالوا إن ا "ليس كمثله شيء"[٤٦] والأمـر لـيس اختصارا للطريق قدر ما هو وضع الأمور مواضعها و "قطع الطريق" أمام تساؤلات ليس وراءها طائف ولم يكن هذا كما ذكر الكاتب لأن أصحاب الأديان أرادوا أن يحتفظوا بوحـدة الاعتقاد أن يزلزله الشك وأن الذين ذهبوا إلى ذلك غفلوا عن أن الطبع البشري لا ينطوي على صفة الاعتقاد فحسب بـل ينطوي أيضا على صفة الشك وأن جوع الإنسان للشك أشـد من جوعه للاعتقاد "نقول إن الغرض من تقديم صيغة ﴿ ليس كمثله شيء﴾ لم يكن المحافظة على وحدة العقيـدة فحسـب، ولكن أيضا الحيلولة دون الضلال كما أن شك الإنسان يقـف من تلقاء نفسه أمام تلك القضـية التـي لا يسـتطيع العقـل استيعابها وأن من الخير أن يقف عندها وواقع الحال يثبـت ذلك والفلاسفة لم يأتوا بما يقدم جديدا على ما قدمه القـرآن. وعندما لم يلزم المسلمون أنفسهم بتوجيهـات القـرآن فـي الوقوف موقفًا إيمانيا مما جاء فيه عن ذات ا فإنهم فتحـوا على أنفسهم بابا للخلاف والشقاق حول "آيـات الصـفات" و

---

[٤٦] الأستاذ إسماعيل مظهر، "بحث ا " مجلة المقتطف – مرجع سبق الإشارة إليه.

"خلق القرآن" وغيرهما من المعارك الفكرية العقيمة التـي لا تنتهي إلى طائل.

وما أورده الإسلام عن صفات ا تعالى في القرآن، أو الصحيح الثابت من السنة يماثل إلى حد كبير التصورات التي انتهى إليها كبار الفلاسفة والمفكرين الأوربيين مع فارق، هو أن الإسلام قدم إضافة ما كانوا يستطيعونها – فـي بعـض الجوانب – كإرسال الرسـل. والحيـاة الآخـرة، والثـواب والعقاب...

باستثناء هذه الإضافة فإننا نجد أن تعريـف المفكـرين والفلاسفة يتجاوب مع تعريف الإسلام، وقد أوردنا تعريف ديكارت عن ا تعالى "... أقصد بلفظ ا جوهرا لا متناهيا أزليا منزها عن التغيير قائما بذاته، محيطًا بكل شيء قـادرا على كل شيء. خالدا ثابتًا – قد خلقني أنا وجميع الأشـياء". ويدخل فيه رفض ديكارت لوحدة الوجود "لأن ا هو خـالق لمخلوقاته لا متحد بها، ويتجلى حضوره فينا بما نستشـعره من حاجة دائمة إلى بلوغ الكمال".

ويقول أندرو كونواي إيفي، وهو عالم فسيولوجي شهير "لقد درست صفات ا دراسة مطولة على أسـاس التحليـل

المنطقي الذي قام به الفلاسفة، وأمكـن باسـتخدام المنطـق الوصول إلى أن   صفات معينة، وفيما يلي مجموعة غيـر كاملة منها : "ا   أبدي، خالد، لطيف، ليس ماديا، ليس حادثًا، قدوس، طيب، يعلم الشر ولكنه ليس شريرا ولا يريد الشـر، لا يكره الأشياء، حق، عليم، محـب، مريـد، منـزه عـن الشهوات والنزوات أصل الفضائل جميعا" [٤٧].

والملحوظ أن هذه التعريفات "التي صدرت عن علمـاء أوربيين ومسيحيين أقرب إلى التعريف الإسلامي منها إلـى التعريف المسيحي الذي يتحدث عن لاهوت معقد، ذي صـلة غامضة ما بين الأب والابن والروح القدس بـل إن بعـض الكتاب رأوا أن من أسباب نفض اليدين مـن فكـرة ا   أن "جميع المنظمات الدينية المسيحية تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم في إله على صورة الإنسان بدلاً مـن الاعتقاد بأن الإنسان قد خلق خليفة   علـى الأرض، وأنـه عندما تنمو العقول بعد ذلك وتتدرب على استخدام الطريقـة العلمية فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر لا يمكـن

---

[٤٧] ا   يتجلى في عصر العلم – مرجع سابق – ص ١٥٦.

أن تنسجم مع أسلوبهم في التفكير أو مع أي منطق مقبـول، وأخيرا عندما تفشل جميع المحاولات في التوفيق بـين تلـك الأفكار الدينية القديمة، وبين مقتضـيات المنطـق والتفكيـر العلمي، نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصـراع بنبـذ فكرة ا كلية...

ويقول جورج هربرت بلونت وهو أستاذ فيزياء "وتـدل الشواهد على أن هناك نوعا من الإجمـاع بـين الفلاسـفة والمفكرين على أن لهذا الكون إلها، ولكنه لا يوجد اتفاق على أن هذا ا هو ذاته إله الكتب المقدسة"[٤٨].

وحدد ج. إ. م جود اعتقاده:

"إن دعوى المسيحية مقبولة ما ظلت مقصـورة علـى تأكيد وجود الإله وأنه يعني ويهتم بعالمنا، وأنه مبدأ الخيـر وأصل النظام الأدبي في الكون، وأنه بالتالي أصل التجربـة الأدبية، أي معرفتنا بالخير وتفضيلنا له على الشـر ومقتنـا للشر وكفاحنا ضده، كما تقبل أيضا دعوى أننا إذا صلينا له،

---

(٤٨) وولتر أوسكار لندبرج – عالم فسيولوجي – "ا يتجلى في عصر العلم" مرجع سابق ص ٣٤.

فيمكن أن نوجد صلة به، وأنه بفضل هذه الصلة يساعدنا ضد الشر. كما يبدو معقولاً كذلك بحكم الأدلة، أن نفترض أنه من وقت لآخر يخلق أو يظهر أفرادا موهوبين ليقـدموا تعبيـرا واعيا لأغراضه وليكشفوا قانونه الذي هو القانون الأخلاقي. وهؤلاء الأفراد الموهوبون بصفة خاصـة هـم المعلمـون الدينيون والصوفيون والأنبياء.

إن دعوى المسيحية غير مقبولة مـا ظلـت تؤكـد أن المسيح ابن ا ، أو أنه بأي طريقة أخرى أو لأي سبب آخر إلهي، وأن ا قد خلق الإنسان ليحبه، ولكن الإنسان خـلال ممارسته لإرادته الحرة لم يعد أهلاً لهذا الحـب، وعوقـب بالسقوط، وأن الإنسان وحده بين المخلوقات من يملك نفسـا أو شخصية"[٤٩].

---

[٤٩] انظر كتابنا "روح الإسلام" ص ١٠٤.

الفصل الثامن

القضية الثانية: الموت وخلود الروح

الموت: هازم اللذات ومفرق الجماعات، ونهاية الـدنيا والقضاء الحتم الذي لا ريب فيه، "كل نفس ذائقة الموت".

وليس هناك ما يشبه الموت، إذ ليس هناك سوى مـوت واحد، وأمامه يخشع الجميع، وقد خشع أمامه نبي الرحمـة، كما خشع أمامه طاغية القسوة. فجلس الرسول أمام قبر أحـد أصحابه صامتًا، وأصحابه حوله سكون كأن على رءوسـهم الطير. وبكى وهو يودع ابنه إبراهيم وفاضت عيناه بالدموع وهو يقبل وجه عثمان بن مظعون بعد موته. وتهاوى لينـين وهو الرجل الذي لا يؤمن بالقيم ويحتقر العاطفـة والرحمـة عند دفن "أنيسا أرمان" صديقته الأثيرة التي جاءت معه مـن سويسرا في "القطار المغلق" وأصـبحت إحـدى زعيمـات الحركة وعضو اللجنة المركزية. قالت أنجليكا بالابانوف "لم أشاهد إنسانًا تملكه الحزن مثله. لم يكن وجهه فحسـب هـو الذي ينطق بالألم، بل كل جسمه لدرجة لم أستطع معهـا أن

أحبيه، ولو بإشارة. وكان يبدو كما لو أنه تقلص فغطت قبعته وجهه بينما اخضلت عينـاه بالـدموع" وقالـت "ألكسـندرا كولونتاي " التي كانت حاضرة: "عندما أُحضر جثمان "أنيسا" وسرنا إلى المقبرة، لم أتعرف على لينين، فقد كـان يسـير وعيناه مغلقتان، وظننا أنه سيخر واقعا بعد كل خطوة" ورأت أن وفاة أنيسا عجلت بتفـاقم مـرض لينـين الـذي انتهـى بوفاته[٥٠].

تلك هي سطوة الموت ورهبته، ومع هذا فقد يكون مـن المفارقة أن نقول إن الموت ليس قضية الموتى، ولكنه قضية الأحياء !! إن دقائق معدودة أو نصف ساعة هي التي تفصل ما بين الحياة والموت، ويغلب أن يمضيها من سيموت فـي غيبوبة، فيموت دون أن يشعر أو يحس. فالموت ليس قضيته وبالنسبة له فالأمر كما قال المتنبي.

إلف هذا الهواء أوقـع فـي الأنفـــــــــــــــــس   أن الحِمام مر المذاق والأسـى لا يكـون بعـد

---

(٥٠) Lenin by David Shub pp ٣٨١ – ٣٨٢ (Pelican Original).

والأسى قبل فرقة الروح عجـز   الفـــــــــــــراق

لهذا فإن الموت هو قضية الأحياء، إما لأنه يأخذ مـنهم الأحباء والأعزاء، وإما لأنه يذكرهم بيومهم الآتـي، الـذي يكونون فيه الموتى لا المشيعين.

وليس هناك بعد ما هو أكثر بداهة من الموت، فلا بد أن يكون لكل شيء نهاية، وكل يوم تغرب فيه الشـمس يمـوت يوم ليولد يوم جديد مع الشروق... ومن غير المتصـور أن يعيش الإنسان أبدا. إن الخلود والبقاء أبدا يصبح عبئًا وعقابا ويفقد الحياة طعمها كما أن من غير المعقول أن يتلاقى على الأرض أجداد الأجداد... وأحفاد الأحفاد. ولولا الموت لمـا أمكن تصور الحياة والمجتمع فإذا استحال الموت – لجـوع أو حاجة أو مرض أو عجز – فما الذي يجعل الناس تعمـل وماذا تكون عليه الأخلاق والعلاقات. لقد أدرك المتنبي هـذا المعنى عندما قال :

سبقنا إلى الدنيا فلـو   منعنا بها من جيئـة
عـــاش أهلهـــا   وذهـــــــــــــــوب

تملكها الآتي، تملك سالب ... وفارقها الماضي، فـراق سـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـليب

ولا فضل فيها للشـجاعة والنـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـدى ... وصبر الفتى لـولا لقـاء شـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـعوب

ومن أجل هذا يقف الإسلام والعقلانية من الموت موقف التسليم به وتقبله بإيمان في حالة الإسلام وبحاسة من الفلسفة في العقلانية. وإن لم يمنع هذا من أن العاطفة تؤثر على هذا المسلك، ولو عند الصدمة الأولى.

ولكن الإسلام يقدم أكثر مما تقدمه العقلانية، لأنه يؤمن بخلود الروح. وأن الموت إنما يؤذن بلقاء ا تعالى، وهـي فكرة يمكن أن تغير أو حتى تقلب – الموقف مـن المـوت بحيث يجوز التساؤل لماذا عنـد المـوت يلبسـون الأسـود حدادا.. ويبكون ويصرخون وترتفع الصيحات عندما يخـرج الميت من بيته خروجه الأخير ملفوفًا في كفنـه، ومحمـولاً على الأيدي أو وهو يودع في قبره. والموت لدى المؤمن إنما هو برزخ بين حياة العناء والآلام.. والحياة الأخرى التـي ينعم فيها المؤمنون برضا ا ، لقد كان من المحتمل ألا يظل

هذا مجرد تساؤل وأن يطبق "عبد ا البري" فكرة "عبـد ا البحري[٥١]" لولا الضعف البشري، ولولا تلك الطقوس التـي تعقب الموت والتي تضاعف من دراماتيكيته بدءا من تكفينه حتى طريقة الدفن "الغرابية" التي لم تجد البشرية بديلاً عنهـا في الشرق والغرب.. فالموت كحقيقة لا مناص منها والإسلام يدعو للاستسلام له والرضا به. ولكن طريقة التصرف فـي الجسد العزيز الذي كان يبلور لنا المتوفى والذي كان محـل إعزازنا وقبلاتنا.. وطالما ضممناه إلينا.. وكانـت حركاتـه وسكناته هي ما تذكرنا به وتربطنا إليه.. هذه قضية أخرى، وهي التي تضاعف من مأساوية الفراق الأبدي بما تضـمنه من تكفين ودفن.. إلخ. وأعتقد أن التقدم في مجـال الطـب أوجد للناس مندوحة وبديلاً، فـإن الإنسـان ليسـعد عنـدما يتصور أن ضريرا سيرى بقرنية عين الميت، أو أن مريضا بالفشل الكلوي سيجد خلاصا في إحدى كليتيه وما إلى ذلـك.

---

(٥١) الإشارة هنا إلى إحدى قصص ألف ليلة وليلة – وهي قصة "عبـد ا البـــــــــــــــــــــــــــــــري"، و "عبد ا البحري" وقوم عبد ا البحري يعيشون في البحر ويقـابلون الموت بسرور ويلبسون له الملابس البيضاء.

إن هذا لا ريب أفضل من ترك الجسد الجميل لترعاه الهوام، وهو ينقل العملية من أيدي "المغسل" و "الحانوتي" و "المقبرة" الكئيبة إلى أيدي الأطباء والممرضات وغرفـة العمليـات، ويا لها من نقلة. ولا يخالجنا أقل شك في أن هذا هو الأقرب إلى الإسلام الذي يؤثر النفع والفائدة للناس ولا يجعـل مـن الموتى أوثانًا، ولا من قبورهم مشاهد يحج إليها [٥٢]، ومـن الطبيعي ألا تتضمن مراجع الفقه المدونة شيئًا من هذا، إذ أنه ما كان متصورا لولا التقدم الطبي الحديث، ولكن العقل وهو أول مصدر من مصادر الفقه والإيمان يوجبه ويأخذ به.

وعلى كل حال فإن الموقف الإسلامي من الموت وإن لم يصل إلى هذا (وما كان يمكن أن يصل إليه قبل تقدم وسائل الجراحة والطب في الفترة الأخيـرة) فـإن تقبلـه للمـوت

---

[٥٢] لما كنا نعلم أن المجتمع الإسلامي إنما تحكمه التقاليد والعـادات، وليس العقل أو حتى الإسلام، فإن تصور تطبيق ذلك بصورة شبه عامة أمر بعيد، فضلًا عن أن دون ذلك مصالح مكتسبة، ومهـن تفيـد مـن الموت. ولكننا على الأقل نعتزم أن نطبق ذلك على أنفسنا عند الموت، وبهذا نقدم خدمة أخيرة لإخواننا .. ونعفي الأهل والأصدقاء من الآلام والمشاق، ونعتبر هذا وصية بذلك.

واعتباره بداية للحياة الأخرى، التي يتركز حولها الاهتمـام وتعد هي "الحياة" الحقيقية الخالدة، هون من شأن الحياة الدنيا، وقلل من الحرص عليها وما يرتبط بذلك أو ما يتطلبـه مـن مصانعة أو رضا بالهوان، أو التجاء للنفاق مما يعـد ثمنًـا لا مناص منه للبقاء في الوظائف أو بلوغ المناصب العليـا، فالتشبث بالحياة والخوف من الموت يلجئان الإنسـان هـذا الملجأ، فإذا كان لا يخشى الموت وإنما يرحب به.. ويسـعى إليه خلال جهاده. سواء كان قتالاً في معركة، أو كفاحا فـي عقيدة، فإنه يحس بالحرية ولا يتردد في رفض كـل صـور الدنية أو الهوان التي تخالف عقيدته، ولا يتملكه الخوف مـن الإقدام على الأعمال العظيمة المحفوفة بالمخاطر، وهذا هـو في الحقيقة المضمون الإيجابي للإيمان بالقضاء والقدر (الذي يعد الموت أعلى مستوياته) وبحق يتساءل المؤمن.

أي يـومي مـن المـوت أفـر

يـوم لا يقـدر أو يـوم قـدر

يـ ـوم لا يقـ ـدر لا يرهبنـ ـي

ومـ ـن المقـ ـدور لا يغنـ ـي مفـ ـر

أو يؤكد لإخوته...

قــ ل لإخــوان رأونــي ميتًــا

فبكـ ـوني إذ رأونـ ـي حزنًـ ـا

لا تظنـ ـوني بـ ـأني ميـ ـت

لـ ـيس ذا الميـ ـت وا أنـ ـا !

أنــا عصــفور وهــذا قفصــي

طـــرت منـــه فتخلـــى رهنـــا

فاخلعوا الأنفـس عـن أجسـادها

فتـــرون الحـــق حقًـــا بينًـــا

لا ترعكم سـكرة المـوت فمـا

هـــي إلا بانتقـــال مـــن هنـــا

إن هذا المعنى يجب أن يذكر للإسلام، إن القضاء على خشية الموت والخوف منه أعطى الفرد حرية العمل وحـرر الإنسان من الاستعباد لربقة الحياة عندما تـرتبط بـالهوان، وجرأه على الإقدام ورفع الحياة فـوق مسـتوى المطالـب العضوية والمادية، وما يؤدي الحرص عليهـا مـن ضـعة ومهانة بحيث يرفضها حتى لو كان فقيرا "ا الغني" وبهـذا برأ المؤمنين من الوهن. وهو بتعبير الحديث "حـب الـدنيا وكراهية الموت".

قارن هذا بالذين يؤمنون أنهم لا يعيشون إلا مرة واحدة. وأن الموت هو النهايـة ولـيس وراء المـوت مـن حيـاة أو حساب أو عقاب، وما يدفعهم هذا الإيمان إلـى الحـرص على البقاء على قيد الحياة لأطول مدة والاستمتاع بهـا إلـى آخر مدى، وكيف أن هذا يمكن أن يشكل المجتمـع بحيـث تكون "الحياة البرجوازية" باستمتاعها هي المثل الأعلى، وهي الواقعة التي نراها في المجتمع الأوربي.

وحتى إذا لم يوجد الاستمتاع فإن هذه الفكـرة تجعـل مجرد البقاء على ظهر الأرض خير من الدفن فـي بطنهـا، ولو تطلب هذا المثل "إن كان لك عند الكلب حاجة، قـل لـه يا سيدي !!!".

ومن ناحية أخرى، فإننا لو وضعنا فكرة المـوت فـي أذهاننا، وأن من الممكن أن يأخذ منا الموت في لحظة الآباء والأمهات والزوجات والأبناء والبنات.. لجعلنا هذا نغير من تعاملنا معهم ولأصبحنا أكثر كرما وصفحا وعطاء، ولتنازلنا عن كثير من الصغائر التي تدفعنا إلى تصـرفات قـد نـنـدم عليها ونأسى لها..

ولو تذكرنا أن الموت يمكن أن يأخذنا، في غمضة عين، من حياتنا ومحوطاتنا وبيوتنا، وما نحرص عليه أو نعتز به من المقتنيات، فنترك كل هذا، ونخرج من الحياة عراة كما دخلناها عراة، لهان علينا أن نتصدق وأن نتصرف ولما تحكمت فينا الأثرة والحرص.

فالتفكير في الموت ليس كما يرى الدنيويون والبرجوازيون والأوربيون شيئًا من المثبطات.. والغيبيات ولكنه في الحقيقة أمر مطلوب. وهو يجعل الحياة أكثر حرية وكرما ويضعها في حجمها الطبيعي.

ولو فكرنا مليا لوجدنا أن الموت قلما يمكن أن يكون سيئًا وقلما يحدث في وقت غير مناسب.. فلو كان المتوفى ثريا مترفًا، فإن البقاء لن يزيده شيئًا بل سيجعله أكثر زهدا فيما هو فيه. كما قد يجعله يتعرض للفاقة، فالموت أفضل له. وإذا كان المتوفى شابا في ريعان الشباب أو غادة في منتهى الجمال فما أفضل الموت في مثل هذا الوقت قبل أن يبلغا أرذل العمر، وإذا كان الميت فقيرا بائسا لديه تلال من الهموم والآلام فإن الموت سيخلصه منها.

ويقدم لنا الشعر إضافة الفنان جنبا إلى جنـب إضـافة الإيمان الإسلامي والاستسلام الفلسفي. وهي إضافة تسير مع خيال الفنان فتكشف أبعادا لا يبلغها إلى هذا الخيال.

خذ مثلاً (شوقي):

ماذا وراء الموت من سلوى ومن

دعة ومن كـرم ومـن إغضـاء

إن كانت الأولـى منـازل فرقـة

فالسمحة الأخـرى ديـار لقـاء

أو (مخاطبا تولستوي):

رأينا بنور المـوت كـل حقيقـة

وكان كلانا في الحيـاة ضـرير

أو (المتنبي):

نحن بنـو المـوتى، فمـا بالنـا

نعـاف مـا لا بـد مـن شـربه

تبخـ ــل أيـ ــدينا بأرواحنـ ــا

على زمـان هـي مـن كسـبه

فهـ ــذه الأرواح مـ ــن جـ ــوه

وهــذه الأحيــاء مــن تربــه

لو فكـر العاشـق فـي منتهـى

حسن الـذي يسـببه لـم يسـبه

يموت راعي الضأن فـي جهلـه

موتــة جــالينوس فــي طبــه

وربمــا زاد علــى عمــره

وزاد فـي الأمـن علـى سـربه

عذاب القبر:

وردت أحاديث عديدة عن عذاب القبر – بل ألفت كتب أفاضت القول في صور هذا العذاب بما يجعل القلوب ترجف لمواجهته. وقد قرأنا وجهة نظر فيها قدر من الاجتهاد لفقيـه يتمتع بثقة وتقدير الملايين هو فضيلة الشيخ محمـد متـولي الشعراوي، رأينا أن من الخير أن نثبتها هنا، علـى الأقـل لتحقيق نوع من التوازن. وجاءت كلمة الشيخ – وهي موجزة

– ردا على سؤال من أحد قارئات مجلة حواء "ما هو حساب القبر.. وهل يعذب الميت في القبر؟".

يقول فضيلة الشيخ: علينا قبل أن نشغل بحساب القبر أن أسأل عن حساب الآخرة.. هل هو موجود أم غير موجود؟. إذا عرفت أن بالآخرة حسابا فأقول على أي شيء أحاسب في الآخرة.. نجد أننا نحاسب إذا ما كنا أدينا ما أمرنا ا بـه أم لا.

إننا حتى كبشر في الدنيا لا نحكم على قضـية إلا بعـد تحقيق البوليس ثم النيابة، ثم المحكمة، ثم ينفذ الحكم بعد ذلك.

وحساب القبر هو عرض للجزاء والآخرة هو دخول في الجزاء. قال تعالي "النار يعرضون عليها غدوا وعشيا".

ثم يقول "ويوم تقوم الساعة أدخلـوا آل فرعـون أشـد العذاب".

إذن العرض في غير قيام السـاعة. وبـذلك نجـد أن الزمان مجزأ إلى ثلاثة أقسام: الحياة الدنيا، والحياة الآخـرة وما بين الحياتين. ففي الحياة الدنيا تعمل، وفي الحياة الآخرة، تلقى جزاء عملك في الدنيا. وفي القبر يعرض عليك جـزاء

عملك ومكانك في الآخرة. وحين يعرض الجزاء في زمـان ومكان لا تستطيع أن تفلت منه يصبح أمرا متحققًا لا يستطيع أحد أن يعود فيه.

وإذا تساءلت كيف تكون الحياة الآخرة نقول إننـا فـي حال حياتنا لنا حالان حال يقظة وحال نوم. هل قانون اليقظة هو نفس قانون النوم. نجد أنهما يختلفان رغم وجود الحياة.. إذن إذا قلنا إن الموت حياة أخرى ونظام آخر فـلا بـد أن نصدق ذلك لأنك ترى وأنت نائم وعيناك مغمضـة. فهنـاك وسائل إدراك غير العين تستطيع أن ترى بهـا الأشـخاص والألوان والأماكن. فإذا حدث هذا لمجرد أن مـادة الإنسـان وهي جسم قد خمد قليلاً، فإذا قيل لنا إن في القبر حياة أخرى عندما تنتهي الحياة، فلا بد أن تكون هذه الحياة أكثر شـقاوة تزيد فيها وسائل الإدراك.

إننا في الرؤية نذوق الطعام والشراب ونشعر بحلاوتـه أو مرارته. ونرى هذا يرتـدي أبـيض والآخـر يرتـدي الأخضر. وعندما ترى رؤيا تحكيها في وقت طويل رغم أن العلم أثبت أن أطول حلم لا يستغرق أكثر من سبع ثوان. إذن فالزمن ملغى كذلك أنك تنام إلى جانب شخص يرى أنه بـين

أحبابه يضحك ويأكل ويمرح، والآخر يرى أنه بين أعدائـه يضربونه لا هذا يشعر بذلك ولا ذاك يشعر بهذا.

ولذلك لفتنا النبي عليه الصلاة والسلام إلى هذا فقال: ﴿ إنكم تموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون﴾ فإذا اختلـف قانون النوم عن قانون اليقظة فإن قانون الموت يختلف عـن قانون الحياة.

إذن فلا يوجد عذاب بالقبر ولكن عرض ورؤيـة فقـط لموقف الإنسان من عذاب أو نعيم"[٥٣].

***

قلنا إن العقلانية، تشترك مع الإسلام في تقبـل المـوت كواقعة ضرورية لا بد أن تقابل بالرضا والتسـليم، ولكـن الإسلام يقدم ما تعجز عنه العقلانية ألا وهو "خلود الـروح" وهو ما يعد من أكبر القضايا التي تطرحها العقلانيـة علـى الإسلام. فمع أن وجود ا هي القضية الأولى إلا أنها مـن البداهة بحيث لم تستطع العقلانية عندما تكـابر – أن تجـزم

---

(٥٣) مجلة حواء العدد ١٣٢ – ١٣ فبراير سنة ١٩٨٢ ص ٣١.

بنفيها وقصارى ما يمكن أن تصـل إليـه مكابرتهـا هـو "اللاأدرية" أما في حالة خلود الروح، فإن العقلانية تنكرهـا. ولا تدع لها القاعدة الحسية التي ترتكز عليها شـكًا فـي أن الموت هو النهاية.. وأي شيء أوضح – فيما ترى من هـذا. وهذا جسد يتحال حتى يصبح هيكلاً عظميا أو قبضـة مـن تراب. فكيف يمكن الشك في أن هذه هي النهاية؟ وكيف يقال إن هناك "روحا" تختلف عن الجسد، ولا تموت مع الجسـد؟ ﴿أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد﴾ وكيف حـدث أن لـم يظهر أحد من الذين ماتوا عبر مئات القـرون مـن ألـوف الملايين الذين ماتوا منذ أن ظهرت البشرية لـيقص علينـا ما وراء الموت لماذا تتنحى تلك الأرواح الظافرة وتقيم بعيدا عن هذه المعركة الدائمة التي تستمر بعدها.. لماذا تتركنا ما دامت قوتها لم تنقص بعد الموت.. لماذا لا تعمل هذه القـوة في خدمة إخوانها من البشر.. ما كان أعمق اعتقاد الأقدمين بأن روح الأجداد تتحرك وتعمل من حولهم في كل مكان وأن الأموات يحيون إلى جانبهم حياة ثانيـة، وأن العـالم يعـج

بالأرواح، وأن لهذه الأرواح قدرة فوق قدرة البشر إذا كانت النفس لا تموت، فلا بد أن تصبح عونًا للغد[٥٤].إلى آخر مـا ذكره ج. م جويو في كتابه "الأخلاق بلا إلزام ولا جـزاء".. حتى وإن اشتطت به الدعوى إلى ما ماثل سذاجة الأقدمين.. نقول إن قضية خلود الروح رغم أنها غصـة فـي حلـوق العقلانيين فقد آمن بها معظم الفلاسفة القـدامى والمحـدثين بحيث رأى جويو نفسه أنها كانت وراء فكرة "ا " على حـد قوله فالإنسانية "لا تهتم با إلا قليلاً، فما من شهيد كان يمكن أن يضحي بنفسه من أجل هذا الكائن المنعزل المقـيم فـي السماوات وإنما ا في نظرنا قوة قـادرة علـى أن تجعلنـا خالدين. فقد أراد الإنسان دائما أن يرقى إلى السـماء، ولمـا كان لا يستطيع ذلك وحده خلق ا حتى يمد ا يده، ثم إذابة يتعلق بهذا المنقذ تعلق حب. وإذا قيل غدا للمئات الأربع من ملايين المسيحيين، ليس ثمة إله، وإن هناك جنـة وإنسـان ويسوع وعذراء وآدم وقديسون، فلعل ذلك لن يحزنهم كثيرا، وسرعان ما يتأسون".

---

(٥٤) الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء تأليف ج. م جويو – ترجمة سامي الدروبي ص ٣١ – دار الفكر العربي – القاهرة .

"فالواقع أن الخلود يكفينا، وأنا من جهتي لست أطلب ثوابا ولا أريد استجداء، ولا أنشد شيئًا إلا الحياة، وإلا أن أجتمع بأولئك الذين أحببتهم. إنني لا أريد شيئًا غير خلود الحب والصداقة والإخلاص. ومازلت أذكر ذلك اليأس الطويل الذي اعتراني يوم أن دخل في روعي لأول مرة أن الموت قد يكون فناء للحب، وقطيعة بين القلوب، وانطفاء أبديا، وأن المقبرة بقبورها الحجرية وجدرانها الأربعة قد تكون هي الحقيقة الواقعية، وأن الأشخاص الذين كانوا يجعلون حياتي روحية، ولن يلبثوا أن ينتزعوا مني، أو لن ألبث أن أنتزع منهم، وأننا لن نتواصل بعد ذلك أبدا".

"وهكذا فإن الصورة القديمة للمسألة الدينية والأخلاقية، أعني مسألة وجود الإله، ترتد إلى هذه الصورة الجديدة، مسألة الخلود"[55].

كما أن بعض الكتاب يرى أن فكرة "خلود الروح" قد لعبت دورا أكبر من فكرة "وجود ا ". وقد لاحظ وليم جيمس ذلك عندما قال "إن الدين في الواقع عند الأغلبية من الناس

---

(55) الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء – مرجع سابق ص ٣٢.

يعني خلود الروح ليس إلا.. وإن ا هو موجد هذا الخلود".
ويقول الكاتب الإسباني ميجيل دي أنامايو: "كنت أتحدث إلى فلاح ذات يوم واقترحت عليه فرض وجود إله يحكـم فـي الأرض وفي السماء، كما اقترحت عليه أيضا فـرض عـدم خلود الأرواح وأنه لن يكون بعث ولا نشور بالمعنى التقليدي المعروف، فأجابني الفلاح قائلاً: "وما فائدة ا إذن؟" وربمـا كان "لوثر" يفكر مثل هذا التفكير عندما قال حانقًـا: "إذا لـم تعتقد في اليوم الآخر، ما ساوى إلهك عندي شـيئًا". وحتـى الشعراء قد اتبعوا هذا الرأي، فقد أعلن "تنيسيون" ذلك قـائلاً "لو أن خلود الروح غير حقيقي لكان شيطانًا مزورا، ولـيس ا ، من خلقنا". وليس بمستغرب أن يكون هذا هـو أسـلوب هؤلاء السادة في التفكير، فقد كتبوا هذه الأفكار فـي ضـوء تعاليم الديانة المسيحية، فالمسيحية قد أكدت فكرة الخلود تأييدا كبيرا، ونجد منذ فجر المسيحية القديس "بـولس" يعلـن دون لبس، لب هذا المذهب، إذ يقول "وإن لم يكن المسيح قد قـام فباطلة كرازتنا، وباطل أيضا إيمانكم.. إن كان لنا في هـذه

الحياة فقط رجاء في المسيح فإننـا أشـقى جميـع النـاس" (ا كو ١٥ : ١٤ : ١٩) [٥٦].

من هذه النصوص المستشهد بها نرى أن فكـرة خلـود الروح كانت عميقة الجذور. ولا نجد حساسـية إزاء كـلام دي جويو.. لأننا نؤمن أن هذا كان تصور البشرية في فتـرة ما قبل النبوات وإن لم يكن الوجود "الموضوعي" والحقيقـي لأن كل ما يتصوره الإنسان أو يتمناه لا بد وأن يكـون لـه أصل في الحقيقة، فلا شيء من لا شيء، وقد حقق العصـر التصورات والتأملات التي جاءت في "ألف ليلة وليلـة" وإن اختلفت الصورة بل وما جاوز هذه التصـورات كـالانطلاق إلى القمر والنزول على أرضه. إن أحلام الأمس حقائق اليوم وهو ما كان يقوله الإمام الشهيد حسن البنا مستنهضا شـباب الإخوان، أو دافعا لهم للتغلـب علـى صـعوبات الحاضـر ووصولاً للمستقبل، **يمكن أن يكون مبدءا عاما**.

---

[٥٦] الخلود للدكتور سيد عويس ص ٥٥ (دار المعارف بالقـاهرة). وانظر استدراكًا لهذه الفكرة من وجهة النظر الإسلامية فـي الفصـل التالي.

وقد أثبتت البحوث العلمية أن الفكرة الساذجة القديمة للبشرية عن خلود الروح لها أصل علمي. وكما سنرى فإن هذه البحوث أثبتت أن الموت ليس هو نهاية الفرد الإنساني. ولكن هناك نوعا من البقاء يطلقون عليه "النفس" أو "الروح" أو "الإرادة" أو "العقل" أو عالم الأثير يحفل فعلاً بالأرواح.. حتى وإن عجز العلم عن الاتصال بها.

ومن أبسط ما يمكن أن يقدمه العالم في هذا الصدد "أن مبدأ الانفصال المسيطر على جميع ظواهر التطور، مبدأ كلي شامل، يتعذر علينا أن نظن أن الموت يجل عن الخضوع له. وكما أن الجنين وهو حي فيه كل خصيات الأحياء، ولا يستطيع أن يعرف شيئًا عن حياته المقبلة قبل أن ينفصل عن أمه، كذلك الحي يعجز بطبيعة الحال عن أن يعرف شيئًا مما ينتظره بعد أن تحل عملية الانفصال، إذ يحدث به حدث الموت، وما هو إلا الظاهرة التي تعبر لنا عن مبدأ الكون الكلي "مبدأ الانفصال"[٥٧].

---

(٥٧) الأستاذ إسماعيل مظهر – مقدمة في حياة الروح في ضوء العلم – انظر الفقرة التالية.

علم الأحياء.. من الخلية إلى الروح:

فتحت التطورات العلمية الأخيرة مجـالات لـم يكـن يتصورها البيولوجي القديم في معملـه المتواضـع. ووجـد البيولوجي الحديث آفاقًا عديدة تتفتح له لم يكـن يتصـورها أو يحلم بها العالم القديم الذي كان ينظر إلى الجسم الإنساني ككل، أو يقسمه إلى الأعضاء المعروفة.. ولكنه لا يتصـور ما وراء ذلك، وقد كشف العصر الحديث التكـوين المعقـد للجسم الإنساني، فالجسم يتكون من ذرات غاية في الصـغر، والذرات تكون جزئيات، والجزئيات تكون خلايـا والخلايـا تكون أنسجة ولحما وعظما.. وأعضاء.

والذرات هي من الصغر بحيث لـو تراصـت عشـرة ملايين ذرة من ذرات الأيدروجين في طابور لما بلغ طولـه مليمتر واحد..

وهذه الذرة الدقيقة تتكون من نواة.. والنواة مبنية مـن أجزاء أدق بعضها بروتونات (جسيمات كهربيـة موجبـة) وبعضها نيوترونات (جسيمات متعادلة) وتدور حولها علـى مسافة بعيدة نسبيا إلكترونات (جسـيمات كهربائيـة سـالبة) والإلكترون يدور حول نواة الذرة وهذه الذرة ليست كلها مادة

صلبة، بل إن نسبة المادة الصلبة إلى الفراغ الذي تدور فيـه الإلكترونـات هـو نسـبة ١ : ألـف مليـون مليـون (١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠).

وهذا الإلكترون الذي هو أصغر الجسيمات الذرية حجما يدور ٧٠٠ مليون دورة في الثانية الواحدة.

وفي كل ثانية تموت وتتجدد خمسة ملايـين وسـبعمائة ألف خلية تحمل الحديثة منها صفات القديمة.

وفـي الخليـة تجتمـع آليـات الحيـاة العضـوية (البروتوبلازمية) مع آليات النشـاط الـذري مـن كهربـاء ومغناطيسية وإشعاع.. إلخ وهي مثل جهاز الراديو يجب أن تتناغم وفقًا للتردد المطلوب أو بالتعبير الشائع تضبط موجتها على المحطة المطلوبة، وهو في حالة الخلية – التردد الـذي يتوافق مع العمليات الحيوية. باختصار يمكن القول بأن كـل خلية تعمل كما لو كانت تحمل جهازا للاتصال اللاسلكي يتيح لها أن تستقبل وترسل رسائل، وتتضـمن مكوناتهـا أشـباه موصلات عضوية كالبللورات السائلة" وهـي مـادة فائقـة الحساسية للتغيـرات فـي درجـة الحـرارة والتغييـرات المغناطيسية والكهربائية والإشعاعية بالإضافة إلى حساسيتها

الفائقة للتلوث وتحوطها مجالات كهرو – مغناطيسية لا تشعر بها الحواس الخمسة، وفي بعض التجارب التي أجريت في الاتحاد السوفيتي اقتطعت بعض خلايا الإنسان ووضعت في أوعية مختلفة من الكوارتز، وعندما سلطت بعض أنواع الفيروسات على الخلايا التي في أحد الأوعية ماتت الخلايا في باقي الأوعية في نفس الوقت"[٥٨].

وفي كل عضو من أعضاء الجسم الإنساني من عين أو أنف أو يد.. إلخ ملايين الخلايا التي تعمل كل واحدة مع الأخرى بتجاوب تام بحيث يؤدي الجسم وظائفه، وكان مما كشف عنه العلم الحديث التشابه التام بين تكوين الذرة وتكوين النجوم والكواكب والمجرات مع فارق واحد هو أن الذرة تمثل النهاية في الصغر، وأن المجرات تمثل النهاية في الكبر. وجمع هذا ما بين عالم الأحياء، وعالم الطبيعة وعالم الفلك ووقفوا جميعا مشدوهين أمام هذا العالم العجيب الذي تعجز عن تقديره تصورات الإنسان ولا تستطيع أن تلم به

---

[٥٨] الأستاذ راجي عنايت – بحث معجزات العلاج – مجلة المصور – دار الهلال – عدد ٣٠ مارس ١٩٨٤ – ص ٤٠.

إلا الرياضيات العليا وجعلهم هذا أقرب إلى الإيمان مما كان الباحث القديم، الذي لم يكن يرى في الإنسان سـوى جسـما واحدا دون أن تكون عنده فكرة عن العالم العجيب وراء هذا الجسم الواحد.

وفي الخمسينيات صدر كتاب لعالم أحياء أمريكي تحت عنوان "بيولوجيا الروح" اتخذ نقطة انطلاقـه مـن ظـاهرة بيولوجية معروفة هي "التقويم الذاتي" ورأى أن هذه الظاهرة تنم عن "قصدية عضوية" كما يمكن أن تعد نوعا من نشـدان الهدف يتدرج نحو الاكتمال منسقًا نواحي النشاط العضـوي بمعيار غاية في الضبط[٥٩].

---

(٥٩) "بيولوجيا الروح The Biology of The spirit" وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ الكبير إسماعيل مظهر باسم "حياة الروح في ضوء العلم" مطبوعات مؤسسة فرانكلين (القاهرة – نيويورك) وصـدر فـي ديسمبر سنة ١٩٦٠ ، وقد كان إسماعيل مظهر رحمـه ا أحـد رواد الفكر العربي في مستهل القرن. وقد درس الأحيـاء، وتـرجم كتـاب داروين "أصل الأنواع" سنة ١٩١٨، كما ترجم عددا آخر مـن الكتـب حول هذا الموضوع. وأصدر مجلة العصور سـنة ١٩٢٧ ثـم تـولى رئاسة تحرير المقتطف – ألف عددا من القواميس من (الإنجليزيـة -

وصفة التقويم الذاتي هذه لا بد وأن تعود إلـى الخليـة الحية "البروتوبلازمية" فكيف يحدث هذا؟ إن التعليل الشـائع هو أن لها قدرات تنظيمية راسخة كشف عنها الباحثون، على أن هذا القول لا يحل المشكلة، فنحن لا نعرف من أين نشأت تلك القدرة ولا يجدي بالطبع القول بأنها تصرف حيـوي – كيميائي أو ردود الفعل.. أو الاستجابة.. لأن استجابة الأحياء تختلف عن الاستجابة لدى الأشياء.. فإن ضغط زناد مسدس لا بد وأن يطلق الرصاص، كما أن الضـغط علـى جـرس كهربائي سيؤدي إلى صدور صوت.. ولكن استجابة الكـائن الحي لا تكون ميكانيكية، ويذهب بعض العلماء إلى أن فـي كل كائن عضوي شيء فيـه طبيعـة الموجـه والهـادي، أو النزعة للاكتمال أي ضرب من عامل روحي يتدخل تدخلاً ذاتيا، وبخاصة عند حلول الظروف الحرجة حتـى يحـتفظ

للعربية) وقام بتأليف معجم مظهر الأنسكلوبيدي. فالمؤلف من الأساتذة المتمكنين. ولكن حرصه على "الترجمة" وليس "التعريـب" فـي هـذا المجال الجديد جعله في بعض الحالات يغرب ويبعـد عـن المفهـوم السائد، وهو مما لا يعد مأخذًا إلا بمنطق الخطأ المشهور أفضـل مـن الصواب المهجور.

الكائن العضوي بوحدته. ويتغلب علـى نزعـات التفكيـك والتبديد التي تحاول أن تنزل به إلى دنيا الجماد. أما كيـف يحدث ذلك التصرف فمن العسير تصوره.

إن الأحيائي مهما جهد نفسه مقسور علـى أن يواجـه مشكلات غيبية، شأنه شأن العالم الفيزيقي إذ يواجه مثل هذه المشكلات، علما بأنه قد يرفع يديه مستغيثًا بأن مثـل هـذه الآراء خارجة عن حدود العلم، ولكننا ما لم نحدد مجال العلم تحديدا بالغ الضيق، فإنه ولا شـك سـيواجه عنـد تخومـه الخارجية أشباها لهذه المشكلات على أنه ينبغي لعالم الأحياء أن يستعمق مفكرا في هذه الأمور المستغلقة حتى يمكنـه أن يستسيغ معرفة ما هي طبيعة تلـك المشـكلات. إن العـالم الفيزيقي ليعكف على تأمل طبيعة الحقائق الفيزيقية عكـوف الرياضي على البحث وراء العلاقات بين المكان والزمـان، والكوني تنقيبا وراء أصل الكون ومآله. ولا شك أن الأحيائي مقسور إن عاجلاً أو آجلاً على أن يأخذ فـي ارتيـاد هـذه المجاهل.

ويرى المؤلف أن الحياة هي المشكلة الغائية لأنه عـن الحياة لا عن غيرها يصدر نشدان الهدف والقصد. فما هـي

منزلة الحياة من الكون؟ إن الرد على هذا السؤال لا يجوز أن ينفرد به عالم الأحياء، ولكن لا بد أن يشترك معه الفنان والفيلسوف والشاعر.. إن المشكلة هي المادة والروح. وتعد الجبلة التي هي أسس الحياة "البروتوبلازمية" نقطة الملتقى. فإذا أمكن افتراض تهيؤ البروتوبلازما أي استكمال تكوينها من العناصر المادية، فإن انبثاق الحياة في هذه الجبلة – وهو أمر لا تزال طريقته مجهولة، يجعل البروتوبلازما تأخذ طريقها المرسوم. أي لا يقتصر على الجوانب المادية، ولكن أيضا على الجوانب الأدبية التي يعد التجاوب مع الجمال أحد شواهدها. وكذلك الحساسية نحو الفضيلة والحق والخير والحب. وإذا كان التجاوز المادي يمكن أن يحدث "ألما" فإن التجاوز الأدبي يحدث ما نسميه وخز الضمير.

والحقيقة التي تثير الدهشة، وتجاوز هذا كله أن كل فرد من الملايين الإنسانية لا يشابه فردا آخر تمام المشابهة (إلا في حالة التوائم الوفاقية) بحيث لا يمكن أن يعد الآحاد كالقطع التي تخرجها الآلات في المصانع، وهذا الاختلاف يشمل الشكل المادي، كما يشمل الفهم والتصرفات والحركة والسكنات، وهذا أمر يضع "الشخصية" جنبا إلى جنب

"الروح" كقضايا لا يستطيع علم الأحياء وحده سـواء كـان أسلوبه حيوية – كيميائية Bio chemical أو فيزيوكيميائيـة Physico chemical حلها.

ويلخص الكتاب نتيجة بحثه:

".. على أية حال لدينا حقيقة أساسية نأخذ بها حتما، هي أن العضويات الحية تتحرك دائما نحو أهداف محددة، سـواء في تخلقهم البدني أم في سلوكهم. إن هذه الفكرة المثلى سواء أنظرنا فيها من ناحية الفيزيقي، أم الكيميائي، أم الفسيولوجي، أم علم النفس، أم اللاهوت، هي على ما أعتقد حلقة وصـل بين بدن الإنسان المادي الحي، وتلـك النـواحي الأثيريـة اللامادية التي هي موشجة توشيجا.

ومن هنا قد تساعدنا هذه النظرية – قائمة على دراسـة التخلق في الحيوان والنبات الأدنى، على إلقـاء شـيء مـن الضوء على مشكلات الإنسان يردها إلى صفة نشدان الهدف التي تتجلى في الحياة على اختلاف صورها وطبقاتها، إنهـا جميعا مشكلات تتصل بالحياة، إذن فهي مشكلات تتصل بعلم الأحياء، ولكن في أوسع حدوده وأرحب معانيه، وأعني بذلك إحيائية الروح.

وهي في النهاية تقول إن ا   هو "القدرة" التـي تخلـق الأجهزة العضوية الحية، وتبعث فيها الأهداف التي تتم بهـا والتي تنتهي عند مأمولات الروح[٦٠] ".

خلود الروح من منظور طبي:

كانت النظرية المادية التي سيطرت علـى العـالم فـي الفترة التي أعقبت نيوتن وطوال القرن الثامن عشر، هي أن الفكر من إفراز المخ. وأن الوعي والإرادة كلها انعكاسـات لآليات الجسم الإنساني وأعضائه. وكـان مـن مقتضـياتها أن لا شيء في الإنسان يمكن أن يبقى بعد الموت، فإذا كـان التفكير والإرادة من أنشطة المخ، فليس هناك داع لافتـراض بقاء هذين بعد تحلل المخ، ولم يكن لدى العلماء معرفة بكيفية انبثاق العقل من المادة، وأمل علماء الفسـيولوجيا أن يـأتي المستقبل بالحل. وفي عام ١٨٦٨ كتب هكسلي: ".. وهكـذا سيوسع علم وظائف الأعضاء في المستقبل شيئًا فشـيئًا مـن

---

(٦٠) المرجع السابق ص ٢٠٠.

عالم المادة وقوانينها إلى أن يصبح مساويا في امتداد نطـاق المعرفة والشعور والعمل"[٦١].

ولكن المستقبل جاء بصورة مختلفة تماما، وقدم نظريـة جديدة بدأت بالسير تشارلز شرنجتون الذي يعتبـر مؤسـس فسيولوجيا الأعصاب الحديثة. ونتيجة بحوثـه الرائـدة فـي الجهاز العصبي والدماغ ظهر فـرق جـذري بـين الحيـاة والعقل، فالحياة مسألة كيميائية وفيزياء. أمـا العقـل فهـو يستعصي على الكيمياء والفيزياء.

والعقل يعرفنا علل الأشياء التي تعجز عنـه الحـواس. فاللسان مثلاً يدلنا على أن البحر مالح، ولكنه لا يفسر لنا علة ملوحته.. كما يمكننا العقل من إدراك ماهية الأشياء وهو أمر لا تستطيعه الحواس، ولا ملكة الخيال ذاتهـا.. وهـو عـن طريق العلوم يجاوز قيـود الخيـال، ويـدرك بالمعـادلات

---

(٦١) استشهد بها في "العلم في منظوره الجديد" تـأليف روبـرت. م أجروس. وجورج ستانسيو – ترجمة كمال خلايلي (عـالم المعرفـة) والاسم الأصلي للكتاب "القصة الجديدة للعلـم" The New Story of Science ، وسيكون مرجعنا حتى نهاية الفقرة.

الرياضية أبعادا تستعصي على الخيال. والعقل لا الحواس هو الذي يصنع العلم لأنه وحده يستطيع أن يستكشف ماهية الأشياء وعللها.

وقد يطلق على قدرة العقل أحيانًا الفهم Understanding وهي تسمية مناسبة لأن طبيعة الأشياء تكمن تحت stands under صفاتها الظاهرة. والفهم يستطيع كذلك أن ينفذ إلى العلة التي يرتكز عليها الأثر الذي تدركه الحواس.

ويماثل العقل في تميز الإنسان به عن الحيوان – الإرادة. فالإنسان يريد، ويكيف أوضاعه طبقًا لإرادته، وهو ما لا يستطيعه الحيوان والنبات. والإرادة تختلف عن العاطفة في أن الأولى عادة ترتكز على العقل.

وقد أدت العمليات الجراحية التي أجراها "ويلدر بنفيلد Welder Penfield على أدمغة ما يربو على ألف مريض في حالة الوعي في الثلاثينات من هذا القرن، والتي نشر الآثار المترتبة عليها عام ١٩٧٥ في كتابه "لغز العقل". The Mytstery of The Mind.

ففي بعض عمليات الصرع التي يبنج فيها الطبيب المريض تبنيجا تاما ليصل إلى المخ يستخدم "القطب الكهربائي" "الإلكترود" الذي يحدد موقع الخلايا التي تسبب النوبات الصرعية، ويزيلها.

وفي عام ١٩٣٣ اكتشف بنفيلد بمحض المصادفة أن تنبيه مناطق معينة في الدماغ بالكهرباء تنبيها خفيفًا يحدث استرجاعا فجائيا للذاكرة عند المريض الواعي. لقد ساورت بنفيلد الشكوك أول الأمر، ثم أخذته الدهشة. فعندما لامس الإلكترود قشرة مخ شاب تذكر هذا الشاب أنه كان جالسا يشاهد لعبة البيسبول في مدينة صغيرة، ويراقب ولدا صغيرا يزحف تحت السياج ليلحق بجمهور المتفرجين. وهناك حالة مريضة أخرى تسمع آلالات موسيقية تعزف لحنًا من الألحان. وروى بنفيلد هذا الخبر فيقول "أعدت تنبيه الموضع نفسه ثلاثين مرة محاولاً تضليلها، وأمليت كل استجابة على كاتبة الاختزال. وكلما أعدت تنبيه الموضع كانت المريضة تسمع اللحن من جديد. وكان اللحن يبدأ في المكان نفسه، ويستمر من اللازمة إلى مقطع الأغنية".

وأدى هذا الاكتشاف ببنفيلد إلى رسم خريطة كاملة تبين مناطق الدماغ المسئولة عن النطق والحركة وجميع الحواس الداخلية والخارجية، ولكنه لم يستطع تحديد موقع العقل أو الإرادة. فالدماغ هو مقر الإحساس والذاكرة والعواطف والقدرة على الحركة. ولكنه فيما يبدو ليس مقر العقل والإرادة.

ويعلن بنفيلد أنه "ما من عمل من الأعمال التي نعزوها إلى العقل قد ابتعثه التنبيه بالإلكترود أو الإفراز الصرعي "ويضيف قائلاً: "ليس في قشرة الدماغ أي مكان يستطيع التنبيه الكهربائي فيه أن يجعل المريض يعتقد أو يقرر شيئًا. والإلكترود يستطيع أن يثير الأحاسيس والذكريات غير أنه لا يقدر أن يجعل المريض يصطنع القياس المنطقي أو يحل مسائل في الجبر. بل إنه لا يستطيع أن يحدث في الذهن أبسط عناصر التفكير المنطقي. والإلكترود يستطيع أن يجعل جسم المريض يتحرك. ولكنه لا يستطيع أن يجعله يريد تحريكه. إنه لا يستطيع أن يكره الإرادة. فواضح أن العقل البشري والإرادة البشرية ليس لهما أعضاء جسدية.

فإذا كانت الإرادة البشرية غير مادية، فليس مما ينـافي العقل أن نتصرف بغير طرق المادة، أي بحريـة واختيـار. ومن ثم فالنظرة الجديدة لا ترى فـي الاعتـراف باسـتقلال الإرادة فينا أي مجانبة للأسلوب العلمي. ومحصلة ذلك أنـه ليس هناك أسباب علمية وجيهة لإنكار حرية الإرادة التي لا بد من افتراض وجودها إذا أردنـا أن نتصـرف كبـاحثين علميين ، بل إن إنكار حرية الإرادة يجعل من العلم كله أمرا منافيا للعقل.

زد على ذلك أن النظرة الجديدة لا ترى في قدرة العقل على توجيه أنشطة الدماغ أمرا مسـتحيلاً، ويصـف عـالم الأعصاب روجر سبري Roger Spery الثورة الفكرية التي حدثت في علم النفس خلال السبعينات من هذا القرن، والتـي أحدثت انقلابا مثيرا في معالجة الوعي فيقـول "لقـد قلبـت المبادئ السلوكية التي سادت طوال نصف قرن ونيف، وأخذ علم النفس فجأة يعالج أحداثًا ذاتية كالصور الذهنية، والأفكار وما إليها بوصفها عوامل ذات دور سببي حقيقي في وظيفـة الدماغ وفي السلوك، وأصبحت مضامين الاستبطان وعـالم التجارب الداخلية كلها مقبولة على نحـو فجـائي كعوامـل

تستطيع أن تؤثر في العمليات الفيزيائية والكيميائية التي تـتم في الدماغ؛ ولم تعد تعامل بوصفها جوانب منفعلـة وغيـر (سببية) بل غير موجودة.

إن المعرفة والقيادة تتطلبان قدرا من البعد، فلا يمكن أن يكون العقل ظاهرة ثانوية مصاحبة لآلية الأعصاب إذا أريـد له أن يعاين ويوجه الكل ويقول بنفيلد: "إن العقل، لا الدماغ، هو الذي يراقب ويوجه في آن واحد، فالعقل هو المسئول عن الوحدة التي نحس بها في جميع أفعالنا وأفكارنا وأحاسيسـنا وعواطفنا. ويضيف أكلس "إن وحدة التجربة الواعية يتيحهـا العقل الواعي نفسه لا آلية الأعصاب.

ولو كان الدماغ حاسبة إلكترونية بالغة التعقيد، فلا بد له إذًا، شأنه شأن الحاسبة، من أن يوجه من قبل العقل. ويقـول بنفيلد: "إن الحاسبة الإلكترونية (والدماغ هو كذلك) لا بد من أن تبرمجها وتديرها قوة قادرة على الفهم المستقل" ويحـدد بنفيلد دور العقل هكذا "إن ما تعلمنا أن نسميه العقل هو الذي يركز الانتباه فيما يبدو، والعقل يعي ما يدور حولـه، وهـو الذي يستنبط ويتخذ قرارات جديدة. وهو الذي يفهم ويتصرف كما لو كانت له طاقة خاصة به. وهـو يسـتطيع أن يتخـذ

القرارات وينفذها مستعينًا بمختلف آليات الدماغ، وهكذا فـإن توقع العثور على العقل في أحد أجزاء الدماغ، أو في الدماغ كله، أشبه بتوقـع كـون المبـرمج جـزءا مـن الحاسـبة الإلكترونية".

وبناء على الأدلة سالفة الذكر، لا يرى بنفيلد أي أمل في النهج المادي للنظرة القديمة إزاء العقل فيعلن "إن توقع قيـام آلية الدماغ العليا، أو أي مجموعة من ردود الفعل مهما بلغت من التعقيد بما يقوم به العقل وبأداء جميع وظائفه أمر محال تماما" ويوافق عـالم الأحيـاء "أدولـف بورتمـان Adolf Portman " على ذلك فيقول "ما من كمية من البحث علـى النسق الفيزيائي أو الكيميائي يمكنها أبدا أن تقدم صورة كاملة للعمليات النفسية والروحية والفكرية".

كما أن بنفيلد لا يتوقع أن يقوم علم وظائف الأعضـاء في المستقبل كما كانت تتوقع النظرة القديمة، بإظهار انبثـاق العقل من المادة فيقول "يبدو من المؤكد أن تفسير العقل على أساس النشاط العصبي داخل الدماغ، سيظل أمرا مستحيلاً كل الاستحالة" ولذلك فهو يرى أنه "أقرب إلى المنطق أن نقـول إن العقل ربما كان جوهرا متميزا ومختلفًا عن الجسم".

ومن دواعي السخرية أن بنفيلد بدأ أبحاثه بهدف إثبات العكس تماما، فيقول "طوال حياتي العملية سعيت جاهدا كغيري من العلماء إلى إثبات أن الدماغ يفسر العقل" فهو قد بدأ مسلحا بجميع افتراضات النظرة القديمة، غير أن الأدلة حملته آخر الأمر على الإقرار بأن العقل البشري والإرادة البشرية حقيقتان غير ماديتين. ويعلن بنفيلد "يا له من أمر مثير إذًا، أن نكتشف أن العالم يستطيع بدوره أن يؤمن عن حق بوجود الروح" وإذا كان العقل والإرادة غير ماديين، فلا شك أن هاتين الملكتين على حد تعبير أكلس "لا تخضعان بالموت للتحلل الذي يطرأ على الجسم والدماغ كليهما"[٦٢].

مع الأرواح...

كانت مخاطبة أرواح الأعزاء الذين ماتوا، أو الاتصال بهم بطريقة ما، من الآمال التي ساورت النفوس، فمع أن سيادة المادية، وأن الموت ينهي كل شيء، كانت غالبة على المجتمع الأوربي طوال القرن التاسع عشر، إلا أن طلعة الإنسان لا تعرف حدا واستشرافها لا توقفه

---

(٦٢) العلم في منظوره الجديد – ص ٤٢ – ٤٣ .

الأوضاع المقررة. دع عنك أن عاطفـة الآبـاء والأمهـات والأحبة للاتصال بأرواح المتوفين من الأبنـاء أو الحبيبـات لا بد أن تكون ولو عند القلة قوية. متوهجة.. ومن هنا نفهـم كيف أن فكرة الاتصال بالأرواح نشطت في بريطانيا وأمريكا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر والأولى من القرن العشرين، وفي عام ١٨٨٢ تكونت الجمعيـة العلميـة فـي بريطانيا ورأسها الأستاذ سـيجويك Henry sidgwick ، كما كان أحد وكلائها آرثر بلفور Arther Belfour ونائبها الثاني الأستاذ لنجلي T.P. Longley سكرتير معهد سـميث سونيون Smaith Sonion واشترك فيهـا أوليفـر لـودج Lodge العالم الطبيعي البريطاني، والأستاذ ريشة Richet الفرنسي، وهو عـالم فـي وظـائف الأعضـاء، ومـايرز وإ.جبرني F.W.H. Myers: E. Gurney وقد أزجى وليم جيمس في كتابه "إرادة الاعتقاد" الثناء الجم لقادة الجمعية لما اتصفوا به من إخلاص، وعبر عن أسفه لوفاة واحد من أبرز أعضائها.

وتراوحت أعمال الجمعية ما بين التنويم المغناطيسـي، وإحضار الأرواح، وقد تعرضت الجمعية لحيل وأفانين كثيرة

من الأدعياء، وكشفت عن بعضها في التو واللحظة، ولكنهـا تأثرت بالبعض الآخر أو كشفتها في فترات متخلفة، كما هو الشأن في حالة الوسيطتين مدام بلافاتسكي، وأسابيا بـالادينو ولكن كثرة عمل الجمعيـة وإخـلاص ومثـابرة أعضـائها وضعتها على حافة عالم ما ينبئ بأن في الإنسان شـيئًا وراء الجسم والمادة، ومع أن الأدلة التي حصلت عليها قد لا تكون حاسمة، فإنها في مجموعها لا يمكن أن تخلو من معنى.

وقد عنيت مجلة "المقتطف" في القاهرة بهذا النشاط الذي كان شائعا وقتئذ، وتابعت عمل هذه الجمعية ونشرت نتـائج أبحاثها في سلسلة من المقالات جمعتها بعد ذلك وطبعتها في كتاب باسم "رسائل الأرواح" – (المقتطـف ١٩٢٨). وذكـر فؤاد صروف في مقدمته "وللمقتطف رأي مشهور في مسألة مناجاة الأرواح وقراءة الأفكار، وما إليها من مظاهر الروح يتلخص في أنه لا ينفي مناجـاة الأرواح وقـراءة الأفكـار، ولكنه يرتاب في صحتهما، لأن أحد منشئيه المرحوم الدكتور يعقوب صروف لم يقف في أثناء مزاولته لهذه المباحث على ما يثبتها إثباتًا ينفي كل ريب من عقل تعود الخضوع للبرهان العلمي الرياضي، وكان رحمه ا يقول ما خلاصته "إن كل

ما اطلعنا عليه من هذا القبيل، وكل ما امتحناه بأنفسنا لم نجد فيه ما يخرج عن التخيل والخداع والانخداع، أو ما لا يفسر بالاستهواء الذاتي، أو ببعض النواميس الطبيعية المعروفة أو ما لا يمكن رده إلى غيره مما لا يتعذر تفسيره أو ما في صحته شبهة قوية" ولكنه كان ميالاً في كثير من الأحيان إلى القول بأن بعض الناس يستطيع أن يدرك ما في نفوس غيره بغير الحواس المعروفة. وهذا هو التنبؤ وانتقال الأفكار".

وتضمن الكتاب مقالات عديدة بأقلام السير أوليفر لودج والسير آرثر كونان دويل، وإشارات إلى مقتل ريموند ابن السير أوليفر لودج في الحرب العالمية الأولى، الأمر الذي دفع أباه للقيام ببعض التجارب الروحية بأمل أن يعلم شيئًا عن مصير ابنه، واعتقد أنه حقق ذلك، وضمن تجاربه تلك كتابا كبيرا حمل اسم ابنه "ريموند" وضمنه بعض الفصول لإثبات خلود الروح وإمكان مناجاتها. وظهر الكتاب في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٦ فنفدت نسخه توا، ثم طبع مرة أخرى وثالثة ورابعة قبل نهاية نوفمبر، وأعيد طبعه في ديسمبر طبعتين وأعيد طبعه بعد ذلك مرارا. وتقول مجلة المقتطف في كتابها المشار إليه آنفًا: ".. وأمامنا الآن الطبعة السادسة

الصادرة في ديسمبر" ونضيف إن الطبعة التي فـي مكتبتنـا الخاصة هي الطبعة الحادية عشر وهي في مسـتهل ١٩١٩، وكانت الطبعة السابقة عليها في ديسمبر سنة ١٩١٨.

وتضمن كتاب المقتطف بحوثًا ومقالات عديـدة، منهـا مناظرة ما بين سير آرثر كوين دويل، والمسـتر جوزيـف مكايب، تحت رئاسة المحـامي المشـهور "إدوار مارشـال هول". تكلم كل واحد منهما أربعين دقيقـة مؤيـدا دعـاواه وناقضا دعاوى خصمه، ثم سمح لكل منهما بالتعقيب علـى كلام مناظره. ومن الغريب أن السيد ميكاب Mecab وهـو أحد رجالات الكنيسة السابقين كان معارضا لفكـرة وجـود الأرواح، وإمكان الاتصال بها، ونسب ما أورده أعظم اثنين أيدا وجود الأرواح وهما لودج – ولومبروزو إلى مقتل ابـن الأول وإلى تأثر الثاني بعته الشيخوخة. ورد سير آرثر كوين دويل بذكر أسماء الباقين من المؤيدين لوجود الأرواح وأشار إلى بعض التجارب.

كما عرض الكتاب لمقالات للأستاذ نيـوكم والمسـتر ستيد الصحفي البريطاني الذي كان في قمة الشهرة، وبعـض كتابات السير أوليفر لودج.

ووصف الكتاب في فصول عديـدة، وبصـفة مفصـلة بعض جلسات الأرواح وما فيها من حقيقة وزيف، ومن هذه الجلسات، جلسات أعدها وسيط يدعى الكولونيل دي روشـا، ونشرت في مجلة العلوم. ولهذا الجلسات أهمية خاصة بررت نشرها في الكتاب تحت عنوان "قبل الولادة.. وبعد المـوت" وجاء فيها أن بعض المتخصصين في التنـويم المغناطيسـي يستخدمون إشارات طولية، أي من أعلى إلى أسفل، تجعـل الوسيط يتذكر ماضي حياته إلى سن الطفولة، وقد تسـتخدم إشارات عرضية للوصول إلى المستقبل، وواصل الكولونيـل دي روشا إشارته الطولية حتى سن الطفولة ثم جاوزها إلـى فترة الولادة وما قبلها، وكذلك واصل الإشـارات العرضـية حتى الوصول إلى سن الشيخوخة والهرم والموت.

وكانت الوسيطة في هذه التجربة فتاة عمرهـا ثمـاني عشر سنة لم تسمع شيئًا عن نشاط روحاني واسمها مـاري مايو وهي ابنة مهندس فرنسي أمضى جانبا من عمره فـي بلاد الشرق في إنشاء السكك الحديدية، ومات فيها، فتزوجت امرأته مهندسا آخر من مهندسي السكك الحديديـة، وبقيـت الابنة في مدينة بيروت إلى أن صار عمرها تسع سـنوات،

وكانت تتعلم في مدرسة للراهبات، وتعلمت هناك مبادئ القراءة العربية ثم سافرت إلى فرنسا وكفلتها عمتها، وكانت تسكن في البروفانس.

وبدأت الجلسات في ديسمبر سنة ١٩٠٤ واستمرت طوال شهرين، وفي إحدى هذه الجلسات أخذ ينومها حتى تكون الطيف المسمى بالجسم الأثيري، وحاول إخراجه من الغرفة فكان يصل إلى الجدران ويقف. وقال المنوم للوسيطة أن تمد إليه يد الطيف اليسرى فقرصها، أي قرص الهواء، فشعرت الفتاة بالقرصة، وعندما أيقظها وجد في يمينها علامة القرصة التي قرص بها الطيف.

وفي جلسة أخرى تعمق في تنويمها حتى صارت ترى طيفها واقفًا بجانبها فقال لها أن تجعل شكله مثل شكلها وهي بنت ١٨ سنة، ثم وهي بنت ١٤ سنة، ثم وهي بنت ١٢ سنة، ثم وهي بنت عشر سنوات وسألها أين كانت فقالت في مرسيليا. وهذا صحيح، ثم وهي ابنة ثماني سنوات فقالت إنها في بيروت. فسألها عن معنى كلمة "بون جور" بالعربية فقالت "سلام عليك" ثم طلب أن تعود إلى السنة الرابعة، وعندما ردها إلى السنة الأولى لم تعد تتكلم، بل كانت تكتفي

بالنظر وقولها نعم أولاً، ولما ارتدت إلى ما وراء ذلك بقيت تشعر بوجودها ولكن ليس في حالة محددة فأعادها إلى حالتها الطبيعية حتى وصلت سن ١٨.

وفي جلسة أخرى أعادها إلى زمن ولادتها. وإلـى مـا وراء ذلك. وجاءت نتيجة أسئلته أنها امـرأة اسـمها لينـا، وكانت زوجة لصياد أسماك اسمه إيفون، وكان لها ولد وحيد مات وعمره سنتان، وتحطمت السفينة بزوجها فـي البحـر فمات غرقًا، فيأست من الحياة وألقت بنفسها في البحر وأكل السمك جسمها. وصعدت إلى الهواء ورأت فيه كائنات كثيرة، ولكن لم يسمح لها بالتحدث معهم، ولم تتألم أو تتعب، كـان هذا بالنسبة لماضيها، أما بالنسبة لمستقبلها. فرأت أنها وهـي في التاسعة عشرة من عمرها تسافر مع أمها ويقيمـان فـي بلاد أهلها زنوجا عراة.

وفي جلسة أخرى تدرجت في تاريخ ماضيها، فكانـت ترى طيفها يصغر كلما صغرت سنًا حتى إذا صارت جنينًـا في بطن أمها زال الطيف تماما وامتزج فـي الجـو، ولمـا صارت لينا وماتت دخلت العتمة وحاولت أن تلتقي بزوجهـا وولدها فلم تلتق بهما. وكانت في زمن لويس الثامن عشـر،

وقبل ذلك كانت رجلاً اسمه شارل لوفيل، وكان رجلاً شريرا قتل بعض الناس، ولما صار عمره خمسون سـنة مـرض ومات وسار طيفه في الجنازة وسمع النـاس يقولـون "لقـد تمادى في الشر" وبقي في حالة غير راضية حتى دخل جسم لينا.

وكانت ماري تأخذ أشكال وأوضاع كل حالة يردها إليها التنويم ففي سن السنتين قالت إنها لا تعرف أن تتكلم، وعندما أمرها أن تعود إلى بطن أمها وسألها "أين أنت الآن". فقالـت "لا أدري ولكني أشعر بشيء متحرك ثم قالت إن طيفها قـد تجسم عندما قطع الحبل السري، وإنها بدأت تتنفس، وعنـدما أمرها أن تكون على الحالة التي غرقت عليهـا دارت علـى جانبها الأيمن ووجهها بين يديها وظهر على وجهها دلائـل الموت والخوف وصار حلقها يتحرك كمن يبلغ الماء غصـبا عنه ونطقت بألفاظ غير مفهومة وبدا على وجهها الألم الشديد حتى أيقظها.

وكان تعقيب المقتطف فيما يبدو لنا ركيكًا إذ أعاد ذلـك إلى أن العقل الباطن للفتاة حفظ كثيرا مما سمعته وقرأته في حياتها فتذكرت بعضه وهي في حالة الاستهواء، وإن أسـئلة

الكولونيل دي روشا ولدت في ذهنها صورا جديدة حـددتها من محفوظاتها. فلما قال لها من كنت قبلما ولـدت أخيـرا، قالت كنت امرأة وقصت قصة امرأة تعرفهـا أو سـمعت أو قرأت عنها وأبدت من الانفعال والإشارات ما ينطبق علـى الأحوال التي صورتها فيها، فكانت تتـألم عنـد المخـاض وتتخبط عند الغرق، ولما سألها من كنت قبلما صرت هـذه المرأة، قالت كنت رجلاً، وكان يمكن أن تقول إنهـا امـرأة أخرى، ولكنها ذكرت أول خاطر أخطره السؤال في بالهـا. والظاهر أن هذه الخواطر التي أخطرتها مسائل الكولونيل في بالها في الجلسات الأولى صارت تخطـر فـي بالهـا فـي الجلسات التالية على ترتيبها، بل صار خطورها في الجلسات التالية أسهل حدوثًا لأنها كانت قد خطرت، والمـؤثر واحـد وهو السؤال، فلا بد أن تخطر بعد أن انضم إلى السؤال مؤثر آخر وهو الصورة السابقة التي ارتسمت في الذهن على أثر السؤال الأول، فصارت كمن يتذكر في الجلسـات الأخيـرة ما كان يقوله في الجلسات الأولى. وهذا التعليل لا يزيل كـل غرابة من حادثة هذه الفتاة وأمثالها، ولكنه يزيل أغرب مـا فيها على ما نرى".

أديسن والأرواح:

لا يقل أهمية، بل بالتأكيد يزيد عما جاء في الفقرات السابقة التي أوردها كتاب المقتطف "رسائل الأرواح " ما أورده الكتاب تحت عنوان"ما وراء القبر" وأجمل فيه رأي المخترع الأمريكي المشهور أديسن عن الأرواح، ومحاولته إختراع آلة يمكن بها الاتصال بالأرواح. ولعلها المحاولة الوحيدة، التي لم تتم وعجز عنها هذا المكتشف الذي سجل مئات الاكتشافات.

ونشر المقتطف نص حديث الصحفي الأمريكي "لسكربورا" مع أديسن نقلاً عن مجلة "السنتفك أمريكان" وجاء فيه:

"إن أديسن الذي استنبط المصباح الكهربائي والفونغراف والصور المتحركة وبطارية النيكل والحديد والدينامو الكامل وغيرها من المكتشفات والمخترعات التي تدخل أعمالنا اليومية سيوجه سعيه وجهده إلى أمر يفوق كل اكتشاف واختراع بما لا يقاس. فإن في العالم نحو ١٥٠٠ مليون نسمة سيدركهم الموت عاجلاً أو آجلاً ولكنهم يجهلون كل الجهل مصيرهم بعده. ومثل ذلك يقال عن مجيئنا إلى هذه الدنيا.

وعليه فالحياة والموت لا يزالان سرا من الأسرار ولغزا من الألغاز التي لم يفتح بها على مخلوق.

منذ بضع أسابيع شاع أن هذا المختـرع العظـيم يعـد طريقة أو آلة لمخاطبة الذين انتقلوا من هـذا الوجـود إلـى وجود آخر أو عالم آخر. فنشرت صحف أميركا وأوربـا أن توماس أديسن اندمج في صفوف الروحانيين الذين بينهم الآن كثيرون من كبار العلماء والمؤلفين والمخترعين والطبيعيـين والمهندسين ورجال الـدين وغيـرهم. ووصـف الكتـاب الفرنسيون الواسعو الخيال آلة أديسن بأنها محطـة تلفونيـة أو مكتب تلغراف أو ما أشبه يقصدها الناس ليخاطبوا منهـا أرواح أحبائهم وأصدقائهم في العالم الآخر بطريقـة عاجلـة أكيدة.

وليس في الناس أحد أشد أسفًا من المستر أديسن علـى إذاعة أخبار مثل هذه. فقد قال لي في حـديثي معـه "إنـي لا أستطيع تصور شيء يسمونه الروح. تصور شيئًا لا ثقـل له ولا صورة مادية ولا حجما. وبعبارة أخرى تصور غيـر شيء. أنا لا أستطيع أن أعتقد أن الأرواح يمكن أن ترى في

أحوال معينة وتحرك الموائد أو تقرع عليها أو تعمل أعمـالاً سخيفة مثل هذه وكل ما قيل من هذا القبيل حديث خرافة".

وأقول هنا إنه قابلني لإزالة ما علـق بالأذهـان مـن الإشاعات التي شاعت عن غرضه من البحث والتنقيب فـي هذا الموضوع. ولا تزال الآلة التي شاع أنه يصنعها في دور التجربة والامتحان. وقد طلب مني أن أعلن ما يأتي. قال:

فكرت منذ مدة فـي اختـراع آلـة أو أداة يمكـن أن يستخدمها أو يؤثر فيها الذين غادروا هذا الوجود إلى وجـود آخر أو عالم آخر. والآن اسمع وع ما أقول لك. أنا لا أدعي أن شخصياتنا تنتقل إلى وجود آخر أو منطقـة أخـرى. ولا ادعي علم شيء في هذا الموضوع لأني لا أعلم شـيئًا فيـه ولا أحد من الناس يعلم. ولكني أدعي أنه يمكن صـنع آلـة بالغة من الدقة مبلغًا بحيث إنه إذا كان أناس في عالم آخـر يريدون مخاطبتنا في هذا العالم فإن هذه الآلة تكـون أوفـى بهذا الغرض من تحريك الموائد أو النقر عليها أو غير ذلـك من الوسائل السخيفة المعروفة.

والحق يقال إن سخافة هذه الوسائل هي التـي تحملنـي على الشك في صحة مناجاة الموتى التي يـدعونها. فلسـت

أدري لم يضيع الأشخاص الذين في العالم الآخر وقتهم فـي تحريك مثلث من الخشب على مائدة عليها حروف الهجـاء. وما غرضهم من تحريك الموائد. هذا كله يظهـر لـي مـن الأعمال الصبيانية حتى لا أستطيع أن أبحث فيه بعين الجـد والاهتمام. وعندي أنه إذا شئنا أن نتقدم تقـدما حقيقيـا فـي البحث العقلي وجب أن نقدم عليه بالآلات العلمية وبـالطرق العلمية كما نفعل في الطب والكهربائية والكيمياء وغيرها.

أما ما أريد أن أعمله فهو أن أجهز الباحثين في المباحث العقلية النفسية بآلة تلبس عملهم لباسا علميـا. وهـذه الآلـة ستكون مثل مصراع أو تشبه مفتاحا صغيرا يستطيع به رجل واحد ضعيف القوة أن يفتح مصراعا تدار به آلة قوتهـا ٥٠ ألف حصان. وستكون آلتي على هذا المثال حتى أن أصـغر قوة تكبر بها كثيرا فتساعدنا على بحثنا. ولا أقول أكثر مـن ذلك عن ماهيتها. وقد مضت علي مدة وأنا أشتغل بتفاصيلها وكان يعاونني في عملي هذا صديق فتوفي منذ حين. ولمـا كان يعلم ما أنا ساع إليه فالواجب أن يكون أول مـن يقـدم على استعمال هذه الآلة إن استطاع ذلك.

واعلم أني لا أدعي أني أعلم شيئًا عن بقاء الشخصيات بعد الموت ولا أعد بمخاطبة الذين انتقلوا من هـذا الوجـود وإنما أقول إني ساع في تجهيز الباحثين النفسيين بآلـة قـد تساعدهم في عملهم كما يساعد الميكروسكوب رجال الطـب في مباحثهم. وإذا عجزت هذه الآلة عن أن تكشف لنا شـيئًا خارق العادة فإني أفقد كل ثقة وإيمان ببقاء الشخصيات بعـد الموت كما تعرفه في هذا الوجود".

ومما يقال عن المستر أديسن أنه لا يصـدق المـذاهب المعروفة في الحياة والموت لأنه يعتقد أنها فاسدة الأسـاس. قال لي باسطًا مذهبه فيهما "عندي أن الحياة كالمادة غير قابلة للفناء. فقد كان في هذا العالم مقدار معين من الحيـاة علـى الدوام وسيبقى هذا المقدار كما هـو علـى الـدوام، فإنـك لا تستطيع خلق الحياة ولا إبادتهـا ولا مضـاعفاتها. وفـي اعتقادي أن أجسامنا مركبة من ملايين من الكائنات المتناهية في صغرها وكل منها حي مفرد ويـرتبط بعضـها بـبعض لتكوين الإنسان. ونحن نقول عن أنفسنا إن كلاً منا شـخص واحد قائم بنفسه ونتكلم عن الهـرة أو الفيـل أو الحصـان أو السمكة كأن كلاً منها فرد قـائم برأسـه ولكنـي أرى أن

طريقة التفكير هذه فاسدة الأساس فإن هذه الأشياء كلها تظهر أنها بسيطة مفردة لأن الكائنات الحية التي تتألف منها أصغر من أن ترى حتى بأعظم المكبرات.

وقد يعترض على هذا الرأي بأنه إذا كانت هذه الكائنات صغيرة إلى هذا الحد فلا يمكن أن تكون مؤلفة من أعضـاء مختلفة تستطيع القيام بالأعمال التي سأذكرها. فأقول في الرد على ذلك أنه لا حد لصغر الأشياء كما أنه لا حـد لكبرهـا واكتشاف الإلكترون خير جواب على مثل هذا الاعتـراض. فقد ظهر لي بالحساب أنه يمكن وجود حي مـتقن التركيـب والتنظيم مؤلف من ملايين من الالكترونات الصغيرة التي لا ترى بما نعرف من المكبرات.

وهناك دلائل كثيرة تدل على أننا نحن الخلائق البشرية يتصـرف كـل منـا تصـرف جماعـة مـن الأحيـاء لا تصرف حي واحد. وهذا ما يحملني على الاعتقاد أن كلا منا يحتوي على ملايين من الأحياء وأن أجسـامنا وعقولنـا تمثل أفعال الكائنات التي تتألف منها.

ولننظر الآن في السبب الذي يحملني على القول إنـه لا بد أن تكون أجسامنا مؤلفة من هذه الكائنـات. خـذ بصـمة

إبهامك كما يفعل البوليس في بصم أباهم المشبوهين ثـم أزل خطوط إبهامك بحرقها بالنار. فمتى نما الجلد ثانية تجـد أن خطوطه لم تتغير ألبتة عما كانت قبل احتراقه وقد امتحنـت ذلك بنفسي حتى تحققته. هذا سر من الأسرار ما فتئ مغلقًـا حتى الآن. تقول لي إن هذا عمل الطبيعة. فإن هذا جـواب يراد به المحاولة لا غير إذ لا معنى له بل هو وسيلة لإسكات السائل بذكر كلمة فارغة مكان الجواب. إن كلمـة "طبيعـة" ما أقنعتني قط. أما جوابي أنا فهو أن الجلد لم ينبت ثانية كما كان أولاً بمجرد الاتفاق بل إن هناك من وضع رسوم النمـو الثاني وعني بمطابقته لرسوم النمو الأول من كل وجه. وأنت لا تعلم شيئًا من تلك الرسوم وعليه فإن دماغك لم يشترك في هذا العمل. وهنا تدخل الكائنات المشار إليها وتشـترك فـي العمل. وأنا أعتقد جد الاعتقاد أنها تحوك نسيج جلد الإبهـام بمزيد العناية مستعينة على رسم التفاصيل الدقيقة بـذاكرتها العجيبة.

ولزيادة الإيضاح أقول. لنفرض أن كائنًا مـن سـكان المريخ هبط إلى هذه الأرض. ولنفرض أن بصره ليس دقيقًا كبصرنا وأن أصغر شيء يمكنه أن يراه بعينيه هـو جسـر

(كوبري) مثل جسر بروكلين وعليه فإنه لا يرى أجسامنا وقد يحسب الجسر المذكور شيئًا طبيعيا كما نحسب نحن العشـب أو الرمل أو المعادن وغيرها من الأشياء الطبيعية. ولنفرض أن هدم جسر بروكلين وذهب ثم عاد بعد سنين فمر من هناك فوجد جسرا جديدا مكان القديم وعلى مثاله أو إلى افتـراض أن مد ثانية بفعل فاعل عاقل. لا ريب أن الفـرض الثـاني أقرب إلى العقل.

هذا هو الموقف الذي يجب أن نقفه نحن بإزاء الكائنات الحيوية. والمسألة كلها مجرد افتراض وتخمين كما لا يخفى. فقد يكون ٩٥ في المائة من تلك الكائنات التي تتألف أجسامنا منها عمالاً والخمسة الباقية مديرة للعمل وقد تكون غير ذلك. ومهما يكن الأمر فإن مجموعها هو الذي يكون شكل أجسامنا الطبيعي وصفاتنا العقلية وشخصياتنا وما أشبه ذلك.

وهذه الكائنات هي الحياة بعينها وهـي لا تفتـأ تعمـل وترمم أنسجة أجسامنا وتشرف على وظائف أعضائنا. فـإذا أصيب الجسم بطارئ أفضى إلى موته كأن يكـون مرضـا عضالاً أو عارضا أو هرما فـإن هـذه الكائنـات تفارقـه ولا تترك وراءها إلا بناء خاويا خاليا. ولما كانـت عمـالاً

لا تكل ولا تمل فإما أن تدخل جسم إنسان آخر أو تبدأ العمل في صورة أخرى من صور الحياة وأشكالها. وسواء كان هذا أو ذاك فإن هذه الكائنات محدودة العدد وهي نفسها عملت كل شيء في عالمنا هذا ولكن تعدد التراكيب التي تتألف منها هو الذي أوقعنا في الخطأ فحسبنا أن لكل مولود حياة جديدة.

وهذه الكائنات خالدة لا تموت فإنك لا تستطيع إفناءها كما لا تستطيع إفناء المادة وجهد ما هناك أنك تستطيع تغيير صورة المادة لا غير. فقد كان مقدار الذهب والحديد والكبريت والأكسجين وغيرها في بدء العالم كما هو الآن بلا زيادة ولا نقصان. نعم إننا نستطيع التغيير في تركيب مركبات هذه العناصر ولكننا لم نظفر بتغير نسبها بعضها إلى بعض.

وهذا هو حال الكائنات الحيوية فإننا لا نستطيع إفناءها بل نغير صورها وأشكالها. وقدرتها متعددة الضروب حتى يصعب علينا تمييز أعمالنا في كل الأحوال. وعليه لم يستطع العلماء حتى الآن أن يرسموا حدا بين الأشياء الحية وغير الحية. وقد يكون أن هذه الكائنات تمتد إلى الجماد وتعمل فيه

وإلا فما هو الشيء الذي يجعل البلورات تتكون على أشـكال هندسية محدودة.

والآن نأتي إلى مسألة الشخصية. أنت لسكربورا (اسـم الكاتب) وأنا أديسن لأن في كل منا مجموعا مـن الكائنـات يختلف عن مجموع الآخر. فقد أثبت الطب باثنتين وثمـانين عملية جراحية شهيرة عملت حتى الآن أن مركز شخصـيتنا هو في تلفيف من تلافيف الدماغ اسمه تلفيف "بروكا". ومـن العقل والصواب أن نفرض أن مركز مقر الكائنات التي تدير حركاتنا وتشرف عليها إنما هو في ذلك التلفيف. فهو الـذي يشعرنا بالتأثيرات العقلية وبشخصيتنا.

ولقد قلت إن ما نسميه الموت إنما هـو مفارقـة تلـك الكائنات لأبداننا. والمسألة كلها فـي زعمـي هـي مسـألة ما يجري للكائنات المرشدة التي مقرها في تلفيف "بروكا". إذ المعقول أن الكائنات الأخرى التي تعمل عملاً ميكانيكيا فـي أجسامنا تتشتت وتذهب في جهات مختلفة طلبا للعمل فيهـا. أما الكائنات التي تتكون منها شخصيتنا فتكـون أنـت بهـا لسكربورا وأكون أنا أديسن ويكون زيد زيدا فمـاذا يجـري بها. هل تبقى مجموعة واحدة أو تتفرق في الكـون طالبـة

العمل منفردة لا مجتمعة. فإن كانت تتفرق فـإن شخصـيتنا لا تبقى بعد الموت. فقد تقدم القول إن هذه الكائنـات تعـيش إلى الأبد وتمنحنا الخلود الذي يرجوه كثير منا ولكن إن كانت تتفرق ثم تتحد بكائنات أخرى لتؤلف أجساما جديدة منها فإن ذلك يضيع علينا شخصيتنا والخلود الذي نرجوه أي خلود تلك الشخصيات بعينها.

ولي الرجاء أن شخصياتنا تبقى. فإن كانت تبقـى فـإن الآلة التي أنا ساع في اختراعهـا لا بـد أن تفيـدنا. وهـذا ما يحدو بي على الانهماك بعملها وإخراجها على غاية مـن الدقة. وإنني أنتظر النتيجة بذاهب الصبر".

هذا ما جاء في كتاب المقتطف "رسائل الأرواح" والذي صدر عام ١٩٢٨ ولم نعد نسمع شيئًا عن محاولـة أديسـن، ولعلها أبرز المحاولات التي فشل فيها، لأن مجالها يجـاوز عبقريته، وهو بالنسبة للمسلمين أمر مفهوم، ولكنه قد يكـون لدى غيرهم دليلاً على عدم وجود الأرواح...

ماذا رأت شيرلي ماكلين؟

شيرلي ماكلين، كما قد يعرف بعض القـراء، راقصـة ومغنية وممثلة أمريكية رزقت شهرة مدوية في هذه المجالات خلال الستينات، وقد يعجب البعض أن نزج بها فـي كتـاب إسلامي، ولكن المؤمن قد يضع صدقته في يد بغـي ويثـاب عليها، وشعارنا الذي نردده دائما، هو "المقولة" لا "القائل" فلا يهمنا القائل، وإنما تهمنا مقولته. فإذا كانت مقولته صـائبة، فلا يعنينا القائل في شيء. وقد قامت شيرلي ماكلين برحلات عديدة إلى آسيا، وأفريقيا وقد ألفت عددا من الكتب ومعظمها من أكثر الكتب انتشارا، والكتاب الذي نقتبس منـه إشـارتنا يتضمن صفحات عديدة عـن حياتهـا الخاصـة وغرامهـا ورواياتها وأغنياتها مما لا يهمنا هنا، ولكنه تضـمن أيضـا وصفًا دقيقًا لتجارب روحية، ومناقشة علمية لها استشـهدت فيها بشواهد من أينشتين وغيره، بل ظهر أنها اطلعت علـى أبحاث عالم المخ" ويلدر بنفيلد" الذي استشهدنا به في إحـدى الفقرات السابقة في هذا الفصل وهذا القسم هو ما يهمنا هنا. وما نرى فيه إضافة جديدة للموضوع خاصة وأن جزءا منها يتفق تماما مع بعض ما جاء في القرآن الكريم.

وكتابها الذي نشير إليه هـو "الـرقص فـي الضـياء Dancing in Light.

تقول شيرلي ماكلين إنها ذهبت إلى سانتا في (المكسيك) لتعالج على يدي سيدة متخصصة في العلاج النفسـي عـن طريق الإبر الصينية الذهبية تدعى "كريست جريسكون" تقوم على أساس أن وخز بعض المناطق الحساسة أو الخلايا يطلق ذاكرة الخلية فتطرح ما مر بها من تجربة. وهي تـؤمن أن كل ما يحدث لنفس الإنسان ينطبع علـى جسـده، وتحـتفظ خلاياه به. فإذا وضعت الإبر في مواضع معينة مثل منطقـة العـــين الثالثـــة وهـــي وســـط الجبهـــة، أو وراء الأذنين أو على الكتفين يمينًا ويسارا، فإن الإنسـان يستعيد مشاهد من حياته الماضية إذ تبدأ الصور تظهر أمـام "عين عقله" بقدر ما تثيرها الإبر. وأكدت الطبيبـة أن هـذه الصور ليست خيالاً صوره عقلها، ولكنها تجارب سابقة. وإن طاقة الجسم الإنساني مثل الموجات الكهربائية – المغناطيسية (إلكترو ماجيك) وأنها تنطلق من الجسم والعقل.

وقد يمكن للذين يتقدمون روحيا الاتصال بهذه الموجات كما يحدث في جهاز راديو.

وأمضت شيرلي ماكلين جلستين طويلتين كانت في حالة لا تشبه أبدا التنويم المغناطيسي، إذ كانت تشعر أنها تتلقـى وتلاحظ في الوقت نفسه، وأنها تعمل علـى مسـتويين مـن الوعي في وقت واحد.

في الجلسة الأولى، وبعد وضع الإبر في أماكنها، وبعد فترة من الاسترخاء أخذت الصور تتراءى. فرأت مرة سيدة مصرية قديمة تلبس رداءا ذهبيا أرجوانيا وكأنها ملكـة، ثـم رأت أفريقية فقيرة تبكي وعلى صدرها طفلة جائعة، ثم رأت رياضيا يونانيا أو رومانيا قـوي الجسـم يجـري بـرأس مرفوعة.. ورأت في هذا كله صورة لأمهـا فـي عصـور مختلفة، ثم رأت هرما من الكريستال يبرز من البحر شرقي الولايات المتحدة، يلمع في الشمس، وتحس أن الجو رطـب وأن حبيبات من الرطوبة تغلف الهواء، ورأت أبوابـا مـن الكريستال وأبهاء وقاعات كلها خالية وسط صحراء بلقع، ثم تغير المنظر فرأت حدائق وأنهار ونافورات وقصـورا مـن الكريستال، وأناس يذهبون ويجيئون، وحيوانات وطيور، وبدا وكأنهم يتخاطبون بطريقة غير محسوسة، والألوان برتقاليـة ووردية، كأنها قوس قزح، وسألت طبيبتهـا فقالـت لهـا إن

ما تراه هو "أتلانتس" قبل أن تندثر، وإن الكريستال خاصـة إذا استخدم في لباس الرأس يساعد على الاتصـال بـالوعي الأعلى. وأن الصورة التي شاهدتها عند الأبواب المهجـورة هي لها بعد اندثارها، وإن هذا يمكن أن يحدث لحضارتنا.

وكانت شيرلي ماكلين خلال الجلسـة، وكـذلك خـلال الجلسة الثانية تخاطب الطبيبة عما ترى فتسألها فترد عليهـا الرد المناسب.

وفي الجلسة الثانية وبعد غرس إبرة إضافية في منطقـة الحنجرة، وبعد بعض التعب شاهدت شيرلي صورة لشخص أقرب إلى الرجولة منه إلى الأنوثة. قويـا، جمـيلاً ودودا، وعندما سألته من هو قال لها "أنا أنت! أنـا نفسـك الأعلـى Higher Self. ودار حديث طويل بدا فيه وكأنه روحها، أو نفسها مجسمة، وقال إن صورته أقرب إلى الذكورة منها إلى الأنوثة، لأن الذكورة إيجابية والأنوثة سلبية، الذكورة تعطي، والأنوثة تتلقى (وقد كان في هذا الرد ما أقنع شيرلي ماكلين عن تساؤل كان يخطر لها دائما، لماذا كان الأنبيـاء جميعـا ذكورا ولم يكن منهم نساء) وسألت شيرلي "نفسها الأعلـى" عما إذا كان يمكنه أن يوقف اهتزاز أغصان شجرة تـراءت

لها من النافذة، فقال لها "اطلبي منها الإذن أولاً" وقالت "وهل تحس الشجرة" فقال لها "إن كل صور الحياة تنبض بالشعور. وسألت شيرلي الشجرة أن توقف أغصانها عـن الاهتـزاز. وبعد فترة قصيرة سكنت الأغصان دون أي حركة أو نامة..

قد يكون في هذا كله شـيء مـن الهلوسـة والخلـط، ومعروف أن عالم الأرواح حافل بالأرواح الشريرة والطيبـة على السواء، ولكن هذا لا ينفي أمرين يستحقان النظـر فـي كتاب شيرلي، وصفحاته تنوف علـى أربعمائـة. الأول أن بعض ما جاء فيها يتفق مع ما جاء به القرآن. فهي تؤمن أن كل خلية من خلايا أعضاء الجسم لها ذاكرة ويمكن أن تطلق ما عرض لها من تجربة.. "أخذت أنظر إلى ساقي وقدمي في البانيو وأقول إن لهما ذاكرة خاصة بهما".

إن هذا قريب جدا مما جاء في القرآن الكـريم من شهادة الأيدي والأرجل والجلود على أصـحابها يوم القيامة ﴿حتى إِذَا ما جاءوها شَهد علَيهم سمعهم وأَبصارهم وجلُودهم بِما كَـانُوا يعملُـون* وقَـالُوا لِجلُودِهِم لِم شَهدتم علَينا قَالُوا أَنطَقَنا ا ُ الَّذِي أَنطَقَ

كُل شَيءٍ وهو خَلَقَكُم أَولَ مرةٍ وإِليهِ تُرجعون﴾ (٢٠ – ٢١ فصلت)

وكذلك ما جاء عن الشجرة، أنها تؤكد أن ما من شـيء إلا يسبح ا ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم.

وثمة فقرة تذكر الإنسان بحديث "إن الميت يعذب ببكاء أهله الذي اختلف فيه المحدثون". وهي تتعلـق بزميـل لهـا يدعي كريستوفر. كان في الثلاثين من عمره عندما أصـيب بالسرطان وتنبأ له الأطباء بالموت الوشيك. ولكـن شـيرلي ماكلين أخذت تحثه على التشبث بالحياة، وتبعد عنـه فكـرة الموت عندما ظهر لها "نفسها الأعلى" وخاطبها غاضبا "لماذا ترين لنفسك الحق في الإصرار على بقاء كريسـتوفر حيـا بالجسم، عندما يكون أمامه ما يشغله في الأبعاد العليا، أنـت تعلمين أنه لن يموت حقًا فدعيه يمضي لطيته. إن أحدا مـن الناس لا يمكن أن يعلم ماذا يريد الآخر أو ماذا يعمله.."

فأجابته أن كريستوفر يريد أن يحيا بالبدن فقال لهـا إن جزءا منه فحسب هو الذي يريد هذا – ولكن "نفسه الأعلـى"

يريده. وأنت لا تفهمين هذا لأنك إنما تقـدرين الحيـاة فـي البدن. فدعيه يمضي في هدوء.

بعد هذا كفت عن أن تشجع زميلها، أو تأسى له، وبعـد ستة أسابيع عندما آوت إلى فراشها مبكرة أحست بشعاع من نور كأنه نسيم. فظنت أن الشمس قد أشرقت، ولكن الظـلام كان مطبقًا على الغرفة. ومع هذا ظلت تحس بـالنور فـي رأسها وكانت تشعر أنه يحيط بها. فعلمت أن كريستوفر قـد مات. وعندما تلقت مكالمة تليفونية بعد ذلـك بموتـه قالـت لمحدثها "لقد علمت بالفعل..".

والثاني تأملاتها الخاصة فيما انتهى إليه تطـور علـوم الطبيعة (الفيزياء) خاصة بعد نظرية الكوانتم التي كانت أشبه بصدمة هزت وزلزلت كيـان الرياضـات السـابقة عليهـا وتطورت حتى أوجدتها عالما جديدا أبرز ما فيـه "الـوعي" الذي لا يقتصر على الإنسان، ولكن على كل شيء، بما فـي ذلك جزئيات مـا تحـت المـادة subatomic Particles والفوتون Photon وأن الكون من ناحية محكـوم بقـوانين دقيقة تضبط حركات الأجرام السماوية.. ولكنه مـن ناحيـة أخرى يرفض "الميكانيكية" فتظهر خوارق وسلوكيات تنم عن

إرادة لا تخضع للقوانين العليا التي تحكم الكون، ويمكن أن تفسر من مدخل صوفي أكثر مما تفسر بمدخل علمي، إذ أنه لا يوجد علم مضبوط exact Science على ما قال ورنر هيزنبورج صاحب نظرية "اللاحتمية" وأن رياضيات الكوانتم تقودنا إلى المكان الوحيد الذي علينا أن نذهب إليه وهو "أنفسنا".

وأشارت شيرلي إلى أن بعض كهنة "اللاما" كانوا يثقبون في الماء المتجمد ثغرة يدخلون فيها. ويتأملون حتى يذوب الثلج ويتصاعد البخار من أجسامهم. وقالوا ببساطة إنهم كثفوا أو استحثوا الطاقة الإليكتروماجيك للذرات داخل أجسامهم. وهم يقولون إن معدل الطاقة الإليكتروماجيك يمكن أن تغير من طبيعة الأشياء الثابتة كحرق النار أو تجمد الثلج، فليس هناك قوانين ثابتة بالنسبة للوعي.

والفكرة الرئيسية التي تسيطر على شيرلي ماكلين هي اتفاق العلم والدين بالنسبة لقضية الروح وا تعالى وهي تؤمن إيمانًا لا يخالجه شك في وجود ا تعالى وخلود الروح. وإيمانها ينبثق من العلم والدين معًا، وهي تأخذ منطلقها من الطاقة التي يمكن أن تكون وعيا وروحا كما

يمكن عندما تتجمد أن تصبح مادة وجسما. وهي تـؤمن أن رجل العلم ورجل الدين سيتلاقيان عند قمة جبـل المعرفـة يوما ما. لأن مدخل كل واحد منهما وإن اختلف في الوسـيلة فهو يستهدف هدفًا واحدا هو الحقيقة وبهذا يكملان بعضـهما بعضا. والدين عقيدة دون علم والعلـم برهـان دون عقيـدة والمدخل الروحي لحقائق الكون وما فيه من اتساق يعتـرف بالأبعاد غير المرئية داخل وعينا، والمدخل العلمي يعتـرف بالأبعاد نفسها من خارجنا. وقد قارب العلم الحديث أن يقول إنهما شيء واحد. وإن الـوعي يجمعهمـا.. وإن المـدخلين ضروريان للمعرفة الشاملة.

السؤال الذي قد يتبادر إلى ذهن القارئ المسلم بعد قراءة ما جاء عن عالم الأرواح هو "أين الإسلام في هذا؟" بمعنـى أن عالم الأرواح، كما عرضناه، لا يفرق بين مسلمين، وغير مسلمين، ومعظم ما أوردناه، أو كل ما أوردناه هو عن أقوال أوربيين مثل ما شاهدته شيرلي ماكلين، وما قامت به الجمعية العلمية في بريطانيا، وهي كلها لا تشير إلى أي أثر للأديـان سواء كانت مسيحية أو إسلامية.

وقد يرى البعض أن ما أوردناه، وإن كان يثبت خلود الروح، فإنه يضع علامة استفهام كبرى عن مدى تجاوب ذلك مع التراث الإسلامي والمفهوم التقليدي لعالم ما بعد الموت.. وهي شبهة قوية، ويمكن ألا تقتصر على المسلمين، ولكنها تمتد إلى المؤمنين بالأديان الأخرى.. ولا بد من تصفيتها لأنها تمثل أحد الرواسب العميقة في نفوس المؤمنين على اختلاف أديانهم.

فالسبب الأول لها يعود إلى ما قرره القرآن ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذًا لأمسكتم خشية الإنفاق ﴾ فالإنسان تغلب عليه الأثرة والأنانية وضيق الأفق والانطلاق من منطلق ذاتي فلا يرى لغيره، وبالأكثر لغير المؤمنين بدينه، حقًا في رحمة ا أو دركًا لمغفرته مع أن أنبياء هذه الديانات على اختلافهم التمسوا من ا تعالى الرحمة للمخالفين، فهذا إبراهيم يقول ﴿ ومن عصاني فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ وهذا رسولنا محمد "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".. وكما سنشير في موضع لاحق فإنهم يطلبون الرحمة والعفو لمن هم أشد الناس استحقاقًا للعقاب لأنهم

الذين عارضوا أو خالفوا الرسل وجهـا لوجـه وبصـورة مباشرة.

ولكن أين فهم الأتباع من فهم الأنبياء. إن من العسـير على الأتباع أن يفهموا أن رحمة ا تسع المخـالفين لأنهـم يوزعونها بمقاييسهم ونفسياتهم..

وهناك بعد ما ينساه أصحاب الأديـان، ألا عقـاب إلا برسول ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسـولاً﴾.. وأمريكـا وأوربا لا تعرف رسالة الرسول العربي، ولم تقرأ أو تسـمع القرآن. وما لدى بعضها من معلومات عـن الإسـلام هـي معلومات مشوهة، وواقع المسلمين يجعلهم "فتنة" للأوربيـين تبعدهم عن الإسلام فكيف يطبق على هؤلاء معايير المسلمين الذين يقرءون القرآن، أو يتلى عليهم القرآن.. ليل نهار..

فإذا حوسب هؤلاء فعلى أساس المسـيحية التـي هـي ديانتهم، وتظل ديانتهم حتى تبلغهم رسالة الإسلام "كالمحجـة البيضاء".

ومعظم هؤلاء يؤمنون بإله واحد ولا يفقهون من لاهوت التثليث الكنسي شيئًا، وحتى الذين ينظرون منهم إلى المسيح

كابن ا   فباعتبار المعنى المجازي الذي قـد يؤديـه الأثـر "الناس عيال ا ".

وقد تكون أخلاق هؤلاء أقرب إلى خلق الإسـلام مـن كثير من المسلمين، ومعاملاتهم أشد إتقانًا، ونظمهم السياسية أقرب إلى القيم الأدبية والمعنوية التي هي في أصل الأديـان جميعا، فحتى لو أعطينا أنفسنا سلطة الحكم، فإن كفـتهم قـد لا تكون المرجوحة.

وقد عالج الغزالي وضع الناس بعد بعثة الرسول فقـال إنهم أصناف ثلاثة:

من لم تبلغهم دعوته. ولم يسمعوا بـه أصـلاً. أولئـك مقطوع لهم الجنة.

من بلغتهم دعوته وظهـور المعجـزات علـى يديـه وما كان عليه من الأخلاق العظيمة والصفات الكريمة. ولـم يؤمنوا به كالكفرة الذين بين ظهرانينا. أولئك مقطـوع لهـم النار.

من بلغتهم دعوته ، وسمعوا به، ولم يمتثلوا أوامـره ونواهيه. وهؤلاء أرجو لهم الجنة إذا لم يسمعوا ما يـرغبهم في الإيمان به.

ويشرح الشيخ عبد العال شاهين الفقرة الأخيرة فيقـول "يريد الغزالي بهذا أنهم سمعوا عنه أخبارا مكذوبة وعن دينه أخبارا لا تنطبق على حقيقته كالتشويه في أخبار الرسول أنه مزواج مطلاق. وأن دينه دين وثنية لأنه كان يسجد للكعبـة. وأنه خالف جميع الأنبياء واتجه إليها ولم يتجـه إلـى بيـت المقدس إلى نحو ذلك مما يقولون. وهم لا يعقلون إلا ترهات وأباطيل "[٦٣].

وكلام الغزالي صريح في أن من لم تبلغه دعوته، ولـم يسمعوا به أصلاً "مقطوع لهم الجنـة" "ومعظـم الأوربيـين والأمريكيين والآسيويين (من هنود أو صينيين أو يابـانيين) يدخلون في هؤلاء إذا لم يدخلوا في الفئة الثالثة التي "يرجـو لها الجنة".

---

(٦٣) جريدة الجمهورية في يوم ١٩٨٤/٧/٥.

فالقضية محاولة.. وعلى المسلمين أن يحاسبوا أنفسـهم قبل أن يحاسبوا غيرهم. وليدعوا غيرهم إلى ا لأنه تعـالى هو الذي سيفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

خاتمة الفصل:

توصلت البحوث العلمية الأخيـرة إلـى وجـود "روح" أو "عقل أو "إرادة" أو "وعي" لا يفنى بفناء الجسد المـادي، كما أن التجارب الروحية وقفت على حافة العـالم الأثيـري الغامض الذي تختلط فيه الحقيقة بالوهم، وأظهـرت أطيافًـا للروح لها حقيقة ما، وإن صعب تعينها على وجه التحديـد، ولم يكن من هذا مناص، وقد قال القرآن الكريم وهو يشـير إلى الروح ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾

وأظهرت التجارب أن العلم في هذا المجـال يتحسـس طريقه، وأنه يحاول التعرف على حقائق مرحلة متقدمة فـي حين أنه لم يحل مشاكل سابقة عليها، أو يصل فيها إلى تقرير حاسم، فحتى الآن نحن لا نعرف تماما ما هي الحياة، فـنحن على سبيل المثال – لا تعرف ما إذا كـان الفيـروس حيـا أو غير حي لأن الفيروس لا يتنفس، ولا يأكل ولا يشـرب، ثم إنه قد يتحول إلى ملح أو بللورات تذوب في المـاء كمـا

يذوب السكر مثلاً، ولم نشهد كائنًا واحدا يمكن أن تكون لـه مثل هذه الصفات ثم نضعه في قائمـة الأحيـاء.. فهـو إذن جزئيات ميتة، ولكن قولك إن الفيروس ميت خطأ أيضا، لأن الفيروس يتكاثر وتصبح له ذرية، وهذه صفة مميـزة مـن صفات الحياة، لكن تكاثر الفيروس لا يتم إلا إذا استعار روح غيره، بمعنى أنه يدخل خلية يهواهـا، وبالخطـة الوراثيـة الكامنة على شريط أو جزئية الوراثي يعرف كيف يستعبدها ويستعمرها فيأمرها بتشغيل أجهزتها الحيوية لحسابه، فتأكـل له وتتنفس له، وتصنع له "حياته" وذريته على حساب حياتها هي، ولكي تبعث ذرية بالعشرات أو المئات من داخلها كـان لا بد أن تموت هي ليخرج هو.. ليس كفيروس واحـد بـل فيروسات كثيرة لتسلك سلوك الأموات، فإذا عادت إلى الخلية دبت فيها بعض خصال الأحياء.

وقل مثل هذا عن الطاقة والمادة، والموت والحياة، كما أننا أحيانًا لا نستطيع أن نحدد إن كانت بعـض المخلوقـات نباتات أو حيوانات، فهناك كائنات أوليـة بسـيطة لا تـرى إلا بالميكروسكوبات، وعندما تنظر إليها تريد بذلك تصنيفها أو وضعها في مملكتها الصحيحة، عندئذ لا تستطيع أن تحدد

ذلك. ففيها صفات النبات جنبا إلى جنب صـفات الحيـوان. ومن أجل هذا ترى علماء النبـات يضـعونها فـي كتـبهم ومراجعهم، وكذلك يكون الحال مع علماء الحيـوان، فهـي نبات في حيوان أو حيوان في نبات [٦٤].

ولم يتصور الإنسان حياة نشطة فـي غيـر الصـورة العضوية التي تقوم على لحم ودم سواء كان فـي الإنسـان أو الحيوان أو الطيور أو الأسماك. ولكن الإسلام يحدثنا عن مخلوقات من نور كالملائكة. وعن شياطين "من مارج مـن نار".

فالدين أوسع آفاقًا من العلم في هذا المجـال، وبـالطبع فنحن لا نعلم شيئًا عن حياة مخلوقات من نور أو نار. ولكن المهم أن الصورة العضوية ليست هـي الصـورة الوحيـدة للحياة، التي يتصورها الإنسان، والتي جعلته عندما يتصـور مخلوقات فضائية يعطيها صورة قريبة مـن صـورته، وإن تفاوتت طولاً وعرضا، الأمر الذي يوضح أن الإنسان رغـم

---

(٦٤) انظر مقالًا بعنوان "الحائرون الثلاثة" بقلم الدكتور عبد المـنعم صالح في مجلة العربي العدد ٢٣٢ مارس ١٩٧٨ ص ٣٩.

كل تقدمه فإنه لم يستطع تصور حياة مختلفـة عـن حياتـه الخاصة.

فإذا كنا لا نعرف الحياة تماما، فنحن أيضـا لا نعـرف الموت تماما وهل هو "نوم طويل بدون أحلام" – إن النـائم المسجى على سريره هو – إلى حد ما – كالميت الممدد فـي كفنه فلا هو يسير، أو يتكلم أو يأكل أو يشـرب أو يمـارس نشاطًا مما يمارسه الإنسان في حياته، ولا يملك قوة تدفع عنه الأذى والفرق الأعظم بين الموت.. والنوم.. هي اليقظة فـي الصباح ففي حالة الموت، لا يأتي هذا الصباح – كما يتصور المنكرون للبعث – أو يأتي بعد فترة – قـد تكـون ألـوف السنين، عند البعث، ولكنها بالنسبة للميت عندما يبعث "يومـا أو بعض يوم" لأن مدلول الزمن مفقود في حـالتي النـوم.. والموت...

وفي هذا النوم، والعيون مغلقة، والبطاطين مسدلة، ترينا الأحلام عالما سحريا.. رجالا، ونساء، وبـلادا وحيوانـات، وحوادث.. ويقولون إنها "العقل الباطن". وهل يـرى العقـل الباطن ويقطع المسافات ويؤلف الروايات، ويظهـر للعـين المغلقة الرؤى والمشاهد. دع عنك صدق كثير من الأحـلام،

سواء في المستقبل أو الماضي. وهي حالات متـواترة فـي الشرق والغرب. في الحديث والقديم - ... وقد أجاز أبو بكر وصية ثابت بن قيس التي ذكرها في المنام لأحـد إخوانـه. وهي واقعة مؤكدة، ومذكورة في معظم كتب الحديث(٦٥).

ولقد يبدو قياس الموت على النوم فجا، ولكن الظـواهر التي تكتنف الزمن تسمح لنا به، بل وتجاوزه، كما أن حقيقـة أن المادة طاقة مختزنة محبوسة، وأن الطاقة مادة متحـررة منطلقة، جعل التحول من مادة إلى طاقة – أو العكس – ليس مستحيلاً من الناحية النظرية، حتى فـي صـورة لا تكـاد

---

(٦٥) انظر على سبيل المثال " سر الروح للإمام البقاعي الشـافعي" وكان ثابت قد قتل يوم اليمامة وعليه درع نفيسة، فمر بل رجـل مـن المسلمين. فأخذها. فجاء ثابت لرجل من المسلمين في المنام وقال لـه "أوصيك بوصية فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه" ثم وصف له مكـان درعه، وأين خبأها من أخذها – ثم أوصاه إذا قـدم علـى أبـي بكـر بالمدينة أن يسد دينه وأن يحرر بعض عبيده إلخ.." فأخبر الرجل خالدا فأرسل فأحضر الدرع ثم لما ذهب الرجل إلى المدينة ذكر لأبي بكـر رؤياه فأجاز أبو بكر ما جاء بها وقالوا: "لا نعلم أحدا أجيزت وصـيته بعد موته غير ثابت بن قيس".

تصدق. وقد نال مدرس مصري درجة الدكتوراه مـن كليـة الهندسة حول ذلك الموضوع ويومها قال إنه نظريـا يمكـن إرسال إنسان باللاسلكي بواسطة جهاز إلى أمريكا في جـزء من الثانية واستقباله هناك بجهاز آخر يعيده بشرا سويا"[٦٦].

"وقال بعض علماء الطبيعة: إننا لو تصورنا إنسـانًا يعـيش على أحد الأجرام السماوية التي تبعد عـن الأرض أربعـة آلاف سنة ضوئية، ولو تصورناه يملك منظارا ضخما يمكنه أن يرى ما يجري على الأرض لاستطاع هـذا الإنسـان أن يرى الآن في هذه الساعة الحوادث التي كانت تجري علـى الأرض منذ أربعة آلاف سنة – أي لرأى المصريين القدماء وهم يبنون معبد الكرنك أو لرأى تحتمس أو رمسيس الثـاني وهما يخوضان معاركها في كادش ومجدو"[٦٧].

وثمة ظـاهرة طبيعيـة معروفـة تـدعى "الانسـلاخ" Metamorphosis تحدث لبيضة دودة القز "التي تنقف عن

---

(٦٦) انظر مقالًا في العدد ١٢٥٦ من مجلـة صـباح الخيـر فـي ١٩٨٠/١/٣١ "استعدوا للسفر في الفضاء". ص ٥٠.

(٦٧) الإسلام ورسوله بلغة العصر للأستاذ أحمد حسين ص ٨٨.

دويدة صغيرة تنمو حتى تصير يسروعا يلتهم أضعاف وزنه من ورق التوت الغض، فإذا بلغ أشده واكتمل حجمه فكـان حوالي ثلاث بوصات طولاً – تأبى وأمسك عن وليمته تلك، وحل بسلوكه تحول ظاهر، يرفع رأسه ويمضـي متراوحـا قدما طورا، ورجعا آخر، وما يلبث أن يمج من مغزال فـي فكه الأسفل خيطًا حريريا دقيقًا يثبته إلى غصـين أو حامـل آخر راسخ مطمئن، ومن ثمة يأخذ في الغزل التفافًا ثم التفافًا في دورة على صورة الرقم الأفرنجي ٨ بضعة أيام، فيقـيم من حول نفسه كسوة طول خيوطها ألف ياردة أو أكثر مـن حرير ثمين حتى يصبح محويا في داخل فيلجة بيضاء.

ثم يخيم السكون المطلق، ويظهـر اليسـروع بمظهـر المأخوذ بالنعاس ملفوفًا في كفن من الحرير.. قد أسمي هـذه الحال نوعا من النوم، ولكن في داخل حشوته البدنيـة، تبـدأ استحالة من نوع باهر عجيب، فـإن كثيـرا مـن أعضـائه وأنسجته تأخذ في التقشر ثم تنبذ، ومن مادتها تتخلـق أبنيـة جديدة مختلفة تماما عن أصـلها، هـي أعضـاء البعوضـة المجنحة، كما لو أن هذا الكائن العضوي هـو فـي جملتـه

حيوانان مختلفان خلق الثاني من الأنقاض البدنية المتخلفة عن الأول[٦٨] ".

فهل هناك ما هو أكثر إثارة للدهشة والعجـب مـن أن يتحول اليسروع المكفن في فيلجة بيضاء من الحريـر إلـى بعوضة مجنحة تنطلق في الفضاء؟ إنه ليـروق للإنسـان أن يتصور أرواح الشهداء هكذا وقد انطلقت من أجسامهم حتـى تتعلق بأطيار الجنة.

إننا لا نستطيع أن نجزم بعدم وجود أرواح، بـل نحـن نجزم بوجودها، ولكننا لا نستطيع أن نعرف عنها المعرفـة المحددة التي تتشهاها الطلعة الإنسانية. أو يرتضـيها العلـم ومقاييسه، وكما قلنا، فإنه لم يكن من هذا بـد.. لأن الـروح تظل من أمر ا ، ويظل علمنا مهما كثر.. قلـيلاً أمامهـا.. وعلينا أن نقنع بالمبدأ العام الرئيسي الذي يمكن.. لولا التعنت والتمحك.. أن تتلاقى عليه العقلانية والإسلام. وهـو خلـود الأرواح – ولكن دون معرفة دقيقة لحالها..

---

(٦٨) حياة الروح في ضوء العلم ص ٥٤.

وقد يقنعنا في هذه الحياة الدنيا أن ما كنا نحبه في مـن فقدناهم من أم أو زوجة أو ابن أو أب، وما كان يذكرنا بهـم ويأخذ بألبابنا من حركة وسكنة، ونغمة في الصوت وومضة في العين "ولازمة" عند القول أو العمل، بل حتـى ملامـح الوجه واتساق الأعضاء.. إلـخ إن هـذه أصـلها صـفات والصفات لا تموت بموت أعزائنا.. ويمكن أن نحتفظ بحبنـا لها، ويمكن أن نتلمسها في آخرين – كنوع من الإحياء لها – ويمكن أن يكون حبنا لهذه الصفات معبرا مـا بـين الحيـاة والموت.

قال أحد الكتاب:

"كان لأمي تأثير كبير جدا في حياتي، فقد كنت أحبهـا: أحب كل ملامح وجهها، وأنغام صوتها، ولمحات عينيها، ثم انتبهت ذات يوم إلى أن ما كنت أراه فيها ليس هو ذاتيتهـا، وأن صفاتها الحقيقية هو ما فيها من حب وعطف ورحمـة، وهذه الصفات ليست ما يرى بالعين".

الفصل التاسع

الدار الآخرة: الجنة والنار

يصل تجهم العقلانية للدين إلى غايته عند ذكـر الحيـاة الآخرة، وما تصطحب به من ثواب وعقاب وجنة ونار، فإن وجود جنة "عرضـها السـماوات والأرض" ونـار تشـوي الوجوه، هو أمر يصعب على العقلانية أن تسيغه، وما أيسر أن تقول مع الذين قالوا ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾.

نعم ليس هناك ما هو أسهل من الإنكار ومن التخلي عن الإيجاب وما يتطلبه من إثبات.. ورغم الدهشة التي قد تمتلك النفوس، أول وهلة، من وجود دار آخرة، فهناك أكثـر مـن مبرر أصولي واحد، يوجب إيجابا وجود الدار الآخرة..

هناك غلبة الحياة على العدم، ولماذا نقبل فكرة الاندثار النهائي للحياة الإنسانية، وللجنس الإنساني وأديانه وفلسـفاته وحضاراته.. وكأنها لم تكن، ولا نقبل إعادة لهذه الحياة بعـد اندثارها.. إن الماديين أنفسهم يرفضون فكرة الاندثار. فعلماء

الطبيعة يرون أن الطاقة لا تفنى، وإنما تغير نفسها، ولما لم تكن جامدة، فإنها تأخذ أشكالاً متفاوتة تتوالى من حياة إلى حياة، وعلماء الأحياء يذهبون إلى أن المادة لا تفنى ويتحدثون عن "دورات الحياة" فالذين يموتون ويدفنون تتحال أجسامهم إلى عناصرها الأولى بفعل الميكروبات التي تملأ التربة، ومن هذه العناصر تستمد الأشجار بفضل جذورها الضاربة في أعماق الأرض غذاءها الذي يمكن الأشجار بفضل عملية التمثيل الضوئي من أن تثمر ثمارها. وعلى هذه الثمار وما يماثلها من بقول أو خضر يعيش الحيوان والإنسان حتى يموت لتبدأ دورة جديدة من دورات الحياة بحيث جاز لكاتب أن يقول "فما يدريك بعد هذا أن جسم سقراط أو الإسكندر أو تيمورلنك قد توزعت عناصره بين شجرة وطائر وثعبان ودودة وحصان وآلاف أخرى من الأحياء: لقد اختفوا ظاهريا في التراب كما اختفى غيرهم، ولكن عناصرهم دارت وتدور في أحياء أخرى.

وما يدريك أن الجسم البض الذي يتلوى أمامك على خشبة المسرح راقصا رقصات تثير الإعجاب، ما يدريك أن

عناصره كانت من قبل موزعة بين جراثيم وأميبيا وخنـافس وسحال وثعابين وديدان وخنازير وكلاب وغير ذلـك. وقـد تظنون أنني أقصد بهذا تناسخ الأرواح، ولكن ما هذا قصدت، بل أعني تلك العجلة الضخمة التي تـدور بعناصـر الأرض وبأحيائها، فتحيل التراب حياة والحياة ترابا[٦٩]".

فهذا نمط من "البعث" بالتعبير القرآني في صورة مادية وإذا كان ا تعالى قد وضع سننًا تجري بها هذه الدورات في صورة متكررة آلية غير محسوسة، وتحمل مع هذا صـورة من صور الإعجاز والخلق، فما هي الغرابة في أن ينشئ ا نشأة أخرى يوم تبدل السماوات غير السـماوات والأرض.. عنــدما يحــدث عــارض يــودي بــالكرة الأرضــية أو يؤدي إلى فناء الجنس البشري عليها..

أما كيف يبعث ا تعالى العظام وهي رميم فهو السؤال الذي ردده المشركون في القـديم، ويـردده الماديون في الحديث، وقـد رد عليـه القـرآن ردا

---

[٦٩] دورات الحياة للدكتور عبد المحسن صالح – المكتبـة الثقافيـة يناير ١٩٦٣ – ص ٥٠.

منطقيا ﴿ وضرب لنَا مثَلاً ونَسِي خَلْقَه قَالَ من يحيِي الْعظَام وهِي رمِيم* قُلْ يحيِيها الَّذِي أَنْشأَها أَولَ مرةٍ وهو بِكُلِّ خَلْقٍ علِيم﴾ (٧٨ يس)

﴿ وهو الَّذِي يبدأُ الْخَلْقَ ثُم يعِيده وهو أَهون علَيهِ ولَه الْمثَلُ الأعلَى فِي السماواتِ والأَرضِ وهو الْعزِيز الْحكِيم﴾ (٢٧ الروم)

***

وليس الإسلام وحده هو الذي يقول هذا الكلام، إن اليهودية والمسيحية تذهب إليه أيضا وبنفس الألفاظ تقريبا "فالقيامة" – وهو التعبير المسيحي للدار الآخرة لدى المسلمين – موضوع مقرر، ومقدس، وليس هناك ما هو أكثر تأثيرا ولمسا للنفس من عبارة "رقد على رجاء القيامة" التي نراها على شواهد قبور المسيحيين، أو نقرأها في صفحات الوفيات.

جاء في كتاب الخلود للدكتور سيد عويس:

وقد وجه العهد القديم النظر إلى القيامة. فقد جاء فيه "تحيا أمواتك تقوم الجثث استيقظوا ترنموا يا سكان التراب

(إكو ١٥ – ١٣ – ٢٤) وكثير من الراقـدين فـي تـراب الأرض يستيقظ هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العـار للازدراء الأبدي. والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والـذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور"، ولمـا لـم يؤمن اليهود بهذا، وقالوا إن عظامنا قد صارت أرضا وفنيت "هاهم يقولون يبست عظامنا وهلك رجاؤنا. فقـد انقطعنـا، كانت الإجابة على ذلك.. قل لهم هكذا: قال السـيد الـرب: هأنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي وآتي بكـم إلى أرض إسرائيل. فتعلمون أني أنا الرب عند فتحي قبوركم وإصعادي إياكم من قبوركم يا شعبي وأجعل روحـي فـيكم فتحيون وأجعلكم في أرضكم فتعلمون أني أنا الرب تكلمـت وأفعل" (حز ٣٧ : ١٢ – ١٤).

وقد أكثر كتبة العهد الجديد من ذكر القيامـة المجيـدة للأجساد إيذانا بمركزها العظـيم بـين المبـادئ المسـيحية وتعظيما لفوائدها. حيث وردت كلمة "قيامة" مـع مشـتقاتها نحوا من مائة وإحدى وعشرين مرة. منها إحدى وعشـرون تختص بالقيامة الوقتية، والمائة بالقيامة الأخيرة. هـذا عـدا مترادفاتها كالحياة وغيرها ومستلزماتها كالدينونة ونحوها.

وكان الرسل الأماجد في خطـبهم العامـة والخاصـة، يجتهدون في أن يجلوا موضوع القيامة مقررين إياه بوضوح، كما أثبت ذلك "لوقا الإنجيلي" في سفر الأعمال. ففي خطابات "بطرس" الخمسة، قرر هذه الحقيقة عشـر مـرات، وفـي خطابات "بولس" الستة، ذكرها في خمسة منها عشر مـرات أيضا، كما أن خطاباته التي ألقاها ولم يسجل نصها، كانـت مرتكزة عليها. منها خطبه الثلاث التي ألقاهـا فـي مجمـع تسالونيكي، كانت تعلن بوضوح هذه الحقيقة، "فدخل بـولس إليهم (مجمع اليهود) حسب عادته وكان يحاجهم ثلاثة سبوت من الكتب – موضحا ومبينًا أنه كان ينبغي أن المسيح يتـألم ويقوم من الأموات (١ ع ١٧ : ٢ – ٣) ، وكان موضـوع بشراه في أثينا، نفس هذا الحق "يبشرهم بيسوع والقيامـة (١ ع ١٧ :١٨). ومن فحوى خطابه الخاص له "فيلكس" نـرى أنه لم يغفل عن الإلمام إلى هذه الحقيقـة بطريـق الكنايـة "الدينونة العتيدة" (١ ع ٢٤ :٣٥).

وما ذلك إلا لكون الرسـل اعتبـروا أن القيامـة هـي الموضوع الجوهري، الذي شعروا بمسئوليتهم نحوه بالشهادة الصريحة في كل حين بمنتهى الشجاعة والتضحية: "وبقـوة

عظيمة كان الرسل يؤدون الشهادة بقيامة الرب، لذا أثبتوا في صلب قانون إيمانهم أن "أؤمن بقيام الجسد"[٧٠].

والكيفية التي تبعث بها الأجساد في المسيحية قريبة من كيفية بعث الأجساد في الإسلام "فما أن ينفخ في البوق حتـى تقوم الأجساد الميتة، وتسلم البحار الأموات الذين غرقوا فيها. وتتقرح الصخور والكهوف" وكل عبد وكل حر أخفوا أنفسهم في الغابر وفي صخور الجبال" وحينئـذ يتقـدم ملائكـة ا ليفصلوا الأشرار من الأبرار فيقف الأبرار عن يمين ا ، أما الهالكون الأشرار فيحشرون جميعا إلـى اليسـار. ويكـون مصير الأولين الحياة الأبدية، بينما يكون مصـير الآخـرين العذاب الأبدي أو النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته"[٢].

الدار الآخرة – هيكل العدالة المثلى:

على أن السبب الأعظم الذي يوجب إيجابا قيام "الـدار الآخرة" في الإسلام هو استكمال العدالة التي عجزت الحيـاة الدنيا عن أن تحققها. فالفكرة الرئيسية في الدار الآخرة هـي

---

(٧٠)، (٢) ص ٨١ - ٨٢

إثابة المحسن وعقاب المسيء. وللقيام بهذا الدور ومن أجلـه أوجب ا تعالى الدار الآخرة وقرن بها الجنة والنار، وهـو أمر واضح جدا في القرآن ومكرر في مئات الآيـات التـي يعجز عن استيعابها هذا الفصل، فالدار الآخرة هـي هيكـل العدالة الكاملة والمثلى التي تنتصب لكل مظلوم "حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء لم نطحتها". كمـا جـاء فـي الحديث وسواء أريد بالحديث هذه الواقعة وأمثالهـا بالـذات أو أريد به رمز لشمول العدالة، فإن الفكرة في الدار الآخـرة هي دار "العدالة".. وبدون الدار الآخرة لا يكون هناك عدالة، لأن محاكم الدنيا، كما يعلم كل فرد، إذا أدانت ظالمـا فإنهـا تفلت عشرة، فضلاً عن أن هناك من القضاة من كان يجـب أن يقف موقف المتهمين والعكس بالعكس، وحتى لو أدانـت المجرمين فإنها لا تثيب المحسنين، فإذا سمح بهذا فإن بنـاء العدالة ينهار، فالعدالة لا بد وأن تكون عدالة كاملة أذكى من تحايل المخادعين وأقوى من هيمنة السلاطين.

وقد كانت هذه النقطة – أعني الحاجة إلى هيكل للعدالة المثلى – هي التي جعلت الفيلسوف كانـت يـؤمن بالـدار الآخرة، لأن فلسفته القائمة على الواجب لا يمكن أن تكتمـل

إلا بوجود مثل هذه المحكمة التي تجعل للواجب كيانًا وواقعا يخرج به من إطار الفرض النظري. وتمثل هذه اللفتة نقطة التقاء بين المدخل العقلاني لمؤلف "نقد العقل المجرد" والمدخل الإيماني للإسلام. وتبرهن على أن البحث المخاص الأمين عن الحقيقة يجعل أصحابه يصلون في النهاية إليها، حتى وإن اختلفت سبلهم وأساليبهم ومداخلهم.

ونوجه الانتباه إلى نقطة هامة للغاية، إن فكرة خلود الروح كانت في بعض الديانات والمعتقدات – هي التي أدت إلى وجود الدار الآخرة، بل وإلى وجود ا تعالى كما رأينا في الفصل السابق، ولكن الأمر في الإسلام مختلف، فإن فكرة العدالة التي يقوم عليها الإسلام هي التي استتبعت خلود الروح لتأخذ العدالة مجراها. ومن هنا جاء التركيز في الحياة الآخرة على الثواب والعقاب، أي العدالة التي لا تفلت أحدا بما في ذلك المسلمين أنفسهم.

وتتضح أهمية هذه الملاحظة من أن خيال الإنسان القديم أظهر له الخلود كأمل أسمى ومواصلة للبقاء الذي قطعه الموت. وبالتالي قاده إلى الإيمان با . ولكن خيال الإنسان الحديث قد لا يجعل الخلود هو الأمل الأسمى له، كما كان

بالنسبة للإنسان القديم [٧١] ومن ثم لا يكون هناك مبـرر لأن تأخذ الدار الآخرة الصورة الصارمة التي أخذتها في الإسلام، بل لقد يفضل الكثيرون ألا توجد أصلاً، لأن الخـوف مـن عذاب النار قد يفوق الأمل في نعيم الجنة.

والفرق بين الإسلام والأديان الأخرى في هذه النقطة هو الاختلاف ما بين المنطلق الموضوعي. والمنطلـق الـذاتي. الحقيقة الموضوعية بكل ما فيها من تجرد، والمنطلق الذاتي الذي يبلور الهوى الفردي.

والعدالة في حقيقتها تعني الحق، فهـي الحـق مطبقًـا، والحق هو الأسـاس لكـل شـيء، وللأديـان وللسـماوات والأرض، بل هو أعظم، هو اسم من أسماء ا تعالى، وهو رمز تعالى. واقرأ إذا شئت:

---

[٧١] انظر ما جاء في كتاب "الخلود للـدكتور سـيد عـويس" عـن ملاحظة وليام أوسلام من أن أقلية من المحتضرين كانوا يرغبون فـي حماس في حياة بعد الموت. وأن أقلية أخرى كانوا يأملون فـي الفنـاء النهائي، أما الأغلبية من هؤلاء الأشخاص فقد كانوا غير مكترثين ص ٥٨.

﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا لـه الحكـم﴾ (٦٢ الأنعام)

﴿ فتعالى الله الملك الحق﴾ (١١٤ طه)

﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى﴾ (٦ الحجر)

﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يـدعون مـن دونـه الباطل﴾

(٣٠ لقمان)

﴿ ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق﴾

(١٩ إبراهيم)

﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾

(٨٥ الحجر)

وقد يتشدق البعض.. هذا فرض.. وليس دليلاً ، ونحـن نقول إن كل الحقائق تبدأ بفروض وتنتهي بالحقائق والوقائع. وهذا هو العقل أما الحس فهو يعجز عن الوصول إلى الأدلة، وجـدير بـالعقلانيين أن يؤمنـوا بمـا يوجبـه العقـل.

لا الحس، وإذا وصلت السفسطة بنـا إلـى إنكـار "الحـق" و "العدل" وما يوجبانه فلا فائدة.

وليس يصح في الأفهام شيء

إذا احتاج النهار إلى دليل

والحقيقة التي لا يماري فيها أحد هي أن نظمنا الدنيوية عجزت عن تحقيق العدالة، وحتى عندما تدعي بعض الـدول أنها تطبق الشريعة فإما أنها لم تفهم الشريعة حق الفهم... أو أنها أساءت التطبيق بحيث أصبحت الدنيا دار ظلم أكثر ممـا هي دار عدل. فهناك الملايين الذين يكدون ويشقون ويعملون ليل نهار في صمت ولا ينالون ما يكفل لهم الحياة الكريمة أو يتيح لهم حظًا من الاستمتاع، فهم يعيشون ويموتـون يلفهـم الجحود والنكران، كجنود مجهولين في جيش جـرار طـواه الزمان، وفي مقابل ذلك يظفر الـدهاة والمنـافقون وأبنـاء الأغنياء وورثة الحكام بالذكر والشهرة ويتمتعون بكل طيبات الحياة. وقد يكون منهم من لم يعمل عملاً صالحا في حياته أو يحسن شـيئًا، وقـد يكـون بيـنهم مـن يسـتحق السـجن أو يكون قد ارتكب من الموبقات ما لو قطع إربا لمـا نـال ما يستحق، ونجد الغـادرين مـن الساسـة.. والقتلـة مـن

العسكريين يتصدرون قوائم الشـرف ويشـغلون مناصـب الرئاسة، وعندما يموتون يشيعون بمواكب مهيبة.. فإذا جـاز أن يستمر هذا وأن يقف الأمر عنده لما كانت هناك عدالـة، ولما كان هناك حق، ولكان كل هذا الوجود باطلاً..

وقد يقول قائل.. ولماذا سمح ا تعالى بكل هذه المظالم في الحياة الدنيا، وكان يمكنه تعالى أن يحول دونها بـادي ذي بدء ولا يكون هناك حاجة لإستئناف. والذي يسأل هـذا السؤال هو كمن يسأل لماذا لم يجعل ا تعالى للناس عينًا في ظهورهم ليروا بها ما خلفهم أو يجعل بـدلاً مـن أقـدامهم المنبسطة دائرة كالعجلة.. إلخ هذه السفسطات والأسئلة التـي لا تقف عند حد. إن ا تعالى أوجد الحياة الدنيا تبعا لنواميس معينة، وجعلها اختيارا ومسرحا للفتنة من ناحية والإيمان من ناحية أخرى. ولم يجعل الإنسان ملاكًا ، وكان يمكنه ذلـك، فلا يخطئ ولا يذنب، وسلح كل واحد بالهداية كما سلط عليه الفتنة. وصورة الحياة الدنيا على ما فيها من نقص وقصـور أكثـر روعـة مـن حيـاة الملائكـة الـذين لا يفتنون ومن ثم لا يذنبون ولا يحاسبون، شـرط أن يـتم

الإنصاف في الحياة الأخرى حتى لا يكسب الظـالمون مـن ظلمهم، ولا يغمط المحسنون إحسانهم.

الجنة والنـار:

إذن الحياة الآخرة في جوهرها "محكمة عدالـة" لإثابـة المحسن.. ولعقاب المسيء.

كيف يثاب الأول؟.. وكيف يعاقب الثاني؟

أوجد الإسلام جنة للأولين.. وجحيما للآخرين.

وعلى الذين يعجبون أو ينكرون أن يقولوا لنا ماذا كـان يمكن أن يوجد للثواب والعقاب غير هذين؟

وقد لا يكون هناك اعتراض على إيجاد الجنة والنـار، خاصة وأن الإسلام لم ينفرد بهما، فهما في معظم الأديـان، وإن تميز الإسلام بتأكيدهما بصفة لا توجـد فـي الأديـان الأخرى باستثناء الديانة المصرية القديمة.

ففي المسيحية جنة ونار، وبالنسبة للجنـة، اسـتخدمت المسيحية التعبير الذي استخدمه الإسلام تقريبا " ما لـم تـر عين ولم تسمع أذن. ولم يخطر على بال إنسان ما أعـده ا

للذين يحبونه" (أكو ٢: ٩) وجعلت المتعة العظمى في الجنة الأنس بلقاء ا تعالى (كما في الإسلام) أما النار فهي نار حقيقية مستعرة – كالتنور – إلى الأبد.

وإنما يكون اعتراض المعترضين على ما اقترنت به الجنة والنار من صفات، ففي الجنة حور عين، ولحم طير، وأنهار من عسل ولبن وأساور من ذهب وإستبرق وفي النار جحيم ومهل يشوي الوجوه وسلسلة ذرعها سبعون ذراعا.. إلخ، واعتراض المعترضين ينصب على "حسية" النعيم في الجنة و "وحشية" العذاب في النار..

وهي شبهات روج لها المستشرقون وأعداء الإسلام ولكنها قد تخطر لغيرهم من الذين لم يلموا بالأبعاد الكاملة لهذه القضية، فيحكمون عليها بالظواهر أو بما يتطرق إلى النفس أول وهلة، دون تحقيق فكر أو إنعام نظر..

والرد على هذه الشبهات متعدد الوجوه، وهو في النهاية يمحوها تماما.. ولا يدع لها أثرا..

فأول شيء.. إن علينا أن نفهم طبيعة الخطاب القرآني وهدفه..

فالقرآن الكريم ليس قصة لها بداية تبدأ منها.. ولها نهاية تنتهي بها ثم يسدل الستار عليها، وليس هو سردا لتاريخ أو إنباء بمعلومة.. لا يترك أثرا.. ولا هو مجرد إعلام ببعض الظواهر أو الوقائع، أو المبادئ.. إن القرآن كتاب هداية وموضوعه الإنسان وهدفه هو هداية هذا الإنسان، وهذه الهداية تتطلب عادة كفاحا وجهادا وقوة وعزيمة كي ينتقل الإنسان من عالم الضلالة إلى عالم الهداية. خاصة إذا اقترن عالم الضلالة بالشهوات وبما تهوى الأنفس، وبما خلفه الآباء وما تقره الأوضاع القائمة بالفعل.

والإنسان هنا اسم جنس كما يقولون.. أي أن المقصود به الإنسان في كل زمان ومكان.

علينا أن نقدر مدى صعوبة المهمة التي تصدى لها القرآن والتي لا تماثلها فيما نعلم مهمة ثانية حتى بالنسبة للأديان الأخرى التي كانت مقصورة على أناس دون أناس، وعلى زمن دون زمن.

والقرآن كما هو معروف نظم لكلمات، ولا يملك قوة أخرى غير هذه الكلمات. فكان يجب أن تكون هذه الكلمات

من القوة بحيث تصيب من الإنسان الموضع المؤثر والوتر الحساس، وبالتالي يمكن أن تغير وتحقق الهداية.

وهذا أمر لا يتأتى بسرد، أو بإعلام، أو بتقرير حقائق علمية وحسابية، فلو جاء القرآن بأن ناتج ضرب ٢ × ٢ هو ٤ ، أو أن أطول أضلاع المثلث أقصر من ضلعيه الآخرين لما لمس هذا نفسية الناس. فلم يحدث أبدا أن قامت ثورة لمثل هذا الهدف، أو تحركت الجماهير لتحقيقه، أو غير شيئًا من نفسية الناس، فالمدخل الوحيد لتغيير الناس هو معالجة "النفس"، التي لا تختلف باختلاف الأزمان والأماكن. وبقدر ما يعالج أصل ما في هذه النفس، بقدر ما يكون عمق التأثير والتغيير.

من هنا اكتسب الخطاب القرآني طبيعة نفسية "سيكولوجية" وأسلوبا فنيا، لأن الفن وثيق الصلة بالنفس.

وكان لا بد بالنسبة لمعالجة القرآن للثواب والعقاب أن يأخذ هذا الطابع، كما أخذته معالجة القرآن للقضايا الأخرى الرئيسية للإيمان والهداية.

وطبيعة المعالجة النفسـية – الفنيـة لهـا مقتضـيات لا يمكن أن تقوم إلا بها، منها تكثيف التصوير بحيث يضمن تأثيره على الطبائع الجافيـة، والقلـوب القاسـية والنفـوس اللاهية، واستخدام الرمز، والاستعارة والمجاز والالتجاء إلى التكرار والتأكيد والإطناب، واستخدام الجرس الموسيقي للفظ بحيث يدخل الأذن، ويصل إلى أعماقها.. وغير ذلـك مـن المقتضيات التي تتطلبها الفنون التي يراد بها التـأثير علـى النفس، بالإضافة إلى نبل المعاني وسمو الغايات التي هي لب الهداية.

ولم يكن هناك معدى من هذا، ما دامت معجزة الإسلام كتاباً. ومادام هدف هذا الكتاب هو تغيير النفوس وإنقاذها من الضلالة إلى الهداية، ولم يكن ليجدي استخدام أسلوب الحوار "السقراطي" الذي يتطلب محاورا ومحاورا وأسئلة وأجوبـة، أو تقرير مبادئ علمية لا تتحرك لهـا النفـوس أو الإقنـاع العقلي المجرد والجاف.

إن مخاطبة الجماهير العريضـة لـيس فحسـب عـن موضوع الهداية بل حتى في الموضوعات العلميـة يتطلـب أسلوبا خاصا يختلف عن الأسـلوب الفنـي والاصـطلاحي

تماما. وقد لاحظ أينشتين ذلك عندما وجه أحد الكتاب نظـره إلى كتابات سير أرثر أدينجتون وسير جيمس جنـز اللـذين أصدرا عددا من الكتب العلمية عن الرياضة والكون بأسلوب له الطابع الأدبي ووجهاها إلى الجمـاهير العريضـة فقـال لمحدثه.

"يجب أن تميز ما بين الكتابات الأدبية، والبحث العلمي أن هؤلاء السادة هم علماء حقًا، ولكن لا يجـوز أن تؤخـذ تعبيراتهم الأدبية على أساس أنها تقرير علمي.. إنهـم فـي كتبهم "رومانتيكيون" وغير منطقيين، ولكنهم فـي أبحـاثهم يعملون بالمنطق العقلي الدقيق"[٧٢].

ومن غير المفهوم أن تمدح الفنون كالموسيقى والشـعر والقصة والرسم، وأن توضع في أعلى منجزات الإنسان، ثم تذم إذا استخدمها القرآن لهداية الناس.

ما نريد أن نصل إليه هو أنه لما كان هدف القرآن هـو الهداية، ولما كانت الهداية لا تتأتى بالصـورة الجماهيريـة

---

[٧٢] دورات الحياة للدكتور عبد المحسن صالح – المكتبـة الثقافيـة يناير ١٩٦٣ – ص ٥٠.

ولكل الناس في كل العصور، إلا بالمعالجة السـيكولوجية – الفنية للطبيعة الإنسانية، ولما كانت الوسائل الأخرى – بمـا في ذلك الإقناع العقلي المجرد – تعجز عن ذلك. فقد تعـين على القرآن أن يستخدم هذا الأسلوب، وقد استخدمه ونجـح في الهدف – وهو الهداية، وخلق الإنسان خلقًا جديدا.

ولا يمكن محاسبة هذه الوسيلة – مادامت هي الوحيـدة التي تحقق الهداية. لأن أسلوبها يختلف عن الأسلوب العقلاني – أسلوب الأبيض والأسود، الحقيقة والواقع، وأنه يلجأ إلـى الظلال والأطياف ويستخدم الرمز والمجاز. وما قـد يـؤدي إليه هذا من أن الأوصاف التي جـاءت فـي القـرآن قـد لا تكون مما نعهده في الحياة الدنيا، أو نحكم عليه بمشاهداتنا في الحياة الدنيا. فالحور العين، ولحم الطير، وأنهار الخمـر والعسل، والسلسلة التي طولها سبعون ذراعا، والمهل الـذي يشوى الوجوه، كل هذا ليس شرطًا أن يكون مما نعهده فـي الدنيا بالفعل وإنما استخدم القرآن ما نعهده لأنه لـيس مـن طريقة أخرى لتقريب المعنى.

ومن هنا قال ابن تيمية فـي "الإكليـل فـي المتشـابه والتأويل" "وهذا القدر الذي أخبر به القرآن من هذه الأمور لا

يعلم وقته وقدره وصفته إلا ا ، فإن ا يقول ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعـين﴾ ويقـول: " أعـددت لعبـادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر". وقال ابن عباس "ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء" فإن ا قد أخبر أن في الجنة خمـرا ولبنًـا ومـاء وحريرا وذهبا وفضة.. وغير ذلك، ونحن نعلم قطعا أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه، بل بينهما تباين عظيم مع التشـابه كما في قوله ﴿وأتوا به متشابها﴾ على أحد القولين، إن يشبه ما في الدنيا، وليس مثله. فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هـذه الحقائق، كما أشبهت الحقائق من بعض الوجوه. فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشـترك بينهمـا. لكن لتلك الحقائق خاصية لا ندركها في الدنيا، ولا سبيل إلى إدراكنا لها لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه. وتلك الحقائق على ما هي عليه هي تأويل ما أخبر ا به. وهـذا فيه رد على اليهود والنصارى والصـابئين مـن المتفلسـفة وغيرهم، فإنهم ينكرون أن يكون في الجنـة أكـل وشـرب ولباس ونكاح ويمنعون ما أخبر القرآن. ومـن دخـل فـي الإسلام ونافق المؤمنين تأول ذلـك علـى أن هـذه أمثـال

مضروبة لتفهيم النعيم الروحاني إن كـان مـن المتفلسـفة الصابئة المنكرة لحشر الأجساد.. وإن كان من منافقة الملتين مقر بحشر الأجساد تأول ذلك على تفهم النعيم الذي في الجنة من الروحاني والسماع الطيب والروائح العطرة كـل ضـال يحرف الكلم عن مواضعه إلى ما اعتقد ثبوته. وكان في هذا متبعا للمتشابه، إذ الأسماء تشبه الأسماء والمسـميات تشـبه المسميات. ولكن تخالفها أكثر مما تشابهها، فهؤلاء يتبعـون هذا المتشابه ابتغاء الفتنة بما يوردونه من الشـبهات علـى امتناع أن يكون في الجنة هذه الحقائق، وابتغاء تأويله ليردوه إلى المعهود الذي يعلمونه في الدنيا. قال ا تعالى ﴿وما يعلم تأويله إلا ا ﴾. فإن تلك الحقائق قال تعالى فيها ﴿فـلا تعلـم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ لا ملك مقـرب ولا نبـي مرسل" [٧٣].

وصنف الغزالي في كتابه "ميزان العمل" الناس في أمر الآخرة أربع فرق الأولى هـي المؤمنـة بـالنعيم الحسـي

---

(٧٣) الإكليل في المتشابه والتأويل – لابن تيمية – مكتبـة أنصـار السنة المحمدية – ص ١٢ – ١٣.

والمعنوي، وهؤلاء هم جمهور المسلمين والثانية وهم بعض الإلهيين الإسلاميين من الفلاسفة استبعدوا اللـذات الحسـية وأبقوا على اللذات العقلية، ولم يستنكر الغزالي ذلك، كما لـم ير فيه ما يؤدي إلى فتور الطلب. والثالثة رأت أن اسـتخدام القرآن لصور النعيم المألوفة في الدنيا هو من باب التشـبيه والتقريب لعدم استطاعة إدراك نعيم الجنة حقًا فمثله القـرآن بما في الدنيا، ولم يستنكر الغزالي ذلـك أيضـا، بـل روى ما يقوله بعض مشايخ الصوفية "من يعبد ا لطلـب الجنـة أو للحذر من النار فهو لئيم وإنما مطلب القاصدين إلـى ا أشرف من هذا، ومن رأى مشايخهم وبحث عـن معتقـداتهم وتصفح كتب المصنفين منهم فهم هذا الاعتقاد من مجـاري أحوالهم على القطع" [٧٤] والفرقة الرابعة وهي الوحيدة التـي استنكرها، بل ونبذها هي التي لا تـؤمن ببعـث أو نشـور، وترى أن الإنسان يرجع إلى العدم بعد موته كما كـان قبـل وجوده" [٧٥].

---

[٧٤] ميزان العمل للغزالي طبعة محمد علي صبيح سنة ٦٣ ص٦.

[٧٥] ميزان العمل للغزالي طبعة محمد علي صبيح سنة ٦٣ ص٦.

وفيما نرى، فإن الناس أمام نعيم الجنة وعذاب النار أنماط ثلاثة.

النمط الأول: الذين صفت مداركهم ورقت حواسهم، وصحت طبيعتهم ووصلوا إلى درجة كبيرة من الفهم، وسواء كان ذلك بحكم ملكاتهم الفائقة أو وضعهم الثقافي المميز. وهؤلاء يتجاوبون مع ما جاء به القرآن من أن الجنة هي رحمة ا "ففي رحمة ا هم فيها خالدون" و "تحيتهم فيها سلام" و "وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة"، وهذه الإشارات تلمس المعاني التي تملك نفوسهم وتتجاوب مع مشاعرهم، وفيها ما يرضيهم ويقنعهم، وليسوا هم بحاجة إلى حوافز المتاع الحسي.. أو كوابح العذاب البدني..

ومن الواضح بالطبع أن هؤلاء أقلية نادرة في المجتمع البشري، ومثلهم مثل علي بن أبي طالب ورابعة العدوية وكبار الواصلين الذين يعبدون ا إيماناً وحباً لا رغبة في جنة ولا خوفًا من نار.

النمط الثاني: جمهور الناس وأغلبيتهم الكاسحة، الذين يكدحون طول حياتهم، ولا تدع لهم ضرورات العمل ومطالب المعيشة الملحة فراغًا للفكر أو مجالاً للاستمتاع،

وحياتهم رحلة شقاء وحرمان، وأملهم الأسمى هو أن تتـاح لهم فرصة الاستمتاع بما حرموا منه والراحة مما شقوا به.. والجنة بالنسبة لهم هي الملاذ الذي يكفل لهم طيبات تماثـل طيبات الحياة الدنيا التي حرموها. ومن هنـا فـإن الشـيء الوحيد الذي يلمس نفوسهم هو ما جاء بالقرآن من إشـارات إلى السندس والإستبرق والحور العين وأنهار العسل والخمر حتى وإن كانت حقيقتها غير ما هي في الدنيا.. مما لا يعلمه (ملك مقرب أو نبي مرسل) بتعبير ابن تيمية.

النمط الثالث: الذين تضافرت علـيهم ظـروف معينـة بحيث جعلتهم ذوي طبيعة عدوانية أنانية شريرة، فطبـاعهم جافية، وقلوبهم قاسية، وقد تحكمت فيهم الأنانية فلـم يـروا إلا أنفسهم، فعملوا كل حياتهم للوصول إلى أعلى المناصـب بالنفاق والخداع والكذب والتزييف والاستغلال، ومنهم الـذين يشبعون نزعاتهم الشريرة ونفوسهم المريضة بإذلال النـاس وتعذيبهم، ومنهم أكابر المجـرمين مـن رجـال السياسـة والحروب وأصحاب الأعمال "وأبطـال الإمبراطوريـات".. إلخ.. الذين سفكوا الدماء وحكموا بالحديد والنار، وحرمـوا شعوبهم الحرية والعزة.. وجعلوا بلادهم سجنًا كبيرا وتفننـوا

في التعذيب هم وأتباعهم – من وزراء الداخلية.. حتى أصغر جندي اشترك معهم.. إلخ.. وهؤلاء لا ينفع فيهم حديث عـن جنة فيها سمو روحي أو استمتاع حسي – فليس لهم قلـوب يفقهون بها، وقد استطاعوا بفنـون التزييـف والاسـتغلال والبطش أن يصنعوا لأنفسهم جنة صغيرة في الحياة الـدنيا. وإنما ينال منهم الوعيد الشديد والجزاء الرهيب، وأشدها هي النار، ولا بد أن تظهر النار في أشنع صورها – لأن كلمـة النار المجردة لا تكفي – وقد تنسى فلا بد من كل الأوصاف المروعة التي توصف بها في القرآن حتى يمكن أن تؤثر في قلوبهم القاسية ونفوسهم المتحجرة.

وفي الوقت نفسه فإن القرآن قد فتح لهم باب التوبـة إذا أقلعوا عن موبقاتهم.

النعيم "الحسي" والنعيم المعنوي:

كان لا بد للقرآن أن يخاطب كل نمط من هذه الأنمـاط بما يتجاوب معه، وما يؤثر فيه، إذا أراد هداية الناس، ولـم يكن هناك من وسيلة أخرى، وكان من الضروري أن يتعامل مع الغريزة آونة، ومع القيم آونة أخرى. وكان كالطبيب الذي لا يمكن أن يرفض مريضا لشدة مرضه، أو سوء حالتـه –

على العكس. إن هذه نفسها تكفل للمريض نصيبا أكبر من عناية الطبيب، وتجعله أحوج إليها.. وكان من الضروري أن يعمل القرآن حساب الاختلافات العديدة في النفسية والمزاج والفهم بين الأجناس بعضها بعضا، وبين العصور قديمها وحديثها.

وقد نجح القرآن في هذا. فلا يعلم كتاب ظل بعد ألف وأربعمائة سنة غضا نضيرا، بل متوهجا متألقًا كالقرآن، لا يزيده مر السنين إلا رواء، وكل يوم يمضي يكشف عن جديد من وجوه إعجازه بحيث يمارس دوره في الهداية اليوم، كما كان يمارسه عند نزوله.

فا تعالى الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه أنزل في كتابه ما يتفق مع طبيعة هذا الإنسان وما يحقق معه أعظم النتائج، وليس من البعيد أن يكون وراء غمز الغامزين، وما يثيرونه من شبهات الحسد العميق من توفيق القرآن.

وبالنسبة للجنة، كان لا بد أن يعرضها القرآن كما عرضها بالفعل نعيما حسيا، ونعيما معنويا. ولو توجه القرآن إلى الناس بنعيم معنوي فحسب لما أصحاب ذلك نفوس

الأغلبية المكدودة المحرومة، ولما جاء بالجديد المنشود. ذلك أن فرص الاستمتاع النفسية والروحية والمعنوية، أصـبحت في هذا العصر متاحة للجميع تقريبا بفضل التقدم في وسـائل الإعلام، فيمكن للجميـع الاسـتماع إلـى ألحـان مـوزار وسيمفونيات بيتهوفن.. ورؤية لوحات روبنز وفـان جـوخ ورافائيل إلخ.. ورؤية أو شهود الأوبرا التي لم يكن يشهدها إلا النبلاء. ومشاهد الجمال الطبيعي مبذولة دوما للجميع، وقد أصبحت السياحة متاحة لأوساط الناس، وأهم من هذا كله أن أسمى وسيلة للاستمتاع الأدبي والتذوق الفنـي هـي قـراءة القرآن والاستماع إلى جرسه ونغمه، وما فيها مـن اتسـاق وموسيقى، وتدبر معانيه الرائعة وتشبيهاته الرائقـة.. وهـذا كله متاح لكل الناس دون حاجة إلى جنة في الآخرة.

ولو كان الاستمتاع الروحي والنفسي كافيا، لعكف كبار الفلاسفة والكتاب والمفكرين والفنانين على فنونهم، وهي من النسق الأعلى، وهم سادتها، ولما ضعف كثير مـنهم أمـام المرأة الجميلة، وخضعوا لها فنجد نيتشه يسـتجدي رضـاء يهودية لعوب ومكسيم جوركي يتقرب إلى ممثلـة ترفضـه، ونابليون تخدعه زوجته الأولى فيحب امرأة لا تَفْضل الإوزة

السمينة.. وأوجست كونت يتوله في حب امرأة معلقة اختفى زوجها من حياتها، ولما ضحى الـزعيم الألمـاني "لاسـال" بحياته في سبيل المرأة التـي أحبهـا.. ولمـا فقـد بارنـل وبولانجيه [٧٦] مستقبلهما السياسي لعلاقاتهما النسائية، ولمـا ضحى إدوارد الثـامن بعـرش الإمبراطوريـة البريطانيـة للاحتفاظ بمطلقة جميلة.. وغير هؤلاء كثيرون.

إننا لسنا مثل منافقي العهد الفيكتوري، ولا يخجلنـا أن نقول إننا نسعد بالمتع الحسية، وأن الاستمتاع بالجمال هو من أعظم صور الاستمتاع، وأن أروع صور الجمال تأثيرا هـي ما جسدته القدرة الإلهية في الجسم الإنسـاني، وأن أعمـق صور التعاطف هي ما يجمع الرجل بالمرأة. إن كل الفنـون من أقدم الآباد حتى الآن تدور حول الحب، الـذي لا يكـون حبا إلا عندما تمتزج فيه العاطفة بالغريزة، فإذا كـان فيهـا ما يشين المجتمع، فلماذا جعلها محور الثقافة والآداب ونبـع فنون التمثيل والسينما والموسيقى والشعر.. إلخ.

---

(٧٦) بارنل سياسي أيرلندي، وبولانجيه سياسي فرنسي وصل كلاهما إلى قمة الشهرة، ولكنهما خسراها لتورطهما في علاقات نسائية.

إن مسلك الأوربيين والأمـريكيين وادعـاءاتهم تثيـر العجب فهم يتهمون المسلمين "بالشهوانية" في حين أن حياتهم كلها تدور حول الشهوة والجنس، وهـم يتسـافدون تسـافد الحيوانات وتبدأ الحياة الجنسية من المراهقة حتى السـبعين، وتجد المرأة الأمريكية في السبعين متأنقة تمـارس "الحـب" وتسعى لقضاء وقت طيب!! ولكل زوجة عشيق، ولكل زوج عشيقة...

إن العلاقة بين الرجل والمرأة اكتنفتها في الحياة الـدنيا مخاطر عضوية لم تجعلها صفوا دائما. وقـد انتفـت هـذه المخاطر في الجنة، فالمرأة في جنة الإسلام مبرأة مـن كـل ما فرضته الضرورات البيولوجية عليها في الحياة الدنيا، فهل يؤخذ على الإسلام أنه يبرز صورة "محسـنة" للمـرأة فـي الجنة، وهذا هو أمل الفنانين والمثالين، والمرأة نفسها؟

وماذا عن الطيبات الحسية الأخرى.. لحم طير، فاكهة، أنهار من عسل مصفى.. إلخ.

لقد كان أمل البشرية الذي عجزت عنه حتى الآن هو أن توجد مجتمعا لا تفنى موارده، ولا تحد ذخائره مما تشـتهيه الأنفس وتلذ الأعين. وعندما اكتشفت الآلات والقوى المحركة

تصور "أوين" وبعض الكتاب أن العمال لن يضطروا إلى العمل إلا ثلاث أو أربع ساعات تكفي لإشاعة الطيبات. وظهر ماركس وقال للعمال إن الدين أفيون الشعوب، يدعي جنة في الآخرة في حين أن من الممكن للاشتراكية أن تقدم لهم جنة في الدنيا، فانساقوا وراءه، فلم يجدوا الجنة الموعودة، ولكنهم وجدوا الجحيم الذي يفوق جحيم الرأسماليين. وكان قصارى ما وصلت إليه الحضارة الحديثة أنها حققت الجنة فعلاً، ولكن للمليونيرات، أما الجماهير العريضة فعليها أن تكدح ثم لا تجد إلا حياة تلبد جوها الأقساط "وشبح البطالة" والأزمات.. إلخ.

إن الفلاح الذي تغضنت يداه من الإمساك بالفأس والضرب به حتى أصبحت كيد التمساح، والعامل الذي يكدح من الصباح حتى المساء وتشغله هموم الحياة وجهاز الحياة الصناعية الحديثة الذي سلبه القوة والحرية، وربة البيت التي لا تعرف إلا الحمل والرضاعة، وتعمل من الفجر حتى الليل في الكنس والغسل والطهي ورعاية الأبناء وشئون البيت.. إن هؤلاء جميعا يمضون حياتهم في عناء وشقاء ولا يكون لهم ذرة أمل في استمتاع ما لم يدركهم ا برحمته فيوجد لهم

جنة تعوضهم عن كل ما حرموا منه في الحياة الدنيا وتكافئهم عن عملهم وكفاحهم. فلماذا يعد هذا شيئًا شـاذًا أو غريبـا، وأصول العدالة توجبه، وقـدرة ا لا تضـيق بـه.. أم أن الكحكة في يد اليتيم "عجبة" كما يقول المثل المصـري.. وإن الجنة لا توجد إلا في الحياة الـدنيا، وإلا بالنسـبة للأغنيـاء والأثرياء و "سيدات الصالونات".

إن الحضارة الأوربية لا تخفي فخرها بإتاحة الطيبـات من الرزق الأكل – الشرب – الملبس – الاستمتاع المـادي والجنسي، لكل من يستطيع أن يدفع، فهل يلام الإسـلام لأن جنته تقدم كل هذا مجانًا. وللمستحقين.

ومع هذا..

فقد اتسع نعيم الجنة الحسي للذي يريد أن يشبع هوايتـه في الزرع، وإن كان الزرع من أروع ما تقدمه الجنة، ومـن ثم فيمكن لذوي الهوايات أن يشـبعوا هوايـاتهم الأخـرى، واقترن نعيمها الحسي والمادي بمتعة روحية يصغر أمامهـا كل المتع الأخرى، ألا وهي رؤية ا تعالى، هذا الأمل الذي تقطعت دونه أعناق الفلاسـفة والمفكـرين.. إن المـؤمنين يسعدون به بصورة ما نعجز عن تكييفهـا، لأن ا تعـالى

"لا تدركه الأبصار" حتى وإن كانت نفوس المؤمنين شاخصة ووجوههم إليه ناظرة.. وحتى لو كان هناك حديث نبوي عن الرؤية "كرؤية القمر" وعلى كل حال فإننا لا نرى من القمـر إلا نوره..

حقيقة التعذيب "الوحشي" في النار:

أوضحنا في الفقرات السابقة أن الطبيعة النفسية الفنيـة للخطاب القرآني المنبثقة من هدفه "وهو الهداية" اقتضـت أن يبرز النار إبرازا رهيبا مروعا بحيـث يـؤثر علـى ذوي القلوب القاسية الذين أريدوا بهذا الإبراز، وبدون هذا ما كان يمكن أن يحقق الأثر المطلوب، وأن هذا هو سر التشـبيهات والتصويرات المروعة.

وأوضحنا – كذلك – أن الخطاب النفسي/ الفني اقتضى أن ما تتضمنه من تصويرات قد لا تتفق مع مشـاهدنا فـي الدنيا، وأن القرآن، كان لا بد وأن يستخدم هذه التصويرات لأنها الوحيدة التي نعلمها، ويمكن عبرها أن نتفهم المضمون شأنها في هذا شأن ما جاء عن الجنة أو مـا جـاء عـن ا تعالى..

وفي هذا وذاك ما يغير الصورة التي تبدو للوهلة الأولى – عن تعذيب رهيب في نار جهنم.

وبالإضافة إلى هذا، فيجب عند عرض هذه الصور من العذاب، والآيات عن الجحيم أن نعرض أيضا للآيات العديدة عن رحمة ا تعالى "وهو أرحم الراحمين" وأن رحمـة ا تفوق بمراحل رحمة الإنسان.. وحسب القرآن أن كل آياتـه تتوج باسم ا "الرحمن الرحيم" وما من تأكيد للرحمة كهـذا التأكيد، فضلاً عن أن الرسول ما أرسل "إلا رحمة للعالمين" ، وأن الرسالة كلها "هدى ورحمة" ﴿أو تَقُولُوا لَو أَنـا أُنْـزِلَ علَينَا الْكِتَاب لَكُنا أَهدى مِنْهم فَقَد جاءكُم بينَةٌ من ربكُم وهدى ورحمةٌ﴾ (١٥٧ الأنعام)

﴿ ولَقَد جِئْنَاهم بِكِتَابٍ فَصلْنَاه علَى عِلْمٍ هـدى ورحمـةً لقَومٍ يؤْمِنُون﴾ (٥١ الأنعام)

﴿ ونَزلْنَا علَيك الْكِتَاب تِبيانًا لكُل شَيءٍ وهدى ورحمـةً وبشْرى لِلْمسلِمِين﴾ (٨٩ النحل)

﴿ هذَا بصائِر مِن ربكُم وهدى ورحمةً لقَومٍ يؤْمِنُـون﴾ (٢٠٣ الأنعام)

﴿ مِن بعدِ ما أَهلَكْنَا الْقُرون الأُولَى بصائِر لِلناسِ وهدى ورحمةً لعلهم يتَذَكرون﴾ (١٣ القصص)

﴿ هدى ورحمة للمحسنين﴾ (٣ لقمان)

وكذلك

﴿ قُل لو أَنْتُم تَملِكُون خَزائِن رحمةِ ربـي إِذًا لأمسـكْتُم خَشْيةَ الإِنْفَاقِ﴾ (١٠٠ الإسراء)

﴿ قُلْ يا عِبادِي الَذِين أَسرفُوا علَى أَنْفُسِهم لاَ تَقْنَطُوا مِن رحمةِ ا ِ إِن ا َ يغْفِر الذنُوب جمِيعا إِنه هو الْغَفُور الرحِيم﴾ (٥٣ الزمر)

﴿ قَالَ عذَابِي أُصِيب بِهِ من أَشَاء ورحمتِي وسِعتْ كُـل شَيءٍ فَسأَكْتُبها لِلذِين يتقُون ويؤْتُون الزكَاةَ والذِين هم بِآياتِنَـا يؤْمِنُون﴾ (١٥٦ الأعراف)

فضلاً عن الآيات التي وصفت ا تعالى بأنـه غفـور رحيم، ويضيق المجال عن ذكرها. والآيات التي حرم فيهـا الظلم على الناس تحريما شديدا، فكيف نظن با تعالى بعـد ذلك أثارة من ظلم.. إن ا لا يظلـم مثقـال ذرة، وإن تـك حسنة يضاعفها.

والحقيقة أنه ما دامت الدار الآخرة هي أصـلاً هيكـل عدالة، فالمفروض أن يستبعد بداهة أي ظلم، لأنها إنما قامت لتقويم الظلم، وتعويض المظلومين، فكيف نظن أن يرتكـب فيها ظلم، أو أن يكون العلاج هو الداء نفسه.

وقد كنت أبحث عن مبرر العدالة في آية مثل ﴿ كُلمـا نَضِجتْ جلُودهم بدلْنَاهم جلُودا غَيرها لِيذُوقُوا الْعـذَاب﴾ (٥٦ النساء) دون أن أهتدي إليه حتى تنبهت إلى ما اقترفه "أكابر المجرمين" من الذين حكموا البشرية من فراعنة مصر، حتى الآشوريين الذين أقاموا "أهرامات" من الجماجم، حتى فظائع الرومان، ثم فظائع التتار الذين كانوا يهلكون الحرث والنسل ولا يدعون طفلاً أو شيخًا أو رجلاً أو امـرأة، ويتترسـون بالأسرى ثم ما قامت به محاكم التفتيش من أساليب للتعـذيب تقشعر الجلود لمجرد قراءته، وما قام به قادة الاستعمار مـن استعباد للأفريقيين. ونهب وسلب أفريقيا وآسيا، حتى نـأتي إلى عهد الديكتاتوريين في العصر الحديث وساسـة أوربـا الذين تسببوا في حربين عالميتين قتل وشوه فيهما مـا يزيـد على مائة مليون فرد، حتى نصل إلى حمزة البسيوني وأمثاله في سوريا والعراق ومختلف دول العالم الثالث.

إن كل واحد من الملوك والأمـراء والقـادة والساسـة وأتباعهم الذين طبقوا أو أمرهم الوحشية تسـبب فـي قتـل وتعذيب وتشويه عشرات الألوف. إنه لـم يسـرق رغيفـًا أو يفجر بامرأة. ولكنه قتل وشوه شعوبا بأسـرها ومـارس أسوأ صور التعذيب من سمل عيون، وقلع أظافر، وإحـراق على نار بطيئة، وكان أسفه الوحيد أن الموت ينقذ ضحاياه.

ماذا فعلت عدالة البشرية لهم؟ إنها لا تزال تمجدهم ومن حكمت عليه فإن أقصى ما لديها أن تقضي عليه بالموت فهل من العدالة أن يتساوى في العقوبة من قتل فردا ومـن يقتـل مليونًا؟ إن عدالة البشرية لا تستطيع أن تقتل مجرما إلا مرة واحدة. وعدالة نار الآخرة وحدها هي التي يمكن أن تعاقبهم بمقدار جرائمهم.

إنها صورة مروعة، ولكنها عدالة، وفظاعتها هي نفسها عين العدالة. لأن الجرائم الفظيعة يجـب أن يعاقـب عليهـا بعقوبة تتناسب معها، وأي تسامح يكـون إخـلالاً بميـزان العدالة.

وإذا جلت الذنوب وهالت

فمن العدل أن يهول الجزاء

والعقوبات بصفة عامة كلها سيئة كريهة. إن السجن في زنزانات ضيقة وتقييد الأيدي بالأغلال الحديدية.. هو إهدار للكرامة.. وقضاء على الحرية، ومع ذلك فلا مناص عنـه، وهو يطبق في كل دول العالم، لأنه إنما يطبـق علـى مـن أهدروا الكرامة والحرية.

لقد أعدت جهنم لكل "مارد متمرد" بتعبير الرسـول ﷺ لكل طاغوت وديكتاتور وسفاح ومستغل ولم تعد لمن يقصر في صلاة.. أو يرتكب إثما لأن هذه ممـا يجبـه الاسـتغفار وتذهبه الحسنات "إن الحسنات يذهبن السيئات".

***

ومع هذا...

فإذا تعاظمتنا تلك الآيات التي تصف عذاب النار، فلا بد أن نضع جنبا إلى جنبها آيات العفـو والمغفـرة والرحمـة، واستبعاد الظلم، لأن القرآن يكمل بعضه بعضا. فإذ حدث هذا لرجحت كفة الرحمة، حتى على كفة العدالة. لأن ا تعـالى

يحكم بالعدل أولاً، ثم يتلطف برحمته.. لتنقذ كل من في نفسه ذرة من الخير.

فإذا قيل ألم يكن من الأفضل إغفال تلك الآيات المروعة والأوصاف الرهيبة، فإننا نقول، كلا.. كان لا بـد أن تـرد، لأن هناك من لا يفهم إلا هذه اللغة ولا يتأثر إلا بها.

***

والقضية بعد ليست جديدة، كما يظن، فقد عرضها على الـنص نفسـه أولـى النـاس بالـدفاع وأقـربهم إلـى الرحمة: أم. فقد روي عن ابن عمر قال كنا مع النبي ﷺ في بعض غزواته، فمر بقوم فقـال" مـن القـوم" قـالوا نحـن المسلمون، وامرأة تحضب (أي توقد) بقدرها ومعها ابن لهـا فإذا ارتفع وهج تنحت به، فأتت النبي ﷺ فقالت "أنت رسول ا "؟ قال "نعم" قالت "بأبي أنـت وأمـي ألـيس ا أرحـم الراحمين" قال "بلى" قالت "إن الأم لا تلقي ولدها في النـار" فأكب رسول ا ﷺ يبكي ثم رفع رأسه إليهـا وقـال "إن ا لا يعذب من عباده إلا المارد المتمرد الذي يتمرد علـى ا

وأبى أن يقول لا إله إلا ا ". رواه ابـن ماجـة [٧٧]. فهـذا الحديث وإن كان يثبت النار، إلا أنه يوضح أن فهم كثير من المسلمين عن هذا الموضوع لا يتفق مع ما قدمه الرسـول، وما قصر به النار على المارد المتمرد.

والذين يثيرون قضية النار ومعظمهم من المستشـرقين والذين يغمزون الإسلام ينسون أن هذه النقطة أدت إلـى أن يستبعد التشريع الإسلامي من عقوباته الحرق بالنـار "فـلا يحرق بالنار إلا خالقها". فوجود النار في الـدار الآخـرة.. أبعدها من الحياة الدنيا، على نقيض ما حدث للمسيحية، فلما كانـت الكنيسـة تمقـت الـدماء، "ecclisia abhorreta sanguine" متأثرة بما قيل عن الدم المسفوح للمسيح عنـد صلبه، فإن العقوبة المقررة أصـبحت الإحـراق.. فكانـت الكنيسة تسلم المدان إلى السلطان المدنية لإعدامـه بشـرط ألا يسفك دمه! وكان معنى هذا الحرق. وهذا هو سـر تلـك المواكب الرهيبة التي سيق فيها المخالفون والملحدون زمـرا

---

[٧٧] كتاب مشكاة المصابيح لمحمد بن عبد ا الخطيب التبريزي – المكتب الإسلامي بيروت تحقيق الألباني ج٢ ص ٧٣٥ .

إلى المحرقة وأطلق عليهـا مواكـب الإيمـان auts de fe واستمرت من سنة ١٤٨١ حتى سنة ١٨١٣ في إسبانيا.

وقد أثار موضوع عذاب النار في نفوس بعض الفقهـاء القدامى ما يثيره في نفوس بعض المحدثين، فارتأى معظمهم أنه لن يخلد في النار أحد من المسلمين – وتضمنت بعـض الأحاديث وصفًا لآخر من يخرج من النار ويـدخل الجنـة، فضلاً عن أحاديث عديدة عن إخراج مئات الألوف برحمـة ا . وأهم من هذا ما ذهب إليه بعض المفسرين من فناء النار نفسها. وفي تفسير الآيـة ﴿هـو الأول والآخـر والظـاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم.. ﴾ قال الشيخ محمد مصطفى المراغي "الأول: السابق في الوجود على جميع الموجودات.

والآخر: الذي يبقى بعد فناء جميع الموجودات. أما أنـه أول بهذا المعنى فأمره ظاهر، لأنه واجب الوجود، وجـوده مقتضى بذاته، أو هو الوجود الحق وكل ما عداه فهو هالـك في ذاته يحتاج في وجوده إلى إشراق الوجود الحق. وأما أنه آخر بهذا المعنى فليس موضع اتفاق، وأكثر العلمـاء علـى خلافه، فمن الناس من ذهب إلى أن كل شيء يفنى ويبقى ا وحده ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجـه ربـك ذو الجـلال

والإكرام﴾، ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ وا تعالى يوصل الثواب إلى أهل الثواب، والعقاب إلى أهل العقاب، ثم تفنى الجنة وأهلها، والنار وأهلها، والعرش والكرسي، والملك والفلك، ولا يبقى مع ا شيء أبدا، ولا يعيد بعد ذلك شيئًا أبدا، وكما كان ا ولا شيء معه سيكون ا ولا شيء معه أبد الآباد. وهذا المذهب، إن صح هو تفسير الآخر. ومن الناس من جرى على هذا الرأي وخالف في الإعادة، فقال إن ا بعد أن يفني كل شيء ويبقى وحده، وبذلك يكون آخر يعيد كل شيء مرة أخرى ويبقيها أبدا، وقالوا: مما لا شبهة فيه إمكان بقاء العالم وهناك إجماع من المسلمين على أبدية الجنة والنار، فالآخرية التي وصف بها ا نفسه لا تتحقق إلا بعد فناء الجميع وبقائه وحده جل وعلا. وأبدية الجنة والنار مجمع عليها لا تتحقق إلا إذا أعيدت الجنة وأهلها، والنار وأهلها، وبقي الكل بعد ذلك أبد الآباد"[٧٨].

---

(٧٨) الشيخ محمد مصطفى المراغي – حديث رمضان – كتاب الهلال – دار الهلال – نوفمبر ١٩٧٠ – ص ١٥٨ – ١٥٩..

وجاء في رسالة "العصمة من الضلال" للعلامة الجلال إن الموصل إلى النار هو الشرك لا غير، وقال الجمهور بل وغيره من المخالفات على اتفاق الجميع على جواز العفو عقلاً قيل وشرعا، كما صرح به قول إبراهيم عليه السلام "ومن عصاني فإنك أنت العزيز الحكيم" وقول عيسى عليه السلام "... وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم" وقول سيدنا محمد ﷺ "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"[٧٩].

نقول إن هذه الفقرة التي يمر عليها سراعا الفقهاء تتضمن الكثير. إن ثلاثة من أولي العزم من الرسل يبتهلون إلى ا تعالى العفو عن المخالفين لهم. فما أبعد ذلك عن أقوال الفقهاء وتأكيدهم، إن المشركين لا بد وأن يقذف بهم في النار. حقًا لقد جاء في القرآن آيات مثل ﴿إن ا لا يغفر أن

---

(٧٩) انظر هذه الرسالة وهي الثالثة في مجموعة الصنعاني الرسائل اليمنية المطبوعة بالقاهرة – دار الطباعة المنيرية ص – ٢١ – والجلال مؤلفها هو الإمام المجتهد الحسن بن أحمد الجلال الحسني اليمني المتوفى بجران صنعاء سنة ١٠٨٤ بتعليقات الإمام الشهير محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني.

يشرك به ويغفر ما دون ذلك﴾.. ولكن هناك أضعاف هـذه الآية عن رحمة "تسع كل شيء" وتمحو الذنوب جميعا.

واستطرد العلامة الجلال فأورد إشارة مـن قـال مـن الفقهاء بفناء النار "لأنها من عالم الفساد دون الجنة، إذ هـي من رحمة ا ، كما أطبق عليه المفسرون في قولـه تعـالى ﴿ففي رحمة ا هم خالدون﴾، والرحمة لا تفنـى، فـإذا رد عليهم ذلك بآيات الخلود والتأبيد، قيل إنما المقصود بها هـو اللبث الطويل [٨٠] ولا ينطبق هذا على الجنة لأن ا تعـالى يقول "عطاء غير مجذوذ"، وهو خبر لا يكذب [٨١].

---

[٨٠] إن استخدام "التأبيد" بمعنى المكوث الطويل ليس مسـتنكرا. وهـم يطلقون على من يحكم عليه بخمسة وعشرين عاما سجنًا السجن المؤبد أو أنه (عوقب بتأبيدة).

[٨١] انظر هذه الرسالة وهي الثالثة في مجموعة الصـنعاني الرسـائل اليمنية المطبوعـة بالقـاهرة – دار الطباعـة المنيريـة ص – ٢١ – والجلال مؤلفها هو الإمام المجتهد الحسن بن أحمد الجـلال الحسـني اليمني المتوفي بجران صنعاء سنة ١٠٨٤ بتعليقات الإمام الشهير محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني

ولعلنا اليوم أقدر على تفهم معنى الخلود بعد الدراسـات الجديدة عن الزمن، والنقص الرئيسي في فهمنا لمعنى الخلود يعود إلى أننا نحكم بمفاهيمنا "الأرضية" على العوالم الأخرى – في حين أن هذه العوالم الأخرى لا تنطبق عليها الأوضاع الخاصة بالكرة الأرضية. وطبيعي أن تتغير عنـدما تبـدل الأرض غير الأرض، والسماوات، فنحن نحكم على الـزمن بدورة الأرض حول نفسها، وحول الشمس، ولكـن الأمـر يختلف حيث لا شمس ولا أرض. وقد أمكن للعلم الحديث أن يلقي إطلالة على "ما فوق الفضاء" حيث ينتفي البعد الرابع – أي الزمن – فلا يصبح هناك ماض ولا مستقبل، وإنما هـو حاضر أبدي فالخلود ممكن بمقتضـى أبحـاث "مـا فـوق الفضاء". ولكن هذا الخلود لا يأخذ الشكل الذي يفهمه إنسـان الكوكب الأرضي.

***

وأخيرا جدا فقد يسأل بعض الناس "أين هي النار، وأين هي الجنة ؟".

من السهل أن نقول لهذا السائل إن النار قد تكون أقرب إليه مما يتصور، وأنه قد يكون واقفًا عليها !! ولو أنه حفـر

في باطن الأرض لعمق أربعين كيلو مترا لوجد النار التي وقودها الحجارة ولا ينقصها إلا هو ليكون وقودها الناس والحجارة !! فنحن إذا جاوزنا "القشرة" الأرضية، وهي في حدود عمق أربعين كيلو، وجدنا باطن الأرض أتونا ملتهبا تندلع فيه النيران التي تذيب المعادن والصخور. وهو جحيم حقيقي نسير فوقه.. وتنبسط فوقه المحيطات بملايين الملايين من أطنان الماء وآلاف البواخر التي تمخرها.. وتحت هذا كله النار.

وليس معنى هذا أن النار التي جاء ذكرها في القرآن هي باطن الأرض، وإن كان باطن الأرض يصلح جحيما يسع المجرمين من البشرية منذ أن وجدت، ولكننا نريد فحسب أن نضرب المثل بمدى المفارقة.. وكيف أن هذا التساؤل هو مما لا محل له.. ففي الكون مليارات الكواكب التي لم تكشف عنها البشرية، ولن تستطيع أن تكشف عنها، لأن الكون يتمدد بأسرع مما يمكن لأي اتصال، وفي أي كوكب من هذه الكواكب يمكن أن تجد الجنة والنار.. ومن ذا يستطيع أن يثبت كذب هذا الكلام.. وانفساح الكون ووجود ملايين أو مليارات من الكواكب تسمح بوجود عشرات من

صور الحياة التي تختلف عن حياتنا.. فأين الجنة؟؟.. وأيـن النار؟.. سؤال سخيف لا محل له..

الفصل العاشر

القضية الرابعة: إنكار النبوات

إنكار النبوات هي آخر وأهون ما تطرحه العقلانية على الأديان، وإنكارها عادة ما ينصب على نقطة "الـوحي" ، أي تلك العلاقة التي لا تفهمها العقلانية بين النبي وا ، والتي بها يتلقى النبي رسالته من ا تعالى.

والعقلانيون يكادون يجمعون على أن الأنبيـاء أفـذاذ، عظماء، موهوبون وأنهم يمثلون نمطًا فريدا من القادة والهداة وهم لا يرمون الأنبياء بالكذب أو الادعـاء، فـلا يمكـن أن يصل إلى ذروة السيادة ويكتسب الاحترام والتوقير، على مر الأجيال دعي أو كاذب ولكنهم يـرون أن إيمـان الأنبيـاء بدعوتهم، كان من القوة والهيمنة، بحيث جعلهم فـي حالـة نفسية يؤمنون معها أن رسالتهم من ا فصدقوا بها على هذا الأساس، فهم صادقون فيما بينهم وبين أنفسهم. ولكـن هـذا لا يعني – فيما يرون – أن يكون هذا صحيحا من الناحيـة الحقيقية.

وأغلب الظن أن جحود العقلانية لنبوات الأنبيـاء إنمـا جاء من نكرانها لوجود ا ، لأنها إذا كانت تجحد الأصـل، فجحدها للفرع طبيعي ومتوقع، ولكنها لو آمنت بـا ، فلـن يكون هناك ما يمكن أن ترفضه في وجود وحي، بل لكـان هذا هو الأقرب إلى المنطق والعقل إذ افتـراض عنايـة ا تعالى بمخلوقاته أقرب إلى المنطق من إهماله لها. ومن ثـم فيفترض أن يكون ثمة علاقة من نوع ما.

الوحي:

وقد استخدم القرآن الكريم كلمة "وحي" ومشتقاتها فـي عدد من الاستخدامات لا تنم بالضـرورة علـى وجـود أداة أو قناة استثنائية للوحي، فجاء:

﴿ وَأَوحى ربك إِلَى النحل أَن اتخِذِي مِن الْجِبال بيوتًـا﴾ (٦٨ النحل)

﴿ يومئِذٍ تُحدثُ أَخْبارها* بِأَن ربك أَوحى لَها﴾ (أي الأرض). (٤-٥ الزلزلة)

كما جاء التعبير بالنسبة لأم موسى ﴿ وَأَوحينَا إِلَـى أُم موسى أَن أَرضِعِيهِ ﴾ (٧ القصص)

واستخدم القـرآن التعبيـر بالنسـبة للشـياطين ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ (١٢١ الأنعام)

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شـياطين الإنـس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفتـرون﴾ (١١٢ الأنعام)

فالقرآن الكريم يستخدم كلمة وحـي بمعنيـين: الأول: المعنى اللغوي العام للكلمة الذي لا يتطلب وجـود واسـطة استثنائية معينة، والثاني: عندما يشير إلى واسـطة خاصـة يمكن في بعض الأحيان أن تكون مرئية، حتى وإن لم تكـن معروفة للآخرين، إذ تتقمص صورة رجل من عامة الناس. والقرآن يقصد بهذه الواسطة – ناقل الـوحي مـن ا إلـى رسوله "جبريل". وقد ذكر في القرآن باسمه ثلاث مرات.

﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن ا ـ مصدقًا لما بـين يديـه وهـدى وبشـرى للمؤمنين* من كان عـدوا ـ وملائكتـه ورسـله

وجِبريلَ وميكَالَ فَإن ا َ عدو ِللْكَافِرين ﴾ (٩٧ – ٩٨ البقرة).

﴿ وإن تَظَاهرا علَيهِ فَإن ا َ هو مولاَه وجِبريلُ وصالِح الْمؤْمِنين﴾ (٤ التحريم)

وليس في هذه الآيات – باستثناء الأولى ، ما يشير إلى وظيفة جبريل في تبليغ رسالة ا إلى النبـي، وإن جـاءت آيات بهذا المعنى دون أن تشير إلى جبريل بالاسم.

والآثار المروية عن الرسول ﷺ ، يصور معظمها نزول الوحي على الرسول، وهو في مجلسه، وبين الصحابة بحالة نفسية معينة قد تصطحب بعرق غزير، تسـتغرق الرسـول للحظات، ووردت آثار قليلة عن جبريل عنـدما جـاء إلـى الرسول وهو في ملأ من أصحابه في هيئة رجـل لا يـرى عليه أثر السفر.

فليس في هذه الآيات والآثار ما يتنافى وأصول العقلانية فإن جبريل جاء في هيئة رجل من عامـة النـاس، دون أن يظهر في هيئته النورانية الملائكية، لأن القرآن نفسـه سـفه

رغبة المشركين في أن ينـزل الملائكـة علـى الأرض يكلمونهم...

وعلى كل حال فإن نزول وحي من السماء، يحمله أحد الملائكة هو أمر لا تستطيع العقلانية أن تثبت بطلانه، حتـى وإن عجزت عن فهمه بوسائل وأدوات بحثها الخاص...

***

إن الدليل الأعظم على صدق الأنبياء أن حياتهم كلهـا، وأفعالهم كلها، كانت مصداق دعواتهم، وهو دليل يفترض أن يتقبله العقل أكثر من غيره، فقد كان الأنبياء نمـاذج للخلـق الكريم والصدق والأمانة والشجاعة والمروءة، ولـم يعـرف عن أي واحد منهم كذبا أو نفاقًا ولم يستهدف أي واحد مـنهم منصبا أو ما لا أو ثروة أو جاها، بل ضحوا بمـا يملكـون، وتعرضوا للاضطهاد من ناحية، والإغراء من ناحية أخـرى فصمدوا للاضطهاد ورفضوا الإغراء.

والدعوات التي دعوا إليها هي أعظم العوامل في هداية المجتمع الإنساني، وهي التي أعطته القيم الحضـارية التـي تميزه، فالمسألة ليسـت أن حيـاتهم ودعـواتهم، ظـاهرهم

وباطنهم، سرهم وعلنهم واحد، إنه أيضا أن الدعوات التـي دعوا إليها كانت أفضل وأثمن ما تعتز به البشرية.

دور النبوات في التاريخ ومنزلة الأنبياء:

لقد قال الشيوعيون "إن الذين أفيون الشعوب" فما أكذب هذه الدعوى... فمن حرك جماهير اليهود المسـتعبدين فـي إسار الفرعونية.. ومن دفع بالجماهير لمجابهـة الجبـروت الروماني الذي أخضع العالم.. ومـن زود القبائـل العربيـة بالشجاعة والقوة كـي تطـيح بالإمبراطوريـة الرومانيـة والإمبراطورية الفارسية. إن الثورات التي كانت العقلانيـة وراءها لا يمكن أن تقاس بهذه الثورات الجماهيرية الـثلاث في الحجم ولا في الأثر، ولا الأسلوب الذي أديت به.

ومن الذي غرس في النفس الإنسانية "الضمير" والوعي بالخير والشر والإقبال على الأول والعزوف عن الثاني..

ومن الذي أعطى البشرية قيم المساواة والسماحة، وحطم الفوارق الطبقية بين الأغنياء والفقراء، الأقوياء والضـعفاء.. الحكام والمحكومين، أليست الأديان هي التي وضـعتها أول

مرة.. وحافظت عليها، ووصلت بها إلى أبعد مما وصل إليه "إعلان حقوق الإنسان".

نحن لا ننكر أن الأديان استغلت، وأن الأحبار والسدنة والفقهاء في كل دين تقريبا استخدموا الأديان لمآربهم الخاصة على حساب الجماهير. ولكن هذه الواقعة يجب ألا تحسب على الأديان نفسها، ولكن على الذين أعطوا أنفسهم حق العمل والحديث باسم الأديان.. شأنهم في هذا شأن الساسة الذين يسيئون استخدام الديمقراطية والحرية، فلا تعد إساءتهم نقصا في الديمقراطية، وحتى لو وضعت هذه النقيصة – أي استغلال رجال الدين – في كفة الأديان فإن حسنات الأديان في الكفة الأخرى ترجحها. وتجعل الحصيلة النهائية في صالح الأديان.. لأن الأديان زودت الجماهير بالهداية والطمأنينة والرضا وأشعرتهم أن لحياتهم هدفًا ورسالة.. وعرفتهم على قيم ثمينة كالحب والصفح والعدل.. فجنبتهم عقارب الشك وقوارض القلق وتمزق الضياع وحالت بينهم وبين أن يكونوا كالأنعام "يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام".

إن الإبداع الخارق للأديان، وما اتسمت به من شـمول وكمال في عالم الفكر والدعوات أثبت بالإضافة إلى صـدق الأنبياء أن هذه الدعوات إنما هي من ا صدقًا وحقًا. لأنهـا أعظم من أن يأتي بها بشر. كائنة ما كانت عبقريته وعظمته.

وكما قلنا في كتابنا "روح الإسلام". "وعندما نطلب إلـى الناس الإيمان بأن محمدا رسول موحى إليه من ا ، فـنحن نطلب إليهم أهون اختيارين وأكثرهما سلامة...

ذلك أننا إذا وضعنا مآثر أكبر الزعماء والقـادة الـذين أنجبتهم البشرية أمام مآثر محمد.. لبدت الأولى ضئيلة، قميئة معيبة أمام الثانية.. فقد كان محمد نبيا جـاء بـدين نـاجح وسياسيا بنى دولة ورثت الإمبراطوريات القديمة، ومشـرعا حمل قانونًا عبقريا يشـمل العقوبـة الجنائيـة والعلاقـات الشخصية والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وبليغًا جـاء بجوامع الكلم واعتبرت أحاديثه حجـة فـي اللغـة. وقائـدا عسكريا مظفرا. ومثلاً أعلى في الخلق الكريم، ونتيجة لهـذا فإن اسمه لا يزال منذ ألف وأربعمائة عام حتى الآن يتـردد خمس مرات كل يوم في أربعة أركان العالم كلما أذن لصلاة. ولا يزال مثواه الأخير علما منورا يهرع إليه المؤمنون مـن

أقطار الأرض يحدوهم الشوق لكي يقفوا بين يديه فـي تلـك البقعة التي هي في الأرض "روضة" من رياض الجنة.

من ذا يسامي هذه المآثر، أو يظفر بمثل هذه المنزلة.

لقد كان الإسكندر فاتحا عسكريا مظفرا، وتتلمذ على يد أعجوبة البشرية "أرسطو"، ولكنه لم يكن المشرع ولم يكـن النبي، وما أكثر ما غلبته انفعالاته وورطتـه فـي منكـرات وآثام.

وكان أعجوبة البشرية "أرسطو" فريـدا فـي الفلسـفة والمنطق والآداب والعلوم، ولكنه لـم يكـن رجـل الدولـة ولا رجل الدين.. ولا القائد العسكري.

وكان قيصر رجل دولة، ورجل سياسـة وأدب وقائـدا منتصرا، ولكنه لم يكن رجل الدين أو المشرع، وفوق هذا فقد كان رجل كل امرأة... وامرأة كل رجل!!.

وكان نابليون رجل دولة، ورجل سياسة وقائدا عسكريا، ومشرعا، ولكنه لم يكن صاحب الدين أو رجل اللغة والأدب أو المثل الأعلى في الأخلاق.

وكان كل من "شكسبير" و "جوته" علما من أعلام الأدب والشعر والمسرح ولكنهما كانا أصفارا في السياسة والتشريع والقيادة العسكرية أو الرسالة الدينية.

إن الشخصية الباهرة والخارقة للرسـول العربـي قـد فرضت نفسها من الوهلة الأولى مع تلك الجملة التي ما كانت تشبيهات شكسبير وتهاويله لتصل إلى ما هو أبعد منها ".. لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أتـرك هذا الأمر... ما تركته".

فهل كان يملك الإسكندر، أرقى ثمرة للثقافـة الهلينيـة وتلميذ أرسطو أن يقول شيئًا كهذا.

أي قائد أو ملك أو إمبراطور أو نبي في العالم يستطيع أن يقول كما قال "محمد" عن أصحابه: "أصـحابي كـالنجوم بأيهم اقتديتم.. اهتديتم".

وأصحاب أي قائد ظفروا من الأجيال بتوقير وتبجيـل كما ظفر الصحابة؟ إن مجد محمد الذي انعكس عليهم امتـد إلى أصحابهم فقيل لهم "التابعون" وإلـى أصـحاب هـؤلاء التابعين فقيل "تابعو التابعين...".

أي جنود معركة نالوا مثل "الوسام" الذي منحه محمـد لجند بدر "إنه شهد بدرا، وما يدريك لعل ا اطلع على أهل بدر فقال "افعلوا ما شئتم".

أي بشر يصل به الاعتداد وتملك قيادة البلاغـة وقـوة التصوير إلى أن يقول لأصحابه "لو كنتم فـي أهلكـم كمـا تكونون معي لصافحتكم الملائكة".

وكل هذا...

يصدر من عربي أمي لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلم على يد فيلسوف...

فإذا لم يكن هذا وحيا، وإذا لم يكن محمد نبيا، فإن البديل الوحيد هو أن يكون محمد – كما كان يرى اليونان والرومان – إلها أو نصف إله [٨٢].

***

وما يقال على الرسول العربي العظيم، يمكن أن يقـال بصورة متفاوتة على موسى.. وعيسى.

---

[٨٢] روح الإسلام – جمال البنا – ص ١٢١ – ١٢٢.

فلو لم يكن موسى نبيا لأصبح أحد أمراء القصر الفرعوني، ولوجد في هذا وهو سليل الإسرائيليين المستعبدين ما يرضيه، وما يشعره الزهو والامتياز، وكان يمكن أن يرفض هذا دون أن تكون له دعوة يوجهها إلى فرعون، ولكنه رفض النعيم الفرعوني، ولم يقتصر على تحرير اليهود من إسار العبودية بل وجه دعوته للإيمان با   إلى فرعون نفسه وكان له مندوحة عن ذلك لو لم يكن نبيا...

وكانت دعوة المسيح ثورة على الأحبار الذين قدسوا النصوص والطقوس والشكليات، وضحوا في سبيلها بالروح والجوهر والإنسان.. قدر ما كان ثورة على الجبروت الروماني.. فكيف أمكن لهذا الرسول الذي تصور أعداؤه أنهم صلبوه أن يزلزل قوائم الإمبراطورية الرومانية، وأن تصبح دعوته شعاعا إلهيا ونورا ربانيا وسط المجتمع الأوربي الوثني. وما تحفل به حضارة العصر من مادية واستمتاع...

****

والوحي في الحقيقة يحل لنا عددا من المشكلات لا يمكن حلها إلا به. فإن المناطقة والفلاسفة استطاعوا

التوصل إلى ضرورة وجود ا باعتباره "واجب الوجـود"، ولكن وسائلهم في البحث عجزت عن أن تضـفي علـى ا تعالى صفات الحياة، والحكمة.. إلخ، وكان لا بد أن يتم ذلك عن طريق الوحي...

وفي القضية الجدلية حول دور الفرد في التاريخ، وهل البطل هو الذي يصنع تاريخ مجتمـع مـا.. أو أن ظـروف المجتمع هي التي تصنع البطل، يقدم لنا "الوحي" حلاً تعادليا، فالرسول الذي يمثل البطل، والـذات هـو نفسـه "حامـل" الموضوع والمعبر عن المجتمع. وهو على خلاف الأبطـال التقليديين الذين ينسبون إلى أشخاصـهم، أو ينسـب إلـيهم أنصارهم، الدور الفعال في التأثير التاريخي لا يدعي لنفسـه أو لملكاته الخاصة شيئًا، بل إنه ما كان يدري "مـا الكتـاب ولا الإيمان... " ودوره هو كما يتضح من اسمه – أنه رسول يحمل رسالة... ولكن هذه الرسـالة ليسـت هـي العوامـل الموضوعية، أو الاجتماعية وقوى الإنتاج كما يتصور ذلـك الاشتراكيون، ولكنها الظروف والعوامل كما ينبغي أن تكون لا كما هي كائنة بالفعل، لأنها لو كانت وحدها وكما هي التي تفرز البطل، لما كان هناك تقـدم، والفـرد باعتبـاره ابـن

المجتمع، لا يمكن أن يزيد عن هذا المجتمع، فلا يكون هناك تقدم، فلا بد من مصدر جديد: من الوحي.

إن إبعاد الأديان عن عالم الفكر الحي وإبعاد الأنبياء عن عالم التاريخ كان أكبر أسباب شقاء البشرية، وضياع الإنسان المعاصر.. ولك أن تتصور مدى ما كان يمكن أن يحدث من تغيير للصورة لو درست الأديان دراسة رشيدة، إلى جانب دراسات الأفكار الأخرى، ولو درست شخصيات وتاريخ موسى وعيسى ومحمد، وليس الإسكندر ويوليوس قيصر ونابليون.

وفي رسالتنا الموجزة "العهد" وجهنا الدعوة "لنجعل الأنبياء قادتنا وقدوتنا ولنطرح الإعجاب بالطغاة الذين جعلوا سياستهم الاستعلاء في الأرض". وقلنا في إيضاح ذلك: "يظهر استعراض التاريخ السياسي للبشرية أنها خضعت لقادة وحكام كانت وسيلتهم هي القوة الباطشة، وكان هدفهم هو الاستعلاء في الأرض، وأبرز الأمثلة على ذلك قادة الإمبراطورية الرومانية، ثم قادة الدول الأوربية التي تأثرت عميقًا بالإمبراطورية الرومانية ونسجت على منوالها.

ونعتقد أن من أكبر العوامل التي أدت إلى فساد الفكـر السياسـي إبـراز الملـوك والأبـاطرة والطغـاة والقـادة العسكريين... وإغفال الأنبياء.. وأتبـاعهم مـن حـواريين أو صحابة، لأن إعجاب الطبقة المثقفة والحاكمة في أوربـا بالحضارة الرومانية واليونانية وأبطالها الوحشيين الإسـكندر – قيصر – أوغسطس – وغيرهم هو الـذي مهـد السـبيل لظهور ميكافيللي وتقبل فصله الحاد ما بين السياسـة والقـيم الخلقية، وأدى إلى ظهور نابليون، ولينين وهتلر وموسوليني وستالين وأمثالهم، ثم هو الذي سمح بوجود آدم سميث وكارل ماركس وعزلهما الاقتصاد وإبعاده عما ينبغي له من خدمـة المجتمع وأدى إلى ظهور الرأسمالية والشـيوعية، وطغيـان المقوم المادي في المجتمع على بقية المقومـات. والوضـع السليم يقتضي إبراز هؤلاء الملوك والأباطرة على حقيقـتهم طغاة استعبدوا الجماهير ووضعوا سياسـة الاسـتعلاء فـي الأرض وجعل القوة والخداع وسـائلهم لتـدعيم سـلطانهم، وإبراز الأنبياء باعتبارهم القادة الذين قاوموا هـذا الطغيـان ووضعوا الحق في مواجهة القـوة، المبدئيـة فـي مقابـل الانتهازية، وأرسوا مبدأ كرامة النفس الإنسـانية وقداسـتها

ونجحوا بدرجات متفاوتة في إنقاذ البشرية من حكم الطغـاة وسلطان الظلام. وهذا هو النهج الذي رسمه القرآن عنـدما وضع موسى في مواجهة فرعون، وعندما جعل الرسـالات السماوية هي محاور التاريخ، والرسل والأنبيـاء هـم قـادة الجماهير.

وكان واجبا أن تتضمن مناهج التاريخ التي تدرس فـي المدارس والجامعات على اختلافها تـاريخ الأديـان وحيـاة الأنبياء جنبا إلى جنب – إن لم يكن قبل – تـاريخ التقلبـات السياسية وحياة العسكريين والملوك والمعارك الحربية"[٨٣].

***

وبعد، فإن إنكار النبوات هو أو هي ما تثيره العقلانيـة في مواجهة الأديان، لأن تميز النبوات على بقيـة الـدعوات والحركات وتفوق الأنبياء على القادة والفلاسفة والمفكـرين يتطلب "الوحي" كحل وحيد لهذا التميـز الـذي لـم يسـبق، أو يلحق للأديان والأنبياء.

---

(٨٣) رسالة العهد: - رسائل الإتحاد الإسلامي الدولي للعمل صفحة ١٧ ، ١٨.

بقلم المؤلف

مؤلفات

ثلاث عقبات في الطريق إلى المجد (١٩٤٥)

ديمقراطية جديدة (١٩٤٦)

على هامش المفاوضات (١٩٤٧)

مسئولية الانحلال بين الشعوب والقادة كما يوضحها القرآن

الكريم (١٩٥٢)

ترشيد النهضة (صودر قبل التوزيع) (١٩٥٢)

الأزمة والبطالة في الرأسمالية (١٩٥٣)

موقف المفكر العربي تجاه المذاهب السياسية المعاصرة (١٩٥٧)

قصة فرسان العمل (١٩٦٢)

دور المنظم في الحركة النقابية (١٩٥٧)

القانون والقضاء في المجتمع الاشتراكي (١٩٦٣)

التنظيم والبنيان النقابي (ثلاث طبعات) (١٩٦٦)

في التاريخ النقابي المقارن – طبعتان (١٩٦٧)

دور النقابات في المجتمع الاشتراكي (١٩٦٧)

مسئولية القيادات النقابية ملحق مجلة العمل العـدد ٣٦ سنة ١٩٦٧

الثقافة العمالية بين حاضرها ومستقبلها (١٩٦٩)

منظمة العمل الدولية – ملحق مجلة العمـل العـدد ٦٤ سنة (١٩٦٩)

الحركة العمالية الدولية – ملحق العمل العدد ٧٢ سـنة (١٩٧٠)

العمل في الإسلام – ملحق مجلة العمل العدد ٨٥ سـنة (١٩٧٢)

محاضرات في الإدارة النقابية (١٩٧٢)

الحرية النقابية ملحق مجلة العمل مارس (١٩٧٢)

روح الإسلام (١٩٧٢)

العمال والدولة العصرية ملحق مجلة العمل عدد مـايو سنة ١٩٧٥

قضية الإنتاج (١٩٧٣)

ظهور وسقوط جمهورية فايمار (١٩٧٧)

حرية الاعتقاد في الإسلام (طبعتان) (١٩٧٧)

بحوث في الثقافة العمالية (١٩٧٨)

الدعوات الإسلامية المعاصرة ما لها وما عليها (١٩٧٨)

من محو الأمية حتى الجامعة العمالية ملحق مجلة العمل مايو (١٩٧٨)

الجامعة العمالية (١٩٧٩)

الأصول الفكرية للدولة الإسلامية (١٩٧٩)

بيان رمضان (طبعتان) (١٩٧٩)

الأصلان العظيمان: القرآن والسنة (١٩٨٢)

الفريضة الغائبة : جهاد السيف أم جهاد العقل (١٩٨٤)

الحكم بالقرآن وقضية تطبيق الشريعة (١٩٨٦)

الربا وعلاقته بالممارسات المصرفية والبنوك الإسلامية (١٩٨٦)

الحركة العمالية الدولية (كبير) (١٩٨٨)

مشروع لإصلاح الحركة النقابية (١٩٨٧)

الحساسية الدينية (وسيط) دار الزهراء (١٩٨٨)

الإسلام هو الحل (٨١٣ صفحة) (١٩٨٨)

تفسير حديث "من رأى منكم منكرا".. إلخ (١٩٨٨)

خطابات حسن البنا الشاب إلى أبيه (١٩٩٠)

ب- كتب الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل

خلال الفترة من (١٩٨١) حتى الآن كتب الأستاذ جمال البنا للاتحاد الكتب الآتية:

أزمة النقابة.

الإسلام والحركة النقابية.

الإتحاد الإسلامي الدولي للعمل (كتيب تعريفي).

الإتحاد الإسلامي الدولي للعمل يبدأ المسيرة.

رسالة الإسلام.

أخت الصلاة المهجورة.

الحركة النقابية من منطق إسلامي.

الخيار الصعب.

الحساسية الدينية (وجيز).

نظم الثقافة العمالية في الوطن العربي.

وجوه الائتلاف والاختلاف بين الرأسمالية والشـيوعية والإسلام

الدولة العصرية.

رؤية لمضمون الحكم بالقرآن.

محكمة العدل الدولية الإسلامية.

الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل في عامين.

العودة إلى القرآن.

لا حرج (قضية التيسير في الإسلام).

نحن ودعوتنا.

لست عليهم بمسيطر (قضية الحرية في الإسلام).

العهد.

الشورى في الإدارة.

الحركة العمالية الدولية (وسيط).

عمال السودان والسياسة (مع آخرين).

الحرية النقابية ثلاثة أجزاء.

نحو حركة نقابية مثقفة.

الحركة النقابية السودانية تجد نفسها.

ج- مترجمات ومراجعات

النقابات في الولايات المتحدة (١٩٦٢)

النقابات في المملكة المتحدة (١٩٦٢)

النقابات في الاتحاد السوفيتي (١٩٦٢)

النقابات في السويد (١٩٦٢)

النقابات في بورما (١٩٦٣)

النقابات في الملايو (١٩٦٣)

الأزمة المقبلة (١٩٦٣)

العمالة والتنمية الاقتصادية (١٩٦٦)

مدخل لدراسة الأجور (١٩٦٦)

الإدارة العمالية في يوجوسلافيا (١٩٦٧)

العمل يجابه عصرا جديدا (١٩٦٨)

الديمقراطية النقابية (١٩٦٩)

دستور منظمة العمل الدولية (١٩٧٠)

اتفاقيات العمل الدولية في "مجلدين" (١٩٧١)

توصيات العمل الدولية (١٩٧١)

البرنامج العالمي للعمالة (١٩٧١)

"تقرير المدير العام لمنظمة العمل الدولية"

وكل هذه الكتب باستثناء الديمقراطية النقابية والأزمـة المقبلة من مطبوعات منظمة العمل الدولية.